علام العرب

٣٣

رشيد رضا

الإمام المجاهد



سسة المصرية العامة
أليف والأنباء والنشر
المصرية للتأليف والترجمة

اهداءات ٢٠٠١
المرحوم الشيخ/ احمد علي فايد
موجه اللغة العربية بوزارة التعليم

أعلام العرب
٣٣

رشيد رضا
الإمام المجاهد

للدكتور إبراهيم أحمد العدوي

المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والأنباء والنشر
الدار المصرية للتأليف والترجمة



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحصول على مركز القيادة ، وتبوء مكانة الصدارة ، فى أى عصر من العصور ، أمـر يتطلب استعدادات خاصـة عالية ، وكفاءات ممتازة . وقد توافر لرشيد رضا من تلك الملكات قدر وافر ، جعلته يقف بين مواطنيه من قـادة الاصـلاح كواسطة العقد ، وعن جدارة واستحقاق . اذ امتلأ عصره بعدد كبير من المصلحين ، تباينت مناهجهم ، وان اتفقت أهدافهم فى العمل على رفع شأن أمتهم واعادتها الى سالف مجدها وعزها .

ومن ثم تطلبت دراسة رشيد رضا عرضا دقيقا للعصر الذى شب فيه وترعرع ، ثم جاهد فيه وناضل ، وهى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر ، والسنوات الأولى من القرن العشرين . اذ تعتبر تلك الفترة من أشد سنوات الأمة العربية قسوة على النفس والمصير . فقد التقى فيها الاستبداد العثمانى بالاستعمار الأوربى المتحالف مع الصهيونية ، حتى صار عبء الاصـلاح ثقيلا ، ينوء به أولو العزم من القادة ، وذلك على نحو ما يصوره الفصل الأول من هذا الكتاب .

واستطاع رشيد رضا أن يحمل رسالته فى تلك الأيام فى قوة وايمان لأنه درس فى روية وامعان مشاكل الأمة العربية والعالم الاسلامى ، فضلا عن أنه تربى فى مهاد تلك المشاكل والأحداث ، وتابع تياراتها وتدفقها ؛ على نحو ما يعرضه الفصـل الثـانى والثالث والرابع . ثم اتجه رشيد رضا الى مصر ، وجعلها مركزا له ، لأنها صارت فى مطالع العصر الحديث قاعدة النضال العربى . وأوضح الفصلان الخامس والسادس تلك الحقيقة السالفة من حياة رشيد رضا ، وأهميتها فى جهاده ونضاله .

أما الفصول الستة الأخيرة من هذا الكتاب ، فتشرح منهج رشيد رضا فى معالجة المشاكل التى أحاطت بالمسلمين والعرب ، وتصور كفاحه المتواصل فى حل تلك المشاكل ، والنهوض بالعالمين الاسلامى والعربى . وصار رشيد رضا بذلك حريا أن يلقب بالامام المجاهد ، لأنه تابع رسالته فى ميدانى العلم والسياسة ، دون أن يطغى نشاطه فى واحد منهما على الآخر .

ومن يمن الطالع أن يصدر هذا الكتاب عن رشيد رضا فى تلك المرحلة الهامة من مراحل الانطلاق الجبار للأمة العربية نحو السيادة والوحدة فكثير من الآراء التى نادى بها رشيد رضا ، والنتائج التى وصل اليها تكوّن شطرا كبيرا من الاطار العربى الذى نعيش فيه اليوم ، ويتطلب العمل من أجل سلامة الأمـة العربية ووحدتها دراسـة تلك الآراء والنتـائج ، ومراجعتها والافادة منها .

ابراهيم احمد العدوى

الفصل الأول

المسألة الشرقية

الدور الأول

ترتبط حياة الأعلام من الناس فى أى عصر من العصــور بالأحداث الكبرى التى تجرى على أيامهم ، ثم تتباين أقدارهم فى التاريخ حسب الدور الذى يضطلع به كل منهم فى توجيه تلك الأحداث بما يخدم الوطن ، ويكفل لأهله العزة والكرامة . ويقف السيد رشيد رضا وسط عصره وأهله كأنه علم فى رأسه نار ، تأتم به الهداة ، وتتطلع اليه الأبصار تبغى السداد والرشاد .

واختص السيد رشيد رضا بهذه المكانة الفريدة وسط أعلام العرب ، لأن مشاكل العالمين الاسلامى والعربى بلغت ذروتها على عهده ، وتبلورت فى الصورة التى عرفها التاريخ باسم « المسألة الشرقية » . فدار فى فلك هذه المسألة برامج كثير من أعــلام العرب ، وتبادلوا خالفا عن سالف رفع راية الكفاح ، حتى سلموها أخيرا الى السيد رشيد رضا ، الذى حمل الأمانة فى خبرة تامة وثقة عالية بالنفس . ولذا تتطلب دراسة السيد رشيد رضا عرضا لأهم الأدوار التى مرت بها المسألة الشرقية ، لأنه لا يمكن فصل

أحداث هذه الأدوار ونتائجها عن جهاد هذا الامام الكبير ، حيث يلتصق كل منهما بالآخر التصاق الحمل بحامله [١] .

وتضرب جذور الدور الأول للمسألة الشرقية الى أعماق بعيدة فى التاريخ ، حيث القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى . اذ شاهدت سنوات هذا القرن تعدد الصيحات العالية لتبصير العالمين الاسلامى والعربى بالقوى المعادية لهما ، وحثهما على اتخاذ الأهبة للذود عن كيانهما . فقد حفل هذا القرن بطائفة من مشاهير المؤرخين ورجال الاجتماع الذين جهدوا فى تشخيص أمراض العالمين الاسلامى والعربى ، ورسم الطرق الكفيلة بانقاذهما من براثن تلك العلل . والتقت آراؤهم جميعا عند نقطة هامة ، هى ان النجاة رهن بتدعيم الصلة القديمة بين العروبة والاسلام ، والتعاون معا على دفع التيار الجارف الذى بلغت طلائعه شواطىء عالميهما .

وكانت الأخطار الجديدة تسرع الخطا من بلاد أوربا ، التى لم تنس منذ الحروب الصليبية غنى الشرق وكنوزه ، وتطلعت الى الوصول الى الشرق الأقصى والتمتع بخيراته دون الاصطدام بقوى العرب ، التى علق بأذهانهم عنها كل هيبة واجلال . وتمثلت أولى تلك الأخطار عندما اهتدت أوربا الى اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح للوصول الى الهند وكنوز الشرق الأقصى دون الدخول فى أرض الشرق العربى . ففى أواخر القرن الخامس عشر

---

(١) عالج السيد رشيد رضا هذا الموضوع ، وهو « المسألة الشرقية » ، فى دراسة قيمة ، انظر الفصل الثانى عشر .

دار البرتغاليون حول رأس الرجاء الصالح ، ووصلوا على يد فاسكو دى جاما الى المحيط الهندى ، واتصلوا بالهند وحاكم مدينة قاليقوط المسلم هناك .

وكانت الملاحة فى تلك البحار مقصورة على المسلمين من العرب والفرس والهنود ، ويتبادلون فيما بينهم التجارة بين الهند والبلاد العربية بشرق البحر المتوسط . ومن ثم صار البرتغاليون يمثلون خطرا يتهدد طمأنينة المسلمين جميعا ، وحياتهم الاقتصادية فى تلك الجهات من الشرق الأقصى . ولذا استنجد مسلمو الهند باخوانهم فى الشرق العربى لتدارك هذه الطلائع الأوربية الخطيرة والقضاء عليها . وبادرت مصر بارسال نجدة بحرية لمساعدة المسلمين فى الشرق الأقصى ضد الأساطيل البرتغالية . ولكن البرتغاليين تفوقوا على المسلمين فى وقعة « ديو » سنة ١٥٠٩ م .

وجاءت أحداث وقعة ديو انذارا بأن الجهود الفردية لا تكفى لصد التيار الأوربى ، وأن الأمر يتطلب تعبئة العالم العربى أجمع والاسلامى كذلك . ذلك أن البرتغاليين لا يمثلون غير موجة أولى من موجات غزو هائل ، لو قدر لمصر صد الموجة الأولى منه ، فلن تستطيع وحدها الصمود أمام موجاته التالية . ولكن الشرق العربى لم يستطع الاستجابة لهذا النذير بسبب خطر مفاجىء ، دهمه من قوة اسلامية ، كان يعلق عليها الكثير من الآمال . وتمثلت هذه القوة فى دولة الأتراك العثمانيين ، التى جاء ميلادها وتوسعها فى قارة أوربا ، فى نفس سنوات القرن الخامس عشر الميلادى ، التى شاهدت طلائع الخطر البرتغالى بالشرق الأقصى .

وكانت بلاد الشرق العربى تتابع زحف العثمانيين على أوربا باعجاب وسرور ، وخاصة عندما استولوا على القسطنطينية وجعلوها عاصمة لدولتهم . وعبرت البلاد العربية عن فرحها بهذا النصر حيث بعثت بوفودها الى السلاطين العثمانيين تعلن عن ابتهاجها وخالص تهانيها . فقد رأى العرب فى العثمانيين قوة جديدة قادرة على أن تعيد قصة الجهاد الاسلامى الأول ، ونشر الاسلام فى أوربا ، وأن توقف بالتالى زحف الأوربيين على بلاد المسلمين فى الهند والشرق الأقصى .

غير أن الأتراك العثمانيين لم يكونوا عند حسن ظن البلاد العربية ، وأضاعوا الحلم الجميل الذى راود أهل تلك البلاد عن نشر الاسلام والدفاع عن دياره . ذلك ان العثمانيين أعطوا ظهورهم لأوربا — بعد أن وصلوا الى قلبها ، وهددت جيوشهم فينا عاصمة النمسا — وحولوا جهودهم للسيطرة على العالم العربى . وجاء هذا التحول مفاجأة تامة للعرب ، وخاصة أن العثمانيين اتخذوا من الخلاف المذهبى بينهم وبين شاه ايران الشيعى ، اسماعيل الصفوى ، ذريعة للتخلى عن مشاريعهم الحربية بأوربا ، ونقل ميدان نشاطهم العدائى الى العالم العربى . اذ بادر العثمانيون باعتبارهم حماة أهل السنة بالهجوم على العراق ، وانتزاعه من التبعية للشاه اسماعيل الصفوى الشيعى .

وهكذا لم يظهر العثمانيون ، باعتبارهم عضوا فى مجموعة الأمم الاسلامية ، تقديرا للأخطار الأوربية التى باتت تتهدد ديار المسلمين ، وأهلكوا قوتهم فى نزاع مذهبى ، لا يغنى ولا يسمن

من جوع . ثم ان تهديدهم لبلاد العالم العربى صار سدا حال دون متابعة أهل تلك البلاد للجهاد ضد الطلائع الأوربية على أطراف العالم الاسلامى بالهند . فقد كان الشرق العربى فى حاجة اذ ذاك الى بعث جديد ، وتضامن متين ، أشبه بما حدث على عهد صلاح الدين لصد هذا الخطر الأوربى الجديد . ولكن الأتراك العثمانيين ، الذين ادعوا لأنفسهم فى ذلك الوقت حق زعامة الاسلام والعروبة ، لم يفهموا الأوضاع الجديدة التى بدأت تهدد بقلب الميزان العالمى رأسا على عقب ، ولم يقدروا قيمة احياء التضامن والتعاون بين العالمين الاسلامى والعربى ، مثلما حدث فى كل الأزمات التى تعرضت لها دار الاسلام . وآثر العثمانيون الانغماس فى تنفيذ مآربهم الخاصة ، والاستيلاء على بلاد الشرق العربى ، دون تبصرة بالعواقب .

وجرت الأحداث بذلك فى تيار خطر بالنسبة للعالمين الاسلامى والعربى . ففى الوقت الذى أهلك فيه العثمانيون قوتهم فى الاستيلاء على بلاد الشرق العربى الواحدة بعد الأخرى ، وأضاعوا مجدهم فى هذا التوسع الذى لا مبرر له ، أخذ البرتغاليون وغيرهم من القوى الأوربية يصولون ويجولون فى مياه الهند والشرق الأقصى ، ويلتهمون ما لذ لهم وطاب من تراث العرب والمسلمين هناك . وعندما أفاق العثمانيون أنفسهم لهذا الخطر الأوربى ، كان الموقف قد أفلت زمامه من أيديهم ، وصاروا يواجهون المشكلة التى أطلق عليها الأوربيون أنفسهم اسم « المسألة الشرقية » ،

ومعناها نهب أوربا ثروات كل من العالمين الاسلامى والعربى على حد سواء .

وزاد فى خطورة هذا الدور الأول من « المسألة الشرقية » فشل العثمانيين فى الاهتداء الى حل سليم . اذ عمدوا الى مواجهة الخطر الأوربى بسياسة قاتلة ، قوامها فرض نطاق عسكرى على البلاد العربية لتحول دون امتداد المخالب الأوربية اليها . وجاءت هـذه السياسة ضغثا على ابالة ، اذ نظر العثمانيون الى رعاياهم نظرتهم القديمة أيام أن كانوا رعاة . فاعتبروا رعاياهم أشـبه بقطعان الماشـية ، ترعى فى كنف السلطان ، ووضعوها تحت حراسـة الانكشارية ، الذين قاموا بنفس المهمة التى اضطلع بها الكلاب فى حراسة قطعان الأغنام . ومن ثم انقطعت الصلة بين العالمين الاسلامى والعربى وبين أوربا ، وأخذت الشعوب العربية والاسلامية تدخل فى ظل السيادة العثمانية فى دور خطير طويل من الركود ، ثم الجمود ، انتهى بها الى الانطواء على نفسها .

ولم تلبث قوة العثمانيين نفسها أن أصابها الركود الذى أصاب الشعوب التابعة لها ، وغدا الراعى والرعية يسيران فى نفس الطريق المظلم ، المليء بالمعاثر والعقبات . ولم يأت القرن الثامن عشر الميلادى ، حتى صارت « المسألة الشرقية » ، تعنى فى نظر الأوربيين اضمحلال القوة السياسية للاسلام ، لأنه لم تعد توجد أمامهم قوة اسلامية كبرى تستطيع الوقوف أمام مطامعهم الجشعة ، وتحد من توسعهم الاستعمارى .

الدور الثانى

دخلت « المسألة الشرقية » دورها الثانى حين كشف الأوربيون القناع فى جرأة عن أطماعهم فى العالمين الاسلامى والعربى ، وعمدوا الى افادة أنفسهم مما ساد هذين العالمين من ركود وجمود فى ظل التبعية للعثمانيين . وكانت دول أوربا قد أفاقت فى ذلك الوقت من غفوة العصور الوسطى ، وفتح العلم لأهلها آفاقا واسعة من الثراء والسلطان فى نفس الوقت . وتجلت مظاهر التطور الجديد الذى ساد أوربا فى عاملين ، كان لهما بدورهما أكبر الأثر فى التعجيل باكتشاف الضعف الذى حل بالبلاد الاسلامية والعربية . أما العامل الأول ، فهو التجارة والثانى هو تطور أساليب الحروب الأوربية وفنونها وآلاتها .

وبدأ العامل الأول مبكرا ، نتيجة مفهوم التجارة عند الأوربيين ، فالسفن التجارية فى القرن السابع عشر والثامن عشر لم تكن كسفن اليوم تضم الملاحين والمسافرين والمتاجر ، وانما كانت تلك السفن عبارة عن قلاع حصينة مليئة بالجنود والمدافع والحراس حتى يستطيع التجار أن يأمنوا على بضائعهم فى وقت سادته القرصنة ولصوص البحار . فاذا رست السفينة على شاطىء من الشواطىء نزل الجنود لحراسة البضائع ، وصد العدوان عنها . ومن ثم بدأ التجار الأوربيون الذين نزلوا بمدن الهند الاسلامية ، يكتشفون بواسطة ما لديهم من جنود عجز السلطات المحلية عن التصدى لهم وكبح جماحهم .

ولم يلبث التنافس بين التجار الأوربيين على أرض الهند

الاسلامية ان خلق ظاهرة خطيرة ، اذ حوّل المتنافسون وكالاتهم وشركاتهم التجارية الى حملات حربية ، توغلت داخل البلاد ، للحصول على أكبر قسط من المغانم للدول التى تمثلها . واستطاعت انجلترا عن طريق هذا التطور أن تنفرد فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر باستعمار الهند ، وطرد فرنسا ، ثم انزال الهزيمة آخر الأمر بالجيش الاسلامى الهندى عند پلاسى سنة ١٧٥٦ م .

وترجع أهمية هذه المعركة الى أنها مهدت السبيل لانطلاق العامل الثانى الخاص بالتفوق العسكرى للأوربيين ، وتطور فنونهم الحربية ، كما صارت تمثل فى نفس الوقت الحلقة الأولى من سلسلة الهزائم التى حلت بالدولة العثمانية وقواتها . فبعد ثمانى عشرة سنة تقريبا من وقعة بلاسى أنزلت الروسيا الهزيمة بالعثمانيين ، وحملتهم على عقد معاهدة كتشك كينارجى (سنة ١٧٧٤) ، التى جاءت بمثابة الاعلان الرسمى لضعف الدولة العثمانية وتصدع زعامتها العالمية .

واتضحت أيضا قوة العامل الثانى الخاص بتطور فنون الحرب عند الأوربيين بعد ثلاثة وعشرين عاما فقط من كتشك كينارجى . ففى سنة ١٧٩٧ انتقل التنافس الاستعمارى بين انجلترا وفرنسا من أطراف العالم الاسلامى فى الهند الى قلب العالم العربى . اذ قاد نابليون بونابرت حملة فى هذه السنة الى مصر ، مستهدفا بالاستيلاء عليها احياء الطريق التجارى المار بها ، حتى تستطيع فرنسا بالتالى أن تسلب انجلترا المزايا التى نالتها بالانفراد

باحتلال الهند . وعبّر تاليران ، مدير الشئون الخارجية الفرنسى عن ذلك فى خطابه الى نابليون بونابرت قبل قيامه بالحملة على مصر ، فقال : « ان مصر باعتبارها طريقا تجاريا ستعطينا تجارة الهند ، لأن المعول فى التجارة على الوقت ، وبالاستيلاء على مصر نستطيع أن نقوم بخمس رحلات مقابل ثلاث بالطريق المعتاد حول رأس الرجاء الصالح » .

ومهما يكن من أمر فان الحملة الفرنسية جاءت بمثابة انفجار جعل أبناء العالم العربى يفيقون الى خطورة هذا الدور الثانى من المسألة الشرقية ، وتحديد علاقاتهم بالعثمانيين الذين كانوا يعتبرون رسميا ولاة الأمر ، والمنوط بهم حماية دار الاسلام . وصوّر المؤرخ الجبرتى احساس المعاصرين بخطورة حملة نابليون بونابرت على مصر سنة ١٢١٣ هـ / ١٧٩٨ م قائلا : « وهلّت سنة ثلاث عشرة ومائتين هجرية ، وهى أول سنى الملاحم العظيمة ، والحوادث الجسيمة ، والوقائع النازلة ، والنوازل الهائلة ، وتضاعف الشرور ، وترادف الأمور ، وتوالى المحن ، واختلال الزمن ، وانعكاس المطبوع ، وانقلاب الموضوع ، وتتابع الأهوال ، واختلاف الأحوال ، وفساد التدبير ، وحصول التدمير ، وعموم الخراب ، وتواتر الأسباب . وما كان ربك بمهلك القرى وأهلها مصلحون » .

ويعتبر قول الجبرتى تحليلا صادقا لأسباب الكارثة ، ووصفا دقيقا كذلك لأسباب النجاة ، وهو ضرورة القيام بحركات اصلاحية لانقاذ البلاد . وهنا أخذ علماء الأزهر فى مصر يضطلعون بمهام

القيادة فى هذا الدور من أدوار الكفاح فى العالمين الاسـلامى والعربى ، حتى تم لهم الفوز باخراج الفرنسيين من مصر . ثم تابع أولئك العلماء جهـادهم بتبصرة مواطنيهم بحقيقة كيانهم وأهمية تحديد علاقاتهم مع الدولة العثمانية . وتجلت هذه الحقيقة السالفة فى مناقشة دارت بين ممثل السلطان العثمـانى فى مصر وأحد العلماء ، وهو السيد عمر مكرم ، أثناء احدى الثورات التى قام بها المصريون ضد ظلم العثمانيين .

قال ممثل السلطان للسيد عمر مكرم : « كيف تثورون على من ولاه السلطان عليكم ، وقد قال الله تعالى : أطيعوا الله وأطيعوا الرسـول وأولى الأمر منكم ؟ » . فأجابه السيد عمـر مكرم : « ألا فاعلم أن أولى الأمر هم العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل . وهذا الحاكم الذى أرسلكم ما هو الا رجل ظالم ، خارج على قانون البلاد وشريعتها فلقد كان لأهل مصر دائما الحق فى أن يعزلوا الوالى اذا ساء ولم يرض الناس عنه . على أننى لا أكتفى بذكر ما جرت عليه عادة البلاد منذ الأزمنة القديمة ، بل أذكر لك ان السلطان أو الخليفة نفسه اذا سار فى الناس سيرة الجور والظلم كان لهم عزله وخلعه » .

وتعتبر هذه اليقظة الشعبية فى مصر أهم مدرسة تخرج منها القادة الذين حفلت بهم بلاد العالم العربى ، ومن بينهم السيد رشيد رضا . وشرح « الميثاق » هذه الظاهرة وتطورها قائلا : « لقد كانت هذه اليقظة الشعبية هى القوة الدافعة وراء عهد محمد على .. واذا كان هناك شبه اجماع على أن محمد على هو

مؤسس الدولة الحديثة فى مصر ، فان المأساة فى هذا العهد هى أن محمد على لم يؤمن بالحركة الشعبية التى مهدت له حكم مصر ، الا بوصفها نقطة وثوب الى مطامعه .. لقد ساق مصر وراء مغامرات عقيمة استهدفت مصالح الفرد متجاهلة ، مصالح الشعب.. ومن سوء الحظ ان النكسة وقعت فى مرحلة هامة من مراحل تطور الاستعمار . فان الاستعمار كان قد تطور فى ذلك الوقت من مجرد احتلال المستعمرات ، واستنزاف مواردها الى مرحلة الاحتكارات المالية لاستثمار رؤوس الأموال المنهوبة من المستعمرات » .

الدور الثالث

وانتقلت « المسألة الشرقية » بهذا التطور الجديد فى أساليب الاستعمار الى الدور الثالث والأخير ، وهو أهمها وأخطرها وأشدها تعقيدا كذلك . وهذا الدور هو الميدان الذى جاهد فيه السيد رشيد رضا ، وواجه ما تجمع فيه من نتاج الدورين الأول والثانى ، وما تمخض عن تلك النتائج أيضا من تيارات عديدة متضاربة . فقد اصطدمت فى هذا الدور الثالث دسائس الاستعمار لالتهام خيرات العالمين الاسلامى والعربى بيقظة الشعوب العربية لاستخلاص حقوقها واستعادة مكانتها . ونجم عن هذا الاصطدام صراع فكرى وسياسى لم تشهد له البلاد العربية والاسلامية مثيلا من قبل ، ووقف السيد رشيد رضا وسط ميدانه وقفة المنازل المبارز ، يدافع عن العروبة والاسلام ، بما تدرب عليه من أسلحة الحق والعلم والخلق المتين .

واستهلت الدول الأوربية أحداث هـذا الدور الثالث حيث أسرعت بارسـال سفرائها وقناصلها الى القسطنطينية لتستطلع الموقف فى الدولة العثمانية باعتبارها زعيمة العالمين الاسـلامى والعربى . واتفق تشخيص جميع ممثلى الدول الأوربية على أن الدولة العثمانية ليست الا « رجلا مريضا » ، وأن الشفاء الذى يطلبونه له هو الخلاص منه فى سرعة ، وتقسيم تركته فيما بينهم . على ان اختلاف الدول الأوربية حول طريقة التقسيم كتب لهذا المريض البقاء بعض الوقت ، حتى تم الاتفاق نهائيا على تمزيق أوصاله خلال الحرب العظمى الأولى (١٩١٤ — ١٩١٨) .

وأصاب البلاد العربية نتيجة اتفاق الدول الأوربية لطمـة قاسية ، « اذ انقسمت بين الدول الاسـتعمارية وفق مطامعها ، بل وفق نزواتها . واخترع ساسة الاستعمار كلمات مفيدة لتغطية الجريمة التى أقدموا عليها ككلمات الانتـداب والوصاية » ، وذلك على نحو ما وصف به الميثاق هذه المرحلة من حياة الأمـة العربية . وأضاف الميثاق « ان ذلك كله تم بطريقة تحمل طابعا استفزازيا ، ولا تقيم وزنا لوجود الأمة العربية أو لكرامتها .. ان الأمة العربية خرجت من هذه التجربة باصرار عميق عـلى كراهية الاستعمار وعلى هزيمته » .

وتلفتت الشعوب العربية تدرس سبب هـذه الكوارث ، وتتلمس لنفسها وسائل الخلاص منها . وسرعان ما اتضح أن تلك الأسباب على تشعبها تنحصر فى مجموعتين ، الأولى هى الابتعاد عن الدين والثانية انفصال الحكام عن القواعد الشعبية . أما عن

المجموعة الأولى فانها ترجع الى مقياس سليم وبسيط آمنت به الشعوب العربية والاسلامية ، وهو مقياس الدين . فطالما تمسك الحاكم بأهداب الدين فحكومته بخير ، واذا تغاضى عن الدين فحكومته باغية لابد من التخلص منها . وعلى أساس هذا المقياس نظرت الشعوب العربية والاسلامية الى العثمانيين ، وشاهدت ما ساءهم من ميل الى الترف والدعة دون رعاية لمصالح الناس . وعلى هذا النحو أيضا نظرت تلك الشعوب الى الهزائم التى نزلت بالدولة العثمانية على يد الفرنسيين والانجليز والروس ، وفسرتها بأنها نتيجة ابتعاد آل عثمان عن الدين ، وان الخلاص بالتالى يتطلب العودة الى التمسك بأهداب الدين وتعاليمه الحقة .

وارتبط بالابتعاد عن الدين أسباب خطيرة صاحبت زحف الاستعمار الأوربى على العالمين الاسلامى والعربى . اذ فهم بعض الناس الحرية التى اتصفت بها الحضارة الأوربية فهما خاطئا ، وانطلقوا يأتون المنكر ، ناقلين عن الحضارة الأوربية قشورها دون لبها . وبدأ أولئك المقلدون والمخطئون أيضا فى فهم الحضارة الأوربية يبتعدون شيئا فشيئا عن تقاليدهم العربية الراسخة ، ويفقدون الصلة بماضيهم العريق التليد . وزاد فى خطورة هذه الظاهرة اندفاع بعض الحكام الشرقيين فى نقل الحضارة الغربية دون تبصرة بأوضاع بلادهم ، وهو الأمر الذى جعل أعمالهم تمس السطح فقط دون أن تصل الى الأعماق . فوقع أولئك الحكام فى حبائل الأوربيين ، تحت ستار تقديم النصائح

والتوجيهات ، وأخذت الشعوب تعانى بالتالى المتاعب نتيجة جهل أولئك الحكام وغفلتهم .

ولذا انطلقت الحركات الاصلاحية فى العالمين الاسلامى والعربى تنادى بأن القائمين بالحكم أصبحوا غير قادرين على القيام بواجبهم خير قيام ، وان الأوضاع الزمنية فى نهاية القرن التاسع عشر باتت تتطلب تغييرهم للاحتفاظ بسلامة البلاد . وبدأت صيحات السخط تتعالى ضد العثمانيين ، الذين أبوا الا التمادى فى الغى والضلال . وزاد تلك الصيحات قوة وعنفا دراسة الأسباب المتعلقة بالمجموعة الثانية ، وهى ابتعاد الحكام عن الرعية . اذ اتضح للقائمين بالحركات الاصلاحية أن من أسباب الكوارث التى حلت بالشعوب العربية والاسلامية محاولة الحكام اخفاء أخبار الهزائم التى حلت بهم عن الشعب ، والتعالى عن الرعية . وثبت أن أولئك الحكام أخطأوا فى هذا اللون من التفكير ، اذ لو استعانوا بشعوبهم لنالوا الحماية والطمأنينة وتجنبوا التخبط والحيرة .

وهكذا أدركت الشعوب العربية والاسلامية أخطار الدور الثالث من « المسألة الشرقية » ، وبدأت تتطلع الى ظهور قائد يهديها سواء السبيل ، وسط أنواء هذا الدور وتياراته الجارفة . وسرعان ما وجدت فى ابن قرية من قرى الشام ، وهو رشيد رضا ، الامام الملهم ، والرائد الأمين .

الفصل الثانى
فى قرية القلمون

الطفل الموهوب

تكمن عظمة الرجل فى أمرين ، أحدهما فطرى ، وهو الاستعداد الذى يتوافر له من كمال الخلقة واعتدال المزاج وحسن الوراثة للوالدين والأجداد ، وثانيهما مكتسب وهو التربية القويمة والتعليم النافع . وقد اجتمع هذان الأمران فى شخص محمد رشيد رضا ، الذى ولد فى ٢٧ جمادى الأولى سنة ١٢٨٢ هـ / ١٨٦٥ م فى قرية تسمى القلمون على شاطىء البحر المتوسط من جبل لبنان ، تبعد عن مدينة طرابلس الشام زهاء ثلاثة أميال . وهو سليل بيت عربى عريق ، حسيب نسيب ، ينحدر من نسل الحسين بن على بن أبى طالب ، ويستمد بالتالى الشرف والسيادة من انتمائه الى العترة النبوية الشريفة .

واشتهر بيت آل الرضا بهذا النسب الكريم فى قرية القلمون ، وتوارث أبناؤه فيما بينهم ، خالفا عن سالف مهمة الارشاد والرئاسة فى تلك القرية ، حتى صاروا يعرفون باسم « المشايخ » تمييزا وتكريما لهم عند بنى جلدتهم . وضرب آل الرضا أيضا

المثل الأعلى لمواطنيهم فى الانقطاع للعبادة ، وتكريم العلماء ، والترحيب بأولى الفضل ، والاعتداد بالنفس ، دون تملق لأصحاب السلطان ، مهما كانوا عليه من تجبر وسطوة . وذاع صيت أحد أجداد محمد رشيد رضا ، واسمه « السيد الشيخ أحمد » فى ميدان التقى والورع . فانقطع للعبادة ، ولم يقابل من الضيوف الا العلماء والأصدقاء ، ودأب على الجلوس اليهم فى وقت معين بين صلاتى العصر والمغرب .

وكان مجلس « الشيخ أحمد » مجلس أدب ووقار ، لا لغو فيه ولا دعابة ولا استغراق فى الضحك . وحدث أن جاء الى قرية القلمون حاكم مدينة طرابلس ، وأبدى رغبته فى مقابلة الشيخ أحمد ، والتبرك به . ولكن الشيخ أبى أن يأذن له بالمقابلة . فانتظر الحاكم بالمسجد حتى نزل الشيخ ، وسلم عليه واقفا . وعندئذ أنشده الشيخ أبياتا من الشعر تبين أن اعراضه عنه ليس لذاته ، وانما رغبة منه فى البقاء بعيدا عن أصحاب السلطان ، ومنها :

أنست بوحـــدتى ولزمت بيتى
وطاب الأنس لى وصـفا السرور
ولست بسائل ما عشت يومـا
أسـار الجنـد أم ركب الأمـير

وزادت هذه الحادثة من شأن بيت آل الرضا ، لأنهم جمعوا الى شرف النسب خصال التقوى والاستقامة ، وصارت لهم المنزلة الرفيعة عند الله والناس .

وعندما شب محمد رشيد رضا عن الطوق كان والده قد

آلت اليه رئاسة هذا البيت فى القلمون ، وورث عن أسلافه المنزلة الرفيعة والهيبة وحب الكرم . وتأثر محمد رشيد رضا بأبيه تأثرا عظيما ، كما ورث عنه الكثير من الخصال الخلقية والعلمية . فكان الأب قوى الذاكرة طلق اللسان ، جرىء الجنان ، يذكر ما يحفظ من الأشعار وأخبار الأوائل . ومن قوة ذاكرته أنه كان يحفظ كل ما مرّ به فى سفره ، وكل ما له عند الناس ، أو لهم عنده من الحقوق المالية وان طال عليها الزمان .

وكان هذا الأب أيضا حسن المجاملة ، عظيم التساهل فى معاشرة المخالفين فى الدين ، مع الغيرة الشديدة على الاسلام والمناضلة عنه بما يقنع المناظر ولا يؤذيه . وشرح محمد رشيد رضا فى مذكراته مدى تأثره بذلك فى قوله : « واننى منذ دخلت سن التمييز أرى فى دارنا وجهاء النصارى من طرابلس ولبنان ، بل أرى فيها القسوس والرهبان ، لا سيما فى أيام الأعياد ، وأرى الوالد رحمه الله تعالى يجاملهم كما يجامل من يزور من الحكام ووجهاء المسلمين ، ويذكر ما يعرف من محاسنهم فى غيبتهم بكل انصاف . وقد كان هذا من أسباب دعوتى الى التساهل والوفاق ، وتعاون جميع أهالى البلاد على ما يرقى البلاد ، مع القسط والبر المشروعين ، فان الانسان اذا تربى على شىء ، ورأى ثمرته فى نفسه وفيمن يعاشر كان أعرف بفائدته لاتفاق فكره ووجدانه فيه » .

وكان الوالد أيضا يتمتع بهيبة فى نفوس أبنائه ، حيث لجأ الى الحزم والترهيب أحيانا فى التربية . فعاقب على الذنب الصغير بالاعراض والهجران حتى يتوسل اليه الأبناء ليرضى عنهم ،

ولم يجرؤ أحد على الاتكاء أمامه احتراما له . ولقيت هذه التربية استجابة من نفس محمد رشيد ، حيث شب من الصغر قليل الرغبة فى اللعب ، شديد الحياء. فامتنع منذ أيام طفولته عن الاشتراك مع أقرانه فى السباحة مثلا حتى لا ينزع ملابسه أمامهم ، واكتفى بالذهاب وحده الى دار لهم أخرى كانت على شط البحر ، ونزع ملابسه وراء صخرة يستتر بها ، ويسبح هناك منفردا ، وأحيانا مؤتزرا اذا أحس بوجود أناس حوله .

على أن علامات الذكاء لاحت على محمد رشيد منذ أيام طفولته كذلك . ولاحظ ذلك الزوار العديدون الذين دأبوا على التردد على منزل الأسرة أيام الصيف للتمتع بهواء لبنان الطيب وينابيعه النقية وأصناف الطعام الفاخر الذى تقدمه أسرة آل الرضا لهم . اذ اتضح ميل محمد رشيد رضا ، وهو فى هذا السن الصغير الى مجالسة العلماء من أولئك الضيوف من دون الحكام وأولى الأمر وأصحاب السلطان . وكثيرا ما سمع هذا الطفل بنفسه العلماء والوجهاء يحثون والده على العناية بتعليمه ويبشرونه بما يرجونه له من النجاح والنبوغ فى العلم . وكان محمد رشيد رضا يستغرب هذا القول عند سماعه ، لأنه لمس من نفسه عدم السرعة فى الحفظ ، على حين كان يرى ان الحفظ هو معيار الذكاء . ولكن المواهب التى اكتشفها الزوار فى محمد رشيد رضا هى قدرته الخارقة للعادة على الفهم السريع ، وحفظ المعانى لما يلقى أمامه من قول ، وهى المواهب التى صاحبته منذ بدء حياته الدراسية .

الطالب النجيب :

وسلك محمد رشيد رضا نفس الطريق العلمى الذى سار فيه أبناء البيوت العربية العريقة ، من حيث الاهتمام بالعلوم الاسلامية وما يتصل بها من فروع المعرفة . فالتحق أولا بكتاب قرية القلمون ، وتعلم فيه قراءة القرآن الكريم والخط وقواعد الحساب . ثم انتقل بعد ذلك الى المدرسة الرشدية بطرابلس الشام ، وكانت مدرسة ابتدائية ، تعنى بالنحو والصرف والحساب ومبادىء الجغرافيا وعلم الحال « العقائد والعبادات » . وكانت الدروس تلقى فيها بالتركية ، لأنها تعد خريجها ليتولى الوظائف الحكومية . ولكن نفس محمد رشيد رضا أبت العمل فى الحكومة ، وترك هذه المدرسة بعد أن بقى فيها سنة واحدة .

والتحق رشيد رضا بعد ذلك بالمدرسة الوطنية الاسلامية بطرابلس سنة ١٢٩٩ هـ / ١٨٨٢ م وكان اذ ذاك فى الثامنة عشرة من عمره . ذلك ان والده أبى أن يسمح له بالبقاء فى طرابلس « وهى البندر » ، الا بعد أن يبلغ سن الرشد ، ويطمئن على سلامة خلقه ، وقدرته على تجنب بريق المدينة ومفاسدها . وكانت المدرسة الوطنية أرقى من المدرسة الرشدية ، وجميع التعليم فيها باللغة العربية عدا اللغتين التركية والفرنسية . واهتمت هذه المدرسة أيضا بالعلوم العربية والشرعية والمنطق والرياضيات والفلسفة الطبيعية .

وأنشأ هذه المدرسة أحد علماء الشام الأفذاذ ، وهو الشيخ حسين الجسر ، الذى صار الأستاذ الأول لمحمد رشيد رضا ،

وصاحب الفضل فى توجيهه الى كثير من المعارف والعلوم . وكان هذا الأستاذ من رواد النهضة الثقافية العربية ، وسعى لدى الحكومة العثمانية لتأسيس تلك المدرسة الوطنية ، اذ رأى أن الأمة الاسلامية لا تصلح وترقى الا بالجمع بين علوم الدين وعلوم الدنيا على الطريقة العصرية الأوربية ، مع التربية الاسلامية الوطنية ، وذلك لمواجهة التربية الأجنبية التى قامت بها مدارس الدول الأوربية وأمريكا فى بلاد الشام ، والتى اجتذبت اليها أعدادا غير قليلة من أبناء تلك البلاد . غير أن العمر لم يطل بهذه المدرسة بسبب قصر نظر الحكومة العثمانية ، التى رفضت اعتبارها من المدارس الدينية ، التى يعفى طلابها من الخدمة العسكرية . وتفرق طلبة المدرسة بعد اغلاقها ، وذهب بعضهم الى مدارس بيروت المختلفة ، على حين آثر البعض الآخر من الطلبة ، ومن بينهم محمد رشيد رضا الالتحاق بالمدارس الدينية فى طرابلس .

والأمر الهام هنا هو أن محمد رشيد رضا لم يفقد صلته بأستاذه الأول ، الشيخ حسين الجسر ، وظل ينهل الكثير من علمه ، ويستفيد من خبرته . واشتهر هذا الأستاذ بالمامه الواسع بالعلوم العصرية ، كما كان كاتبا وشاعرا عصريا يكتب وينظم فى كل موضوع بعبارة سهلة . وكان يتحرّى أيضا السهولة والبيان فى كل ما يكتب ، ويتجنب المناقشات اللفظية واستطرادات الحواشى ، وهى الأمور التى ميزته عن غيره ممن تلقى العلم فى الأزهر . ويحتمل أن انفراد الشيخ الجسر بهذه الطريقة يرجع

أنه درس بالأزهر على يد الأديب المشهور الشيخ حسين
صفى ، واستفاد من أسلوبه ومنهجه .
واختص الشيخ الجسر تلميذه محمد رشيد بالاهتمام والعناية
شاهده فى السنة الأولى بالمدرسة الوطنية بطرابلس . فاسترعى
هذا الأستاذ ما عليه تلميذه من حب شديد للدراسة والمذاكرة ،
لا عما يتمتع به من ذكاء خارق . فقال الشيخ الجسر لأحـد
أهل الشام ، ان محمد رشيد حصّل فى طلب العلم فى السنة
لى قدر ما حصله أذكياء الطلبة فى السنة السابعة . ذلك ان
الطالب النجيب عنى بفهم ما يدرسه حق الفهم ، وبالقدرة على
ير عمـا يفهم ، وافق ذلك اللفـظ المكتوب أو خالفـه ،
يشارك سائر اخوانه الطلبة فيما دأبوا عليه من كتابة تعريفات
علم ، ويحفظونها بحروفها لأجل الامتحان .
وكان يضايق محمد رشيد المواد التى يفرض عليه الأستاذ
ها ، مثل الألفية التى لعبت دورا هاما اذ ذاك فى دروس
و . فقال : « كنت أجلس فى درس النحو عن يمين الأستاذ ،
أ باسماعه أبيات الألفية المفروض حفظها كل يوم . فاذا جاء
س ولم أكن حفظتها لقلة الاهتمام به أتأخر عن الدخول الى
بدأ الطلبة بالاسماع فأحفظ معهم . وانما كنت سريع الفهم
انى كنت أتألم ويضيق صدرى من اعادة الأستاذ للمسألة
يقـررها . وكنت قوى الذاكرة والاسـتحضار لما أقـرأ
سمع » . ولكننى ضعيف الاستعداد لحفظ الجزئيات كالأعلام
قام والحوادث التى لا تضبطها قاعدة كلية أو عرض عام .

وكذلك حوادث التاريخ الجزئية ، وانما أعنى بفلسفتها وأسبابها ونتائجها العامة » .

وظهرت هذه الصفات التى تمتع بها محمد رشيد فى مناقشاته العلمية مع اخوانه وأساتذته ، حيث اعتمد على اعمال الفكر فى كل ما يسمع أو يلقى عليه فى شتى المواضيع . اذ حدث أن زار طرابلس أحد الطلاب المصريين ، ومن المهتمين بعلم المنطق ، ودأبه على مناقشة اخوانه من أبناء هذه البلدة فى هذا العلم . واشتد الجدل بينه وبين أقرانه فى مسألة شائكة ، دون أن يصلوا الى جواب مقنع . وكان محمد رشيد واقفا بالقرب من أولئك الطلبة ، واشترك معهم فى المناقشة ، وأبدى لهم ما يفهمه فيها . فقال الطالب المصرى متعجبا : الله ! انه يحفظ حاشية الحفنى على شرح السلم باللفظ والمعنى ! » ولم يكن قول محمد رشيد رضا الا من وحى فكره واعتماده على الفهم السليم .

وظل محمد رشيد لا يقبل الا ما يوافق الفهم ، حتى ولو كان يتلقى العلم على يد أستاذه الأكبر الشيخ الجسر . اذ دأب على مناقشته فى المسائل حتى قال له هذا الأستاذ مرة أمام زملائه الطلبة : « لا تسألنى فى الدرس عن شىء فان كل ما أعرفه أقوله ، ولا يبقى عندى غيره » . وكان الشيخ الجسر من ناحية أخرى يسأل تلميذه فى مجالسه الخاصة عن بعض الغريب فى اللغة ، حيث لا يوجد معاجم يراجعها ، ويجيبه محمد رشيد رضا الاجابة الصحيحة .

وزادت ثقة الأستاذ فى تلميذه حتى صار يطلب رأيه فى

مؤلفاته ، وخاصة الكبرى منها التى يعتز بها . وكان الشيخ الجسر قد وضع كتابا فى اثبات النبوة المحمدية ، واظهار فضائل الشريعة الاسلامية ، ورد مزاعم الملاحدة وأعداء الدين . وأهدى هـذا الكتاب الى محمد رشيد رضا ، ثم قال له بعد أن مضى بعض الوقت : انه يعجبنى من بين أولادى فهمك ورأيك : فكيف رأيت الرسالة الحميدية ؟ . وكان محمد رشيد رضا لا يهاب ابداء رأيه ، لثقته فى فهمه واعتزازه بما يصل اليه فكره من تمحيص وتدقيق فقال لأستاذه : ان الحاجة الى هذا البحث شديدة ، ولم يسبق مولانا أحد الى مثل هذه الدراسة فى الدفاع عن الاسلام . ولكن لى ملاحظة ، وهى أنكم تعرضون المسألة المقطوع بها فى العلم ، مثل كروية الأرض ودورانها بعبارة فرضية تدل على شككم فيها . فرد الأستاذ عليه مبينا أن السبب فى ذلك هو خوفه من المتعصبين الجاهلين بهذه العلوم ، والذين ينكرون كروية الأرض ، وأنه تعمد الى هذا اللون من الأسلوب ليتجنب القيل والقال .

ولم يقبل محمد رشيد رضا هذا القول من أستاذه وقال له : اذا كان مثلكم فى ثقة الأمة بدينه وعلمه لا يجرؤنا على التصريح بالحقائق ، فممن نرجو هذا ؟ . ثم أضاف محمد رشيد ملاحظة أخرى على كتاب أستاذه قائلا انه كان يود أن يقسمه الى أبواب ، ويوضع لكل باب عنوان لتسهيل المطالعة والمراجعة . فقال الأستاذ ان الطريقة التى اتبعها فى الكتابة تجعل الكلام منسجما كالماء الجارى . فاعترض رشيد رضا على ذلك أيضا وقال لأستاذه : اذا لماذا جعل الله القرآن سورا منفصلة ولم يجعله جملة واحدة ؟ .

واشتهر رشيد رضا منذ دخل السنة الأولى بالمدرسة الوطنية بقول الشعر الى جانب ما عــرف عنه أيضا من الذكاء اللماح ، والقدرة الفائقة على سبق أقرانه فى الفهم والتحصيل . وبدأ بداية ممتازة فى هذا اللون من الأدب ، أدهش أقرانه وأساتذته كذلك . فقد حدث ان سمع وهو بالمدرسة أن أحد أقربائه بالقلمون قد توفى . فذهب الى قريته للعزاء ، وفى اليوم التالى أعدّ قصيدة ألقاها نيابة عنه فى حفل التأبين الذى أقيم بالمسجد أحد سادة القلمون . ومن تلك القصيدة ما يلى :

هو المنــون فقصّر دونه الأمــــلا
لا حــول للخلق منه بالخلاص ولا

ولا تغرنك الدنيا بزخــــــرفها
فانها كخيال عنــــد من عقـــلا

أو كالهشــيم اذا ما الذاريات أتت
تذروه قد ضرب الرحمن ذا مثــلا

يا نائما وصروف الدهــــر توقظه
ان كنت فى غفلة فالله ما غفــــلا

وأنت يا ذاهـــــــلا عما يراد به
مؤذن الموت نادى الناس : حىّ على

وبعد أن انتهى الحفل خلا الشيخ الجسر بتلميذه رشيد رضا وسأله عما اذا كانت المرثية التى ألقيت من نظم الشيخ عبد الغنى الرافعى ، وهو من كبار أدباء الشام اذ ذاك . فقال رشيد رضا انها ليست لهذا الأديب الكبير ، وخجل أن يقول انها له ، بعد أن ظن

الأستاذ أنها من نظم أديب عظيم . ولكن الشيخ الجسر فطن سريعا عندما ظهر الخجل على رشيد رضا ، وطلب منه القصيدة بخط يده ليتأكد انها له . ثم أذاع الأستاذ بين أعضاء هيئة التدريس فى المدرسة وطلبتها هذه الموهبة الجديدة التى اكتشفها عند تلميذه العبقرى .

واتصف الشعر الذى نظمه رشيد رضا أيضا بما اشتمل عليه من معانى جزلة منذ هذه المرحلة المبكرة من حياته الدراسية . وبلغت بعض قصائده فى جودتها خير ما نظمه كبار الشعراء من آمثال المعرى والشريف الرضى . ومن ذلك مرثية نظمها رشيد رضا فى وفاة أحد كبار رجالات الشام ، جاء فى مطلعها :

ان المنيـــة غاية الميـــلاد
والنعش مثـــل المهـــد للأولاد
والله قد برأ الخـــلائق للبقا
بعـــد الفنا وزيارة الألحـــاد
والموت باب النشأة الأخـــرى لنا
وبها كمال الخلق والايجـــاد

والى جانب هذا المطلع الرائع احتوت القصيدة على شعر أشبه بشعر الحكماء من أهل التصوف ، ومن ذلك قول رشيد رضا يستنكر الحزن والحداد ، ويحث على وجوب السرور بالموت :

أطبيعة ذا الحـــزن ليس يشذّ عن
ناموســـه فرد من الأفـــراد
أم ذاك ممــا أوجبتـــه شرائع الأ
ديان من هـــدى لنا ورشــاد
أم ذلك العقــل السليم قضى على
كل الشعوب بهذه الأصــــفاد
كلا فليس الأمــــر ضربة لازب
لكنه ضرب من المعتــــــاد
فاخلع سرابيل العـــوائد ان تكن
ليست بنهج العقـــل ذات سداد
وتقلد الحـــزم الشريف كصــارم
كيما تنافح جيشـــها بجهــاد
فانظر لموت النـــاس بالعين التى
ترنـــو بهـــا لولادة الأولاد

وظل رشيد رضا موضع تقدير أستاذه الشيخ الجسر ، ويجد منه كل تشجيع وتقدير . فأتاح له هذا الأستاذ أيضا الكتابة فى صحف طرابلس ، والتدريب على هذا اللون من الأدب كذلك . ولم يلبث أن اشتهر رشيد رضا فى هذا الميدان أيضا ، وصــار ما يكتب فى الصحف موضع اهتمام القراء وعنايتهم . ومن ثم أتيح لهذا الطالب النجيب أن يجد فى أستاذه الفاضل العون العظيم على دراسة العلوم العربية والشرعية والعقلية ، ونال عــلى يديه الاجازة فى هذه المواضيع سنة ١٣١٤ هـ / ١٨٩٧ م .

وقد أسهم فى اجازة رشيد رضا علميا أساتذة أخر أفاضل ، وان لم يكن لهم فى نفسه مثل الأثر الذى تركه الشيخ الجسر . ومن أولئك الأساتذة الشيخ محمود نشابة ، وهو من كبار علماء طرابلس ، وممن سبق له الدراسة ثم التدريس فى الأزهر . فأخذ رشيد رضا عن هذا الأستاذ الاجازة فى الحديث ، وبلغ فيه درجة عالية ساعدته على أن ينتقد ما فى الكتب من الأحاديث الضعيفة والموضوعة ، وخاصة ما يرد منها فى كتب الأدب ودواوين الخطب . واعترف زملاء رشيد رضا له بهذه المكانة فى ميدان الحديث ، حتى لقبه أحدهم باسم « ڤولتير المسلمين » ، لقدرته على هدم كل ما لا يصح دليله من كتب الدين .

وهناك أساتذة أخر حضر على يديهم رشيد رضا دراسة بعض المواضيع ، واستفاد منهم الكثير دون أن يأخذ منهم أية اجازة . ومن هؤلاء الشيخ عبد الغنى الرافعى حيث درس معه قليلا من كتاب « نيل الأوطار للقاضى الشوكانى » ، والعالم المحدث الشيخ محمد القاوجى ، الذى شرح لرشيد رضا كتابا ألّفه بنفسه فى الحديث . ودأب رشيد رضا على حضور جلسات العلم فى شتى المواضيع أيضا ، والاشتراك فى المناقشات ، والادلاء برأيه فيها . وأحب حلقات دراسة الأستاذ محمد الحسينى ، ومناقشاته فى كتب الأصول والمنطق مع الشيخ محمد كامل الرافعى . فكان رشيد رضا يسمع تحاورهما فى أدق المسائل ، ويبدى رأيه فيما يتناقشان فيه قبل أن يذكر أحدهما القول الفصل . وبعد أن يمحص العالمان الموضوع يقولان لرشيد رضا : ان رأيك هو

الصواب ، فمن أين جئت به ؟ ، فيجيبهما قائلا : « هكذا حدثتنى نفسى ، ولم تقبل فطرتى أو عقلى الا هذا » .

وأجاد أحد العلماء وصف رشيد رضا أثناء مرحلة تلقيه العلم ، وما أفاده من دراساته قائلا : ان السيد رشيد رضا علمه لدنّى (أى من لدنّ الله تعالى) . اننى أغيب عنه سنة فأجد عنده من العلم ما لا يمكن اكتسابه الا فى السنين الطوال .

وفسّر رشيد رضا هذه الظاهرة التى استرعت نظر أقرانه قائلا انه جعل نصب عينيه أثناء تلقيه العلم نصيحة الامام الغزالى ، التى ذكرها فى الفرق « بين العلم الذى يصل الى القلب أو النفس عن طريق الحواس ، والعلم الذى يتفجر منه بتطهيره من الصفات المذمومة والأفكار الرديئة ، حتى يكون كالمرآة الصقلية — بأن مثل الأول كالماء الذى يجرى من السواقى المحفورة الى حفرة أو بئر ، يجتمع فيه مع كل ما يحمله فى طريقه من الغثاء والوحل ، ومثل الثانى كماء الينبوع الذى يتفجر من الصخر النظيف » .

ثم أوضح رشيد رضا الطريق الذى سلكه ازاء هذه النصيحة قائلا فى مذكراته : « فقد كنت أتحرى أن يكون قلبى طاهرا ونفسى زكية لأكون مستعدا للعلم الالهامى ، ولتكون مرآة نفسى صقيلة ينطبع فيها ما تتوجه اليه من المعلومات الكسبية على اختلاف أنواعها » .

وهكذا كانت نظرة رشيد رضا الى العلم نظرة سليمة ، استهدف به التقرب الى الله تعالى والاستعداد لخدمة دينه ونفع عباده ، أما منافع العلم بالجاه والمال فاعتبرها أشياء تابعة لذلك ،

ولا يصح أن تكون متبوعة للعلم ، ولا مقصورة لذاتها . ولم تتغير تلك النظرة بعد أن نال اجازة التدريس أو العالمية من أساتذته ، والتى قضى فى الحصول عليها ثمانى سنوات . فقال بعد حصوله عليها : « العلم الصحيح ما كان صفة للنفس ، والعلم النافع ما كان باعثا على العمل الصالح ، والعمل الصالح ما صلحت به نفس العامل ، وكانت قدوة حسنة لكل من عرفها » .

شاب نشأ فى عبادة الله

وجاءت الروح المثالية التى تحلى بها السيد رشيد رضا أيام طلبه للعلم وليدة حياته الخاصة ، وما اتسمت به من حب دافق للتقوى والعبادة ، وميل فطرى للزهد والتنسك. فقد نشأ فى أسرة دينية عريقة ، يتبرك الناس بأفرادها ، ويتخذونهم المثل الأعلى للطهر والفضيلة ، وأئمة الهدى والرشاد . وورث رشيد رضا هذه الخصال الحميدة منذ حداثة سنه ، وبدت واضحة للعيان فى أخطر سن يتعرض فيه الانسان للانحرافات ، وهو سن المراهقة والشباب . فلم يعرف فى هذه المرحلة من عمره غير الذهاب الى المسجد فى الحر ولا يعود الى البيت الا بعد ارتفاع الشمس ، حتى قالت والدته عنه : اننى منذ كبر رشيد ما رأيته نائما ، فانه ينام بعدنا ويقوم قبلنا .

واتخذ رشيد رضا لنفسه حجرة خاصة به فى الجانب البحرى من مسجد الأسرة ، كان يخلو فيها جده الأكبر للعبادة ، وتابع فيها بنفسه هذه الرياضة الروحية ، والمطالعة فى الكتب الدينية .

وفى تلك الغرفة التقى بالعلماء الذين زاروا القلمون ، كما جلس فيها الساعات يقرأ لأستاذه الشيخ الجسر الكتب الدراسية وغيرها من المؤلفات العلمية . ثم انه واظب على قراءة دلائل الخيرات ، ونال الاجازة بها عن الأستاذ الشيخ أبى المحاسن القاوجى بسنده الى مؤلفها .

وفى شهر رمضان تولى كبار الأسرة تدريس القرآن فى المسجد ، وخاصة للصغار ، لأجل تجويده . وقرأ رشيد رضا معهم كل يوم نصف ختمة ، خمسة أجزاء من بعد شروق الشمس الى صلاة الضحى ، وخمسة أجزاء بعد صلاة الضحى الى الظهر ، وخمسة أجزاء من بعد صلاة الظهر الى العصر ، وكل واحد يقرأ ثمن جزء ، على حين يسمع الآخرون . ثم انه عنى وحده بحفظ القرآن ، أى دون معلم يعيد عليه ما يحفظ . فحفظ سورة البقرة وآل عمران والنساء قبل أن يطلب العلم ، كما حفظ بعض السور كالكهف ومريم وطه ويوسف من غير تعمد لحفظها .

وكان يلذ لمحمد رشيد رضا صلاة التهجد تحت الأشجار فى بساتينهم الخالية ، ويمعن الفكر فى صدق القائلين عن التهجد : أهل الليل فى ليلهم أنعم من أهل اللهو فى لهوهم ، وقول الآخرين : لو يعلم الملوك ما نحن فيه لقاتلونا عليه بالسيوف . اذ وجد فى البكاء من خشية الله ، وتدبر كتابه فى صلاة الليل لذة روحية تعلو كل لذات الضحك واللهو على اختلاف أسبابها .

وقد حبب التصوف الى رشيد رضا فى هذه المرحلة من سن الشباب كتاب « احياء علوم الدين » لأبى حامد الغزالى . اذ دأب

على مطالعة هذا الكتاب ، ومراجعته مرارا وتكرارا ، حتى صار شديد التأثر به فى دينه وأخلاقه وعلمه وعمله ، واعتبره فى الحقيقة المعلم الأول له فى هذه الأيام المبكرة من حياته فى قرية القلمون .
وأشار رشيد رضا الى أنه وقف فى تنسكه على أسرار النفس ، على نحو ما يحدث للمتصوفة من كرامات ، مثل المشى على الماء والطيران فى الهـواء نتيجة مطالعته السـالفة فى ذلك الكتاب النفيس . فقال : « كنت فى أثناء شهر رمضان ، لا أذكر فى أى سنة أتحنث وأطالع الربع الرابع من احياء علوم الدين . فلما كان آخر يوم منه بلغت كتاب التوحيد والتوكل ، وقد أحييت معظم ليلة عيد الفطر بالتكبير مع جمـاعات من أهل بلدنا يبيتون فى المسجد كيلا تفوتهم صلاة العيد .. حتى اذا كان السحر صليت صلاة الليل والوتر احدى عشرة ركعة وفاقا للسنة الصحيحة كالعادة ، وعدت بعد صلاة الفجر الى التكبير مع الناس فى المسجد الى وقت صلاة العيد . وبعد أدائها صـعدت الى غرفة خلوتى وأتممت قراءة ما بلغتـه من الأحياء ، وفيـه ذلك البحث البليغ العظيم التأثير فى الفناء والتوحيد ، فما أتممته الا وشعرت بأننى فى عالم آخر من اللذة الروحية ، وأنه لم يبق لى وزن ، فكأنى روح بغير جسم . ثم عدت أرجع الى حسِّى ، فذكرت ما علىّ من الذهاب الى تهنئة والدى بالعيد .. فنزلت من الغرفة ، وكأننى ريشة طائر ، وشعرت بأننى لو ألقيت بنفسى من النافذة الى الأرض لا أكون الا كما تقع الريشة ، وأنه يمكننى المشى على الماء دون الطيران فى الهواء » .

ودأب رشيد رضا على تدريب نفسه على طريقة الصوفية بترك أطيب الطعام ، والاكتفاء بقليل من الزعتر مع الملح والنوم على الأرض ، حتى صار يجد فى ترك أطيب الطعام عمدا أمرا غير شاق بالنسبة له . ثم حاول أن يسلك سبيله الى التصوف وفق بعض الطرق الشائعة اذ ذاك . فطلب من أحد شيوخ هذه الطرق وهو الشيخ أبو المحاسن محمد القاوقجى أن يرشده الى سلوك الطريق على أصولهم فى الرياضة والخلوة والترقى فى منازل المعرفة.ولكن الشيخ اعتذر لرشيد رضا ، وقال له : « يابنى اننى لست أهلا لما تطلب ، فهذا بساط قد طوى وانقرض أهله » .

على أن رشيد رضا سلك طريقه الى التصوف على يد رجل من النقشبندية ، واستطاع فى تلك المرحلة من حياته أن يقف على أسرار هذه الرياضة الروحية ، بمحاسنها ومساوئها ، وهو الأمر الذى هيأه فى المستقبل للمناداة باصلاح الطرق الصوفية ، مناداة الخبير بها ، العارف بجميع شئونها وأهلها . فكان الورد اليومى له فى طريقة النقشبندية ذكر اسم الله جل جلاله بالقلب دون اللسان خمسة آلاف مرة مع تغميض العينين وحبس النفس بقدر الطاقة وملاحظة ربط قلبه بقلب الشيخ الذى يسلك طريقته . أما الورد الآخر للطريقة النقشبندية فكان يشترك فيه الجميع ويسمى « الختم » ، وهو عبارة عن اجتماع من كان حاضرا من أبناء الطريقة على ذكر وقراءة لبعض سور القرآن والتوجه الى استحضار بعض أرواح سلسلة الطريقة مع تغميض العينين .

ووصل رشيد رضا أثناء معالجته لهذه الرياضة الروحية الى

نتائج ، وجد بعضها طيبا والآخر لا يقبله العقل ، وأحيانا يكون مثار فتن دينية وسبيلا الى الاختلال فى القوى العقلية . واستطاع رشيد رضا عن طريق هذه التجارب الشخصية ان يعالج فيما بعد موضوع الطرق الصوفية ، ويذكر رأيه فى اصلاحها عن ثقة وايمان بما يقول . فرأى ان سلوك طرق الصوفية أمر لا ضرر منه باعتباره وسيلة لتهذيب النفس والوقوف على أسرارها ، أما ما عدا ذلك من المبالغات التى تأباها النفس أو الحياة الواقعية فضرر يجب تجنبه .

وعرف مكانة رشيد رضا العالية فى ميدان الرياضة الروحية وما يتصل بها من كرامات أقرب الناس اليه من الوالدين والاخوة والأخوات والأعمام والعمات والخدم ، وكذلك أهل قريته كافة من الرجال والنساء . اما والدته فكانت الى آخر أيامها تطلب منه أن يرقيها ويدعو لها كلما شكت شيئا ، وأخوه السيد صالح يجله ويقول : كنت اعتقد ان أخى الكبير رشيدا نبىّ ، فلما علمت ان نبينا محمد (ص) هو خاتم النبيين صرت اعتقد أنه من الأولياء . وقد تعسرت الولادة مرة على أخت رشيد الكبرى ، فكانت تقول: اطلبوا أخى رشيدا ليحضر هنا عسى ان يفرج عنى ويسّهل علىّ حضوره . أما أهل القرية فكانوا اذا مرّ رشيد بشوارعها — يخرجون من بيوتهم رجالا ونساء وأولادا ينظرون اليه ، ويذكرون الله ويصلون على النبى .

وصار أهل القرية أيضا كلما اشتد الكرب بأحدهم أو بأقربائهم يلجأون الى السيد رشيد رضا يتبركون به ، ويأملون دفع الأذى الذى ألمّ بهم . ومن الحوادث التى ذاع صيتها فى قرية القلمون

فى هذا الميدان من كرامات ذلك الشاب الورع ، قصة « عمر قدور » الصياد . اذ رمى شبكة ليلا فى البحر ، فسمع حيث وقعت صوتا رعب منه ، فعاد الى بيته مصروعا ، واشتد عليه الصرع فكان لا يعى . وييس جسده كأنه لوح من الخشب ، ويرى نفرا من الجن يجتمعون حوله وقد ضربه واحد منهم ضربة صرخ منها صرخة مزعجة . فطلب أهله السيد رشيد رضا ليراه ، وليرقيه . فقال لهم : بل أدعو له ، ثم خرج معهم ، ووجد الرجل مستلقيا جامدا لا يعى .فوضع يده على رأسه ، وتلا قوله تعالى بعد البسملة « فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم » فأفاق الرجل فى الحال ، وقام نشطا معافى .

وذكر السيد رشيد رضا حادثا وقع له شخصيا فقال : « كنت أترك غرفتى فى أعلا المسجد مفتوحة ، وأنام فى الدار لعلمى بأنه لا يعقل أن يسرق لى أحد من أهل القلمون شيئا . وكان فى الغرفة صندوق صغير أضع فيه بعض الأوراق وما عندى من السبح ، وهى كثيرة ، كانت تهدى الىّ ، وأحيانا أضع فيه الدراهم ، ومع هذا أترك الباب مفتاحه فيه لئلا أحمله فيسقط منى وأحتاج الى كسر الصندوق . وقد رأيت الصندوق فى صبيحة بعض الأيام مبعثر الورق والكيس الذى فيه السبح مسروقا .

« فطلبت من ساعتى ان تشد لى الفرس ، فشدت ، فركبتها وذهبت الى طرابلس ، ولم أنزل حيث كنت أربطها عادة عند مدخل المدينة ، بل قطعت الأسواق راكبا ، الى أن وصلت الى دكان عند الجسر الشمالى ، فنزلت أمامه وقلت لصاحبه : أين السبح التى

اشـــتريتها اليوم ؟ فأخـــرج لى الكيس ، فأخذته ، ودفعت له ما اشتراها به ، وهو قليل . وكان السارق خادما لصديقنا الشيخ عبد الفتاح الزغبى الجيلانى الشهير ، وكان مصطافا فى القلمون كعادته » .

وهكذا نعم السيد رشيد رضا بقدر واسع من الكرامات التى ينعم بها المخلصون من أهل التقى ، الممارسون للتصوف الحق . ولكنه حرص حرصا شديدا على تجنب الأمور التى تأباها النفس أو التى تثير الفتن والضلال . فحاول دون جدوى أن يتعود احتمال الوسخ فى البدن والثياب ، على نحو ما يبدو عليه بعض المتصوفه، وأدرك ان هذا عمل غير شرعى ، ولا يتفق مع الرياضة الروحية فى شىء . ثم انه استطاع أن ينجو من الغرور الذى يصيب أهل الطرق الصوفية ، لنتيجة حرصه على كتمان ما يعرض له من كرامات فكان يذكر للناس أن ما يشاهدونه من دلالات تلك الكرامات انما هى من قبيل الاتفاق والمصادفة . ذلك ان بعض المتصوفة قد وقعوا تحت تأثير الشياطين وما تسوله النفس الأمارة بالســوء ، وهم غائبون عن حسهم وعقلهم فى رياضاتهم ، وأباحوا لأنفســهم ارتكاب أمور تبعدهم عن الدين السليم .

وذكر رشيد رضا ان السبب فى نجاته من هذا الانحراف هو مطالعته الدائبة فى كتاب احياء علوم الدين للغزالى ، والافادة مما جاء فيه فى الفصول الخاصــة بالغرور وأصناف المغرورين من الصوفية وغيرهم ، وموضوع محاسبة النفس وموضوع النية والاخلاص . ثم ان هذا الشاب التقى حرص على الابتعاد كل البعد

عن الملابسات التى تثير الفتنة وتؤدى الى تنكب الطريق القويم . فلم يقبل مالا من أولئك الذين اعتقدوا أنهم انتفعوا بكراماته ، أو غيرهم ممن يطلبون منه هذا الانتفاع . أما فتنة النساء فقد اتقى رشيد رضى خطرها بالامتناع عن السماح لهن بتقبيل اليد أو الرقية لأية امرأة ، الا أن يكون ذلك فى حضرة والدته ، وذلك بوضع عصا أو سواك على رأس المرأة وهى مقنعة .

وجاءت احدى الفتيات البارعات الجمال مرة الى رشيد رضا ، وهو فى مكان خال ، وقالت له : يا سيدى ، صدرى ضيق ، حط ايدك المباركة عليه . فقال لها : ان اليد التى توضع على صدر أجنبية مثلك يد نجسة لا مباركة ، لأن هذه معصية . اذهبى وأنا أدعو الله ان يشرح صدرك ويزيل ضيقه . ذلك ان رشيد رضا وضع نصب عينيه دائما ما حدث لرجال الدين والنساك من فساد لافتتانهم بالحسان والخضوع لهن ، وظل يأخذ نفسه بطاعة الله والتمسك بتعاليمه ، برغم ما وصل اليه من درجة عالية فى ميدان التصوف والرياضة الروحية . وكان الفضل فى ذلك أيضا يرجع الى شدة تأثره بكتاب احياء علوم الدين للغزالى ، حيث دأب على محاسبة نفسه ، ومراقبة ربه ، ومعاتبة نفسه أيضا على الغفلة ، ومعاقبتها على الهفوة . ولذا صار ابن القلمون مثلا أعلى لمواطنيه فى الطهر والتقى والعلم ، نقىّ المظهر والمخبر ، معدا خير اعداد لأداء رسالته السامية فى خدمة وطنه الأصغر ثم الوطن العربى الأكبر فيما بعد .

الفصل الثالث

الجهاد الأصغر

بداية الاصلاح

الأعمال ثمرات الأخلاق ، اذ تمثل أعمال الرجل بعض أخلاقه ، وتعكس صفاء معدنها وقوتها . وكان أهم ما اتصفت به أخلاق السيد رشيد رضا أثناء تلقّيه العلم وممارسته الرياضة الروحية في ميدان التصوف هو الاخلاص لدينه وربه ، وأنه لا يبغى من وراء دراسته الا خدمة أمته ، دون التطلع الى أى كسب مادى . فطلب العلم بوازع من نفسه لتكميلها بالمعرفة والعمل ، ورفض البقاء فى المدارس التى تؤهل صاحبها لتولى مناصب الحكومة . وقد عرض عليه كثير من أصدقاء والده ، من أصحاب النفوذ الدخول فى خدمة الحكومة ، ولكنه أبى ، وآثر التعمق فى دراسة العلوم التى تؤهله لاصلاح المجتمع والأخذ بيد أبنائه نحو مدارج الكمال .

وأدرك رشيد رضا أن الذين اشتغلوا بعلوم الدين بقصد اصلاح أنفسهم واصلاح غيرهم فى كل جيل ، كانت الدنيا أشد انقيادا لهم ممن طلبوها بالدين وعلومه . وآمن بهذه الحقيقة منذ

كان يطلب العلم ، وظل ينصح بها كل أقرانه . فقال له أحد أصدقائه مرة ، وهما يطلبان العلم فى طرابلس « اننى بعد أن أتم مطالعة أعلى كتب الأصول والكلام والبلاغة سأذهب الى الآستانة وأقرأ درسا فى جامع السلطان أحمد ، وانى أتوقع لهذا الدرس حسن التأثير والشهرة وما يعقب ذلك من الفوائد . فأجابه رشيد رضا قائلا : انه لخير لك أن تنوى بقراءة هذه الكتب التقرب الى الله تعالى والاستعداد لخدمة دينه ونفع عباده ، وأما منافع العلم بالجاه والمال قد تأتى تابعة لذلك ، ولا يصح أن تكون متبوعة له ولا مقصودة لذاتها » .

وتفتحت عند رشيد رضا الرغبة فى افادة غيره مما ناله من علم ومعرفة منذ كان يطلب العلم كذلك . فكلما طالع كتابا جديدا ، وأفاد منه شيئا وجد فى نفسه ارتياحا شديدا لأن ينقل الى غيره ما وصل اليه من معرفة . وقد تأثر فى ذلك بما قرأه فى كتب الأدب والدين عن « مدح بذل العلم وأنه يزكو على الانفاق ، وأن كتمان علم الدين حرام ، وأن نشره واجب شرعى ، وارشاد الناس به أفضل شىء يتقرب به الانسان الى الله عز وجل » ثم انتقل رشيد رضا الى ميدان الاصلاح العملى دون أن يخاف فى الله لومة لائم . وكان رائده فى ذلك ما جاء فى كتاب احياء علوم الدين للغزالى من دراسة قيمة فى موضوع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . اذ رأى رشيد رضا أن الواجب يحتم عليه أن يرشد الناس الى ما فيه صلاح أمرهم ، وأن ينتقد كل ضلال مهما كانت الملابسات والأوضاع المحيطة به .

وخطا رشيد رضا الخطوة الأولى فى الطريق الطويل الذى رسمته له المقادير ، وهو العمل على اصلاح شأن أمته ، وهو طالب فى طرابلس يدرس العلم . وجاءت خطوته المبكرة فى تلك السبيل أيضا خطوة جبارة ، كشفت عما تحلى به من أهم شرطين للقدرة على الاصلاح وهما الصدق والشجاعة . ذلك ان نفرا من أصدقائه دعوه الى تكية لجماعة المولوية ، ومشاهدة احدى حفلاتهم العامة فى الذكر . فذهب رشيد رضا مع اخوانه الى تلك التكية ، وكانت فى مكان بهيج ، وزادها جمالا وقت الربيع ، وامتلاء أشجار البرتقال بالزهر ، حتى صار الزائر لها يشم عبير الأزهار ويسمع خرير الماء كأنما هو فى جنة الخلد .

وجلس رشيد رضا فى مقصورة النظارة ، حتى اذا ما حان ميعاد الذكر ، خرج دراويش المولوية ، واتخذوا مجلسهم تجاه ايوان النظارة ، وتصدّرهم شيخهم فى زيه الرسمى . ثم تبع ذلك حضور غلمان مرد ، حسان الوجوه ، يلبسون غلائل بيضاء ناصعة كجلابيب العرائس ، يرقصون بها على نغمات الناى المشجية ، ويدورون دورانا فنيا سريعا ، تنفرج به غلائلهم ، فتكون دوائر متقاربة على أبعاد متناسبة لا تطغى واحدة منها على الأخرى ، ويمدون سواعدهم ويميلون أعناقهم ، ويمرون واحدا بعد آخر أمام شيخهم فيركعون له . فسأل رشيد رضا عن هذا المنظر ، فقيل له ، انها ذكر طريقة مولانا جلال الدين الرومى .

ولم يطق الشاب المصلح صبرا — وهو ممن سبق أن سلك طرق الصوفية — ووقف وسط النظارة ، وصاح

بأعلى صوته قائلا : « أيها المسلمون ! ان هذا منكر لا يجوز النظر اليه ، ولا السكوت عليه ، لأنه اقرار له ، وانه يصدق على مقترفيه قول الله تعالى : « اتخذوا دينهم هزؤا ولعبا » ، واننى قد أدّيت الواجب علىّ ، فاخرجوا رحمكم الله » . ثم غادر التكية ، ومعه نفر قليل ، على حين ظل أكثر القوم فى المقصورة ، كأنهم لا يستنكرون ما يرون . على ان هذا الهجوم العلنى على طريقة المولوية قد أثار حديث الناس فى كل مكان فيما بعد ، وانقسموا فيما بينهم ، بين مؤيد ومعارض ، وصار اسم رشيد رضا تتناقله الشفاه ، وتردد آراءه المبكرة فى ميدان الاصلاح .

وظل رشيد مخلصا لعقيدته وما نادى به ، برغم اختلاف بعض كبار الأساتذة معه . اذ دارت مناقشة بينه وبين أستاذه الشيخ الجسر حول ما حدث فى تكية المولوية ، فقال له الأستاذ : انى أنصح لك أن تكف عن أهل الطريق . وكان الشيخ الجسر يقيم كل ليلة جمعة فى داره ذكرا ، وينشد فيه بعض أشعار الصوفية والمدائح النبوية . ولكن رشيد رضا رد على أستاذه رد الواثق من دينه ورأيه ، فقال له : هل لأهل الطريق أحكام شرعية غير الأحكام العامة لجميع المسلمين ؟ . فأجاب الأستاذ : لا ، ولكن لهؤلاء فى سماعهم نيّة غير نية سائر الناس ووجهة الى الله غير وجهتهم ، ومالك تخصهم بالأنكار عليهم ، وأن من أهل اللهو من يسمعون الأصوات والأوتار فى ملاهيهم ، بل بلغنى أن بعضهم يقامرون ليلا فى بعض المقاهى .

قال رشيد رضا : ان أهل الطريق ذنبهم أكبر من أهل اللهو ، لأنهم جعلوا السماع المنكر ، ورقص حسان الغلمان عبادة مشروعة ، فشرعوا لأنفسهم من الدين مالم يأذن به الله . على أنى لم أر منكرا آخر ولم أنكره ، وأنا غير مكلف أن أذهب فى آخر الليل الى المقاهى لأرى ما فيها وأنكر عليه . وانتهت المناقشة بين الأستاذ وتلميذه الى هذا الحد ، بعد أن كشف رشيد رضا عن جرأة مثالية فى هذه المرحلة المبكرة من حياته ، وعن ميل فطرى نحو الاصلاح ، والتمسك الشديد بعقيدته فى تلك السبيل .

القاعدة الشعبية

وخص رشيد رضا أهل قريته القلمون بنصيب كبير من نشاطه الاصلاحى المبكّر . فكان يقرأ للرجال الدروس فى المسجد ، ويحاول أن يجعل من خطب الجمعة سبيلا لحمل الناس على التمسك بشعائر دينهم ، لأن فى ذلك سلامتهم وسلامة أمتهم . وكانت العادة تجرى اذ ذاك على أن يقرأ خطيب الجمعة كلمة مكتوبة لا غناء منها ، ولا فائدة ترجى من ورائها . وأطلق رشيد رضا على الخطبة الأولى من خطبه اسم « الحديثية » ضمنها آراءه أيضا فى ضرورة صلاح حال المسلمين ، وتوجيه أنظارهم الى ما يجب عليهم القيام به باعتبارهم خير أمة أخرجت للناس . وجاء فى تلك الخطبة قوله :

« اننا معشر المسلمين نفتخر دائما بأننا أمة محمد خاتم النبيين (ص) ، فأما أمة دعوته فهم جميع البشر ، وانما يحق

الفخر لأمة الاجابة منهم .. هل تدعى اجابة دعوته يا تارك الصلاة ، وقد لعن تاركها مرارا ، وقال « من ترك الصلاة فقد كفر جهارا .. » ثم عدّد المعاصى التى يرتكبها المسلمون بترك الفرائض الأخرى ، مثل أداء الزكاة والصوم . وعمد رشيد رضا أن يكون أسلوبه خاليا من السجع المتكلف ، حيث كره ذوقه الفطرى هذا الأسلوب النابى ، وليجعل كلامه أكثر قربا لقلوب السامعين .

ودأب رشيد رضا على الذهاب الى مقهى اعتاد رجال القرية الجلوس فيه لشرب القهوة والنارجيلة « الشيشة » ، فيجمعهم ، وكان فيهم أفراد تاركون للصلاة ، فيعظهم ويستغل نفوذه الدينى والاجتماعى لحثهم على أداء الصلاة والمحافظة عليها . وجعل سبيله فى ذلك كله تقريب قواعد الفقه لعقول العامة ، وتبسيط ما جاء فى كتب الفقه ، حتى يصير فى مستوى الناس جميعا . فكان بعض الأشخاص يبكى عند سماعه الصفات العديدة التى يجب توافرها فى المسلم ، والتى ترويها كتب الفقه المليئة بالعقائد وفلسفتها ، ويرى أنه بعيد عن فهمها ، ويخشى أن يكون كافرا نتيجة الجهل بها . فكتب رشيد رضا للناس عقيدة سهلة الفهم والعبارة ، استطاع الكثيرون منهم حفظها ، وصار بعضهم بذلك أفقه من طلبة العلم الدارسين له والمنقطعين لتحصيله .

أما المواعظ التى ألقاها رشيد رضا فى المسجد ، فاعتمد فيها على القرآن الكريم ، ونجح فى جمع أكبر عدد ممكن من الآيات فى الموضوع الواحد ، حتى صارت لعظاته أعظم الأثر وأشد الوقع فى النفوس . واختار من كتب التفاسير أيسرها ، على حين قام هو

نفسه بدور كبير فى شرح الآيات القرآنية واستخلاص العبر التى تفيد جمهور المستمعين ، وترشدهم فى حياتهم اليومية . واستطاع فى تلك الأيام الأولى من جهاده فى سبيل الاصلاح أن يحـــرر العقول من الأفكار الجامدة ، وأن يثبت قدرته على الاجتهاد فى الفقه . وكان هذا الأسلوب تطبيقا عمليا لما اشتهر به رشيد رضا من استقلال فكرى ، وعدم الاقتناع بشىء الا اذا كان يوافق عقله وبديهته الصافية .

ويعتبر هذا الجهاد فى ميدان تبسيط الفقه ، وتقريب قواعده للعامة خطوة هامة ، فى تلك الأيام ، والنواه التى سوف تنمو وتزدهر عندما يدخل رشيد رضا حلبة الاصلاح الأكبر فى خدمة الأمة العربية . اذ ساد الاعتقاد عند طلبة الفقه اذ ذاك ان بعض العلوم قد أحاط به العلماء الأولون علما ، وليس على من بعدهم الا أن يقلدهم فى كل ما دولوه فيه بغير بحث ولا محاولة ولا تمحيص . فخرج رشيد رضا عن هذا الاعتقاد الخاطىء ، وآمن بأن الاجتهاد فى جميع أبواب الفقـــه مرتبة عالية من مراتب العلم الاستقلالى بالأحكام الشرعية ، وان هذا العمل هام وحيوى لارشاد الناس الى ما فيه الخير والهداية .

وبدأ رشيد رضا يطبق اجتهاده فى الفقه فى حمل الناس على التخلى عن البدع التى تمسكوا بها ، ومنها التبرك بأصــحاب القبور ، وغير ذلك من الأعمال التى لا يقرها الشرع . والأمر الجدير بالملاحظة ان هذ المصلح الشاب وصل الى هـــذا المنهج بفطرته السليمة قبل أن يطلع على كتب ابن تيمية ، التى وضعت

الأساس المتين فى محاربة البدع وما يتفرع عنها من انحرافات . اذ اهتدى الى كثير من آراء المصلح ابن تيمية عن طريق اعماله للفكر والفهم فيما استطاع أن يقرأه من كتب الفقه التى كانت متداولة فى القلمون .

ونجح رشيد رضا فى حث الناس على التخلى عن التوسل بأصحاب القبور ، وحملهم على التوجه بالرجاء الى الله وحده سبحانه وتعالى . وأظهر هذا الشاب الورع حماسة فى ازالة أسباب البدع والضلال دون أن يخشى فى الله لومة لائم ، أو يرهب اعتقادا شائعا واسع النطاق . فكان فى أرض القلمون مجرى ماء للمطر يسمى « وادى الولية » وفيه شجرة زيتون كبيرة تسمى زيتونة الولية ، ودأب كثير من المارة على التبرك بها ، فقد راجت الأقوال عن أن هناك ولية مدفونة فى ذلك الوادى وبجانبها شجرة آس كبرت وارتفعت ولم يرتفع غيرها من الآس فى تلك الأرض على كثرته . وكان السبب فى كبر ونمو شجرة الزيتون وشجرة الآس أن الناس قطعوا ما جاورهما من أشجار أخرى ، لاستخدامها فى الوقود . وغاب عن الأهالى أن الغذاء تحول بالتالى الى هاتين الشجرتين ، ونسبوا ضخامتها الى بركات « الولية » فكلف رشيد رضا أحد الرجال الذين حضروا دروسه الدينية بأن يقلع هاتين الشجرتين ليلا ، وتم ذلك دون أن يصاب هذا الرجل بأى أذى ، على نحو ما توهم الناس ، ونجح فى تلقين مواطنيه درسا عمليا فى مساوىء الخرافات .

وعلى هذا النحو تابع رشيد رضا جهاده فى محاربة البدع

دون وهن ولا كلل . وكانت عديدة الأنواع والمظاهر فى قريته بسبب افتقار أهلها الى الفقهاء المثقفين ، أو المصلحين ذوى الشجاعة والاقدام . وأحس رشيد رضا أنه المسئول عن ازالة هذه البدع ، نتيجة تفكيره السليم أولا ، ومتابعة الرسالة الدينية التى نهضت بها اسرته ثانيا وأقدم فى هذه المرحلة من حياته على خطوة هامة تشهد له باتساع الأفق والحـرية الفكرية . فلم يخص الرجال وحدهم بارشاده وتوجيهه ، وانما قصد برسالته رفع مســتوى نساء القرية كذلك ، باعتبارهن السواد الأعظم من السكان ، واذا صلح حالهن صلح شطر كبير من أهل بلدته بالقلمون .

وبعث رشيد رضا الى نساء القرية ، من دعاهن الى درس خاص بهن ، وجعل مقر التدريس فى دار الأسرة ، حتى يطمئن الناس جميعا ، ويبعد كل سبب للشبهة أو الريبة . وألقى عليهن دروسا مبسطة فى العقائد ، تتفق ومستوياتهن الثقافية ، وتتصل بحياتهن العامة أيضا . فشرح لهن أحكام الطهارة والعبادات بعبارة عامية سهلة دون أن يلتزم بكتاب معين ، قد يكون سببا فى ابعاده عن أداء رسالته على خير وجه . وحث النساء أيضا على التمسك بأهداب الدين ، واتخاذ ملبس كريم لا يتنافى مع الذوق ، وانما تتوافر فيه شروط الوقار أشبه بالثياب التى يرتدونها عند أداء الصلاة . وصار مظهر نساء القلمون فى الشارع يحمل على التقدير والاحترام ، كما أنهن أقبلن على الصلاة وأداء الشعائر الدينية بفضل دعوة رشيد رضا . وبذلك حسنت حالة جماعات كثيرة من أهل القلمون ، وصارت السعادة العائلية ترفرف على البيوت

والأسر ، والنظافة تســود سائر أركان المساكن بسبب تقوى النساء ، وما نلنه من توجيهات طيبة .

وتخلى نساء القلمون فى سرعة أيضا عن العادات البعيدة عن الدين ، بفضل ما لقنه رشيد رضا لهن من ثقافة دينية . فكان فى القرية مقبرة لأحد الأولياء الصالحين دأبت النسوة على التبرك بها بوضع الشمع فى شبابيكها ، وتركه موقدا طول الليــل . فامتنعت النسوة عن تلك الفعلة ، وصار ادراكهن لمثل تلك الأعمال سليما . وكن يوقدن الشمع أيضا فى عليقه على شاطىء البحــر ، ويربطن عليها خرقا من طالبات الاستشفاء أو غير ذلك . اذ ساد الاعتقاد أن هناك « وليا » فى تلك الجهة موضع الرجاء والتوسل . وزالت هذه العادة الخاطئة أيضا ، بفضل دروس رشــيد رضا للنساء فى القلمون ، وارتفاع مستواهن الدينى والثقافى .

وخص رشيد رضا نساء أهل بيته بدروسه وارشاداته الدينية كذلك ، مع أن أكثرهن كن يصلين ويعرفن واجبات الدين وسنته ، كما كن يرتدين الملابس المحجبة عند الخروج اذ كان فيهن المتعلمات بالقدر الذى سمحت به الأحوال فى هذا العهد ، ويعرفن القراءة والكتابة ، ويقبلن على الاطلاع من تلقاء أنفسهن . ومن أمثلة ذلك عمة رشيد رضا التى دأبت على قراءة القرآن الكريم ، وتدبر تعاليمه ولذا سلك رشــيد رضا مع النساء من أقاربه ، وخاصة أهل بيته مسلكا يختلف عما اتبعه مع نساء القرية . اذ قرأ لهن بعض الكتب فى الأدب أو التاريخ أو الوعظ ، وخاصة فى ليالى الشتاء ، وقضاء أمسياته فى العبادة . وكان رشيد رضا يقرأ

لهن فى تلك الكتب بكل مشاعره ووجدانه ، حتى كان التأثر يغلبه . وروى فى مذكراته حادثة له فى ذلك ، فقال : « ولا أنس ليلة كنت أقرأ فيها خبر مقتل سيدنا وجدنا الامام الحسين السبط عليه السلام وعلى قاتليه اللعنة ولهم سوء الدار . فكنت أبكى وتبكى عمتى الكبرى وتقول لى : تجلّد فان القارىء لا ينبغى له البكاء » .

وأصبح رشيد رضا ينعم بمكانة عالية بين أهل قريته ، ويرون فيه المثل الأعلى للتقى والصلاح ، ويهرعون اليه عندما تدهمهم أية متاعب أو خطوب . وكان دائما عند حسن ظنه بهم ، يرشدهم الى ما فيه السلامة ، بكل صدق واخلاص ، لأنه جعل غايته التقرب الى الله ، لا يبغى جزاء ولا شكورا ، ولا يبغى من عمـله أى كسب مادى ، أو تحقيق رغبة شخصية . ثم زاد فى تقدير الناس له عزوفه عن المناصب الادارية ، وتمسكه بحريته فى العمل فى سبيل الله ، وتوجيه دعوته فى الارشـاد الى كبار رجال الدولة والحكام أنفسهم .

مع أصحاب السلطان

ورأى رشـيد رضـا أن المهمة التى وكل نفسه لها ، وهى الاصلاح ، لا تقتصر على عامة الناس وأهل بيته فحسب ، وانما تشمل أيضا أصحاب السلطان . وكان كثير من رجال الحكومة يفدون الى منزله باعتبـاره رأس القلمون ، وأهله أصـحاب الكلمة العليا لدى سكان تلك القرية . ومن ثم أتاحت الظروف

لرشيد رضا أسباب التعرف بأصحاب السلطان فى البلاد ، والجلوس اليهم ودراسة أحوالهم عن كثب . فلم يعجبه ما كان عليه هذا النفر من علية القوم من التمسك بالترف ، والتأنق فى ملبسهم ومشربهم . فانتقد جماعة منهم كانوا يلبسون ساعات أنواطها من الذهب ، وأوضح لهم ان التمادى فى هذه المظاهر لا يتفق مع العدل ، لأنه يدفع المرء الى المظالم والمفاسد .

وظل هذا النصح والارشاد شعار رشيد رضا مع كل من يلتقى بهم من كبار رجال الدولة . فحدث أن شاهد فى طرابلس أحد الحكام ، وهو والى بيروت ، يصلى فى سرعة . فأنكر عليه رشيد رضا هذا العمل ، ونصحه بأن تكون صلاته أكثر خشوعا . وقبل الوالى هذا الكلام أول الأمر ، ثم عاد بتأثير السعاة والوشاة الى انتقاد رشيد رضا ، وتلمس الأسباب التى تساعده على أن ينفّس عن كراهته له . فقال الوالى لرشيد رضا : انك أنكرت عليّ ترك الطمأنينة فى صلاتى بطرابلس ، وأنا أنكر عليك الآن تخفيف لحيتك ، فهذا لا يليق بأهل العلم » . فلم يتردد رشيد رضا فى أن يجيب هذا الحاكم اجابة قوية سليمة قائلا : لقد صدقت ، فانى قد عبت عليك طريقة صلاتك فى طرابلس . ولكن ما توجهه اليّ من نقد ، فان فى شعر وجهى ضعفا ، فهو يسقط بأدنى تحريك له ، وقد عرضته على بعض الأطباء هنا فقال ان سببه كثرة المادة الدهنية ، فهى تضعف بصيلات الشعر » . ومما لا شك فيه ان هذا النقد الذى وجهه الوالى الى رشيد رضا لا يحمل أى نصيب من الصحة ، ويبدو فيه الافتعال وتلمس أسباب الجدل فحسب .

وأحب رشيد رضا أيضا وهـو ما زال طالب علم مجالسة الحكام ، وخاصة المشهورين بحب العلوم الدينية والاكثار من الاطلاع عليها . وكان من أولئك الحكام متصرف طرابلس ، واسمه مصطفى ذهنى ، وهو من أسرة عريقة ، يرجع نسبها الى أبى عبيدة ابن الجراح . ولذا شب هذا الحاكم وهو شديد الرغبة فى دراسة علوم الشرع ، والاشتراك مع العلماء فى مذاكرة الفقه والتوحيد وغيرهما . وحرص مصطفى ذهنى كلما ذهب الى القلمون على السؤال عن رشيد رضا ، والجلوس معه ، والدخول فى مناقشات دينية ، كانت تتخللها أحيانا أسئلة محرجة أو صعبة .

واستطاع رشيد رضا أن ينال اعجاب هذا الحاكم لجرأته فى الاجابة وحسن عرضه لما يدور فى ذهنه من أفكار . ومن ذلك ان الحاكم قال له مرة : ان الدولة العثمانية مخطئة فى اعفاء طلاب العلوم الدينية من الخدمة العسكرية ، فانها خدمة دينية ، والعلماء أحق الناس بالقيام بها . فقال له رشيد رضا على البداهة : ان لهذا الاعفاء أصلا فى كتاب الله تعالى . فقال الحاكم متعجبا : فى كتاب الله تعالى !! . قال رشيد : نعم ، وهو قوله « وما كان المؤمنون لينفروا كافة ، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون » . فدهش الحاكم ، وأثنى على رشيد ودعا له دعاء صالحا من قلبه .

على أن الالتقاء بالحكام أتاح لرشيد رضا أن يكشف عن أمر آخر هام ، اشتهر به فيما بعد فى ميدان الاصلاح ، وهو الاشتغال بالسياسة الى جانب الدين . اذ رأى هـذا المصلح الشاب أن

نشاطه يجب أن يمتد الى كافة نواحى المجتمع ، وأن يعمل جاهدا الى ارشاد الجميع الى الطريق القويم . ولكن اتسمت خطواته فى تلك السبيل بالكياسة واللباقة ، وهى كلها أمور سوف تنمو وتترعرع مع انغماسه فى ميدان الاصلاح ، ومنحته درجة عالية وسط جماعات المصلحين الكبار الذين سجل التاريخ جهادهم وكفاحهم فى سبيل رفع مكانة أممهم وأوطانهم .

وتجلت هذه الظاهرة الجديدة فى حياة رشيد رضا عندما كان يجلس فى منزله لتناول الطعام مع والده ، ومع حاكم طرابلس السالف الذكر ، مصطفى ذهنى . اذ دار الحديث فى شئون الدولة العثمانية ، وتعرضوا لما أصابها من ضعف اذ ذاك نتيجة اعتداء الدول الأوربية على سلطانها وممتلكاتها ، وما ساد شعوبها من سخط وفتن . وأخذ الحاكم ووالد رشيد رضا يتناقشان فى الأسباب التى أدت بالدولة الى هذه الحالة السيئة ، وكل يبدى وجهة نظره فى شىء من التحفظ أو التزام الحيطة فى الحديث .

على أن رشيد رضا أبدى رأيه فى جرأة نادرة حيث قال : ان الذى أضعف الدولة هو جهل العلماء بالسياسة وجهل الحكام بالدين » . وهنا ظهر على وجه الحاكم التجهم والاستياء من هذا الرأى الواضح ، والذى يحمل فى طياته قدرا ملحوظا من الحقيقة المرة . واستولى الغضب بوالد رشيد رضا ، الذى نظر الى ابنه نظرة قاسية ، حتى جحظت عيناه . وقال الحاكم لرشيد رضا ، بعد أن أفاق من الصدمة ، وهل رجال الدولة جاهلون بالدين ؟ . فأجاب رشيد رضا اجابة لبقة ، أنقذت الموقف الحرج ، حيث

قال : لو كان رجال الدولة كلهم أو أكثرهم مثل سعادتكم لما كنا نقول هذا » .. وسرى عن الحاكم ، ووالد رشيد رضا ، وبدا السرور على الجميع .

وشاع خبر هذا الحديث بين الناس ، الذين تناقلوا رأى رشيد رضا ، ووجدوا فيه ثغرة ينفسون بها عما جاش فى صدورهم من آراء تجاه الدولة العثمانية . وبدأت قرية القلمون تشاهد فى تلك المرحلة من تاريخها الحديث نشاطا سياسيا ، أخرجها من عزلتها وركودها وما ران عليها من مظاهر العزلة . اذ كان الناس لا يجرؤن على الخوض فى مثل تلك الأحاديث السياسية ، ويحرصون على الابتعاد عن كل ما يمس الدولة العثمانية وخاصة رجال الحكم فيها . ومن ثم أعقب مناقشة رشيد رضا للحاكم مصطفى ذهنى دوى عظيم بين الناس ، لأنه أول انتقاد علنى لرجل مهم من رجال الدولة ، ومن أصحاب السطوة والنفوذ العظيم .

ولم تلبث الأحداث أن أتاحت لرشيد رضا الدخول علنا فى ميدان السياسة ، والتحدث بصراحة تامة عما يجيش بصدره من آمال ، والتعبير فى حرية عن آرائه ومعتقداته . وصار كل ما نادى به اذ ذاك ، وهو ما زال طالب علم بطرابلس ، أمرا جديدا ، أو شيئا لم يألف المواطنون وخاصة الأفاضل والكبار منهم ، سماعه من انسان ما ، مهما كانت ثقافته أو جرأته . وتجلت هذه الظاهرة مرة أخرى حين عمد حاكم طرابلس الادارى ، وهو حسن باشا ، الى عقد صلح بين اثنين من كبار علماء طرابلس ،

وهما الشيخ على رشيد الميقاتى ، والشيخ السيد عبد الفتاح الزغبى ، وازالة ما نشب بينهما من أسباب الخلاف .

وأقيم حفل كبير بتوجيه الحاكم الادارى بمناسبة هـذا الصلح ، حضره جميع موظفى الدولة بطرابلس .وكبار الوجهاء ، فضلا عن عدد عظيم من العلماء . ولم يدع الى هذا الحفل الا اثنان من الشباب ، وهما رشيد رضا ، الذى كان يطلب العلم اذ ذاك ، وابن الداعى نفسه ، وكلف الحاكم ، وهو حسن باشا الشاب النابغة رشيد رضا أن يعد خطابا يناسب المقام ، ويلقيه عـلى الحاضرين . وكان الموقف يتطلب من الخطيب التزام الحيطة التامة والحذر الشديد فى كل ما يتفوه به أو يذكره من قول . فالحاكم الادارى أولا ابن رئيس الوزراء اذ ذاك ، مما يحمل على الاعتقاد بأن كل شىء يحدث فى هذا الحفل سوف يحصى على صاحبه . ثم ان الحاضرين من الناحية الأخرى هم رجال الدولة الرسميون ، والعلماء وأفاضـل طرابلس ، وهو أمر يدعو بدوره الى التمسك بالرقة فى القول ، ومحاسبة النفس على ما تنطلق به من فكر أو رأى .

ولكن رشيد رضا أطلق العنان لنفسه فى الخطاب ، فشبّه فيه الشعب أو الأمة بالفرد منها ، والجماعات العاملة للمصالح العامة فيها — ومنهم رجال الحكومة والدولة — بأعضاء جسم الانسان كالرأس والقلب ، وقال انهم يجب أن يكونوا سواء فى الحقوق العامة والاحترام ، وان كانوا يتفاضلون فى العرف والاعتبـار . ثم شبّه العاطلين الذين لا يؤدون عملا نافعا لأمتهم ، من الأغنياء

وأصحاب الثراء الموروث وغيرهم ، أسوأ تشبيه لأنهم يحتقرون الطبقات الدنيا ، وقال فى ذلك : « ولا التفات الى سفهاء الأحلام ، المتكبرين بالأوهام ، الذين يحتقرون الزراع والصناع . فانما مثل الفريقين كالأعمى والأصم ، والسميع والبصير ، والنسبة بينهما بين الأيدى والأرجل فى البنية ، وبين زوائد الأظافر والشعور ، لو كانوا يعقلون » .

وساد الحاضرين الخوف بسبب ما جاء فى هذا الخطاب من جرأة نادرة ، وآراء خطيرة وأفكار جديدة لا يجرؤ انسان على المناداة بها سرا ، لا علنا كما حدث . وعبّر الشيخ الجسر ، وهو أستاذ رشيد رضا ، وكان حاضرا الحفل ، عن مشاعر الحاضرين حين لقى تلميذه مباشرة ، عقب انتهائه من القاء الخطاب . اذ كشف له عما دار بنفوس الناس من خوف لما سمعوه ، وطلب منه أن يتلافى ما حدث فى نهاية الحفل ، بأن يلقى كلمة أخرى يذكر فيها فضل الدولة العثمانية ورجالها ، ويشيد بما يقومون به من أعمال جليلة .

ولكن الحاكم حين وقف ليعقب على كلام رشيد رضا أدخل الطمأنينة على نفوس الحاضرين ، وأزال ما سادهم من خوف . اذ بدا عليه الاعجاب بما قاله رشيد رضا ، ولم يظهر عليه أى مظهر من مظاهر الغضب أو الاستياء . وقال فى تعقيبه : « اننى أفتخر اليوم بأن أعد نفسى طرابلسيا لهذه الحكمة التى سمعتها من هذا الشاب » . وانتهى الحفل بسلام ، وخرج المدعوون وهم يرددون الآراء الجديدة التى جاءت على لسان رشيد رضا ،

ويحمدون الله على أن المسألة لم تتطور تطورا خطيرا يسيء الى أحد من الحاضرين .

وكان السبب فى هدوء الحفل ، بعد خطاب رشيد رضا ، ان الحاكم الادارى العثمانى بعد أن عقّب على الخطاب أشاد برجال الدولة العثمانية ليصرف انتباه السامعين عما حدث . واتضح ان هذا الحاكم من أبناء الطبقة المثقفة فى الدولة ، وممن ساءهم المفاسد التى سادت البلاد ، ورحبوا بكل فكرة تؤدى الى اصلاحها ، والعودة بها الى الطريق القويم . ولذا صار هذا الحاكم يدعو رشيد رضا الى داره ، وعند دخوله لا يأذن لأحد بحضور مجلسهما ، لأنهما كانا يتكلمان بمنتهى الحرية فى عيوب الدولة ، ولا يطمئن الحاكم الى شخص آخر ، مهما كان شأنه للاشتراك فى مثل هذه المناقشات . ثم عبّر الحاكم مرّة أخرى عن اعجابه بهذا الشاب حين عيّنه عضوا فخريا فى لجنة اصلاح المعارف .

على ان أخبار الخطاب الذى ألقاه رشيد رضا لم تلبث أن ذاعت ، برغم كياسة الحاكم الادارى ولباقته . وأخذ الناس يتناقلونه من مكان الى مكان ، ويرددون عباراته القوية الجريئة ، ويرون فيها لونا جديدا يبشر بعهد مليء بالنشاط والحياة . وأصبح ابن القلمون يسيطر شيئا فشيئا على ميدان الاصلاح فى وطنه من أرض الشام ، بعد أن لمس فيه المواطنون الجرأة المثالية ، والصدق فى القول ، وآمنوا بما تحلى به من مواهب فذة وعبقرية فريدة . ثم انهم عرفوا أيضا الشيء الكثير عن طهره

وعفة نفسه ، وقوة ايمانه بالله ، وشدة تدينه ، وهى أمور أضافت قوة الى قوة رشيد رضا وأكسبته عندهم الاجلال والتقدير . ولذا لم يكن عجبا أن سلم له المواطنون علم القيادة ، اذ جاءته وفود من كبار أدباء البلاد وأصحاب الفكر تعترف بفضله ، وتشيد بجرأته . وأعلن له زعيم أولئك الأدباء — عقب سماعه بالخطاب السالف الذكر — مبايعة المواطنين له فى قوله : « من أين جئت بهذه الحرية المتطرفة فى هذه البلاد المستعبدة ؟ » .

الفصل الرابع
الدراسات العليا في مدرسة العروة الوثقى

هيئة التدريس

في الوقت الذى دخل فيه رشيد رضا ميدان الاصلاح فى قريته ، بدافع من ميوله الفطرية وقدراته العلمية ، كانت أنظار العالمين الاسلامى والعربى قد اتجهت نحو مصر ، حيث انطلقت منها حركة اصلاحية كبرى ، محددة المنهج ، واضحة الأهداف ، ممتازة القيادات والعاملين فى حقلها . وترامت أنباء هذه الحركة الى رشيد رضا ، وكان من الطبيعى أن يلتقى بها وبرجالها ، وينهل من موردها . ثم أسهم بدوره فيها حتى وصل الى مراكز القيادة بها وشارك فى حمل شعلتها مضيئة عالية .

وتولى زعامة هذه الحركة الاصلاحية الكبرى فى مصر اثنان من خيرة علماء الشرق وأبطاله وهما السيد جمال الدين الأفغانى ، والأستاذ الامام محمد عبده . وتلقى رشيد رضا على هذين الأستاذين الجليلين دراساته العليا فى ميدان الاصلاح ، وبذل كل جهد جهيد فى فهم مقاصدهما النبيلة ، والوقوف على جميع ما غرسته أيديهما من بذور فى حقل الاصلاح . وأتيحت لرشيد

رضا بذلك هيئة تدريس قلما أتيحت لغيره من قادة الاصلاح ، من حيث العبقرية الفذة والتعاون فى ميــدان العمل . وكان من الطبيعى أن يشب على نفس نهج أستاذيه ، وأن يتم الرســالة التى وضعا الحجر الأساسى لها ، وأن يشاركهما شرف الجهاد فى رفع قواعد الاسلام والعروبة .

وترتب على الظاهرة السالفة حقيقة هامة ، وهى أنه لا يمكن فهم الدور الذى اضطلع به رشيد رضا فى ميدان الاصلاح دون الرجوع فى شىء من التفصيل الى حياة أستاذيه ، والقاء نظرة على أهم أعمالهما وأفكارهما ، وكذلك خلقهما الشخصى . فكثير من الأزهار اليانعة والثمار الناضجة التى حفلت بها أيام رشيد رضا واصلاحاته نالت غذاءها من كدح جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ، فضلا عن أن الأبواب الجديدة التى طرقها هــذا المصلح الكبير سبق أن استعصت على أستاذيه ، أو سلكا الدروب المؤدية اليها دون أن يصلا فيها الى شىء .

وساعد رشيد رضا على أن ينــال درجة عالية فى ميــدان الدراسات العليا ، وأن يحصل على أكبر قسط ممكن من علومها أنه التحق بهذا المعهد بعد أن تدعمت أوتاده ، وكثرت تجاربه وتحددت مناهج هيئة التدريس فيه . ففى الوقت الذى كان يأخذ فيه طريقه الى كتّاب قرية القلمون ، كان موقظ الشرق ، وهو جمال الدين الأفغانى قد سلك سبيله الى مصر (سنة ١٨٧١ م) ، وبدأ يشيّد فيها معهد الدراسات العليا فى علوم الاصــلاح . وكان هذا الأستاذ الأفغانى الأصل ، شريف النسب ، ينتمى الى

الحسن بن على ، كما جمع الى شرف النسب عزة السيادة لأن أهل بيته كانوا سادة على بعض جهات أفغانستان . وهيأت له هذه النشأة السبيل الى معرفة الأمراض التى انتشرت سمومها فى بلاد الشرق . اذ وقعت فى بلاده منازعات سياسية حول من يتولى الملك ، واشترك فيها ، وشاهد عن كثب تدخل الدول الأوربية فى شئون بلاده وحكامها . ثم انه طاف ببلاد فارس والهند والحجاز والآستانة ، حتى ألقى عصى التسيار أخيرا فى مصر سنة ١٨٧١ م .

وجاء نزول جمال الدين الأفغانى أرض مصر فاتحة عهد عظيم فى يقظة الشرق ، وبناء معهد الدراسات العليا فيه لتخريج القادة وزعماء الاصلاح فى شتى ميادينه . اذ سبق لهذا الأستاذ الكبير أن حاول بذر بذور الاصلاح فى البلاد التى طاف بها ، ولكن دون أن يرى لها نبتا . ولكن ما أن حل مصر حتى وجد تربتها خصبة للاصلاح ، مثل خصوبتها للزراعة . ولذا امتدت اقامته فى البلاد المصرية ، بلغت ثمانى سنوات ، كانت من خير السنين بركة على مصر والعالم العربى .

وكان السبب فى صلاحية تربة مصر للاصلاح ان أبناء تلك البلاد قد سبق لهم منذ أوائل القرن التاسع عشر ، أى قبل مجىء جمال الدين الأفغانى الى مصر ، الاتصال بأوربا ، والوقوف على ما ساد بلادها من تقدم علمى وثقافى . وأخذ قادة الطليعة من أبناء مصر ينقلون الى مواطنيهم ثمار معارف الغرب عن طريق ترجمة أمهات الكتب العلمية والأدبية فى شتى الفنون والمعارف ، وخلقوا

بالتالى يقظة رائعة فى ميدان الثقافة العربية . ولذا حين دخل جمال الدين الأفغانى مصر ، وجه عزيمته الجبارة وعاطفته المتأججة حماسة ، الى اكمال الرسالة التى بدأها قادة الطليعة فى تلك البلاد .

واستهدف جمال الدين الأفغانى توسيع دائرة الثقافة العربية ، ونقلها من محيط الترجمة والتأليف الى ميدان السياسة والاتصال المباشر بعامة الشعب ، بدلا من الاقتصار على جماعة معينة من المثقفين ثقافة عالية . فقد لاحظ هذا الأستاذ الكبير أن الأدب ما زال مكرسا للطبقة الأرستقراطية ، لا هم له الا مدح الملوك والأمراء . ولذا سخّر الأدب والعلم لخدمة الشعب ، والمطالبة بحقوقه والدفاع عنه ضد المعتدين الآثمين . وكانت الأحوال السياسية فى مصر تساعده اذ ذاك على أن يخطو هذه الخطوة الجبارة .اذ تولى حكم البلاد الخديو اسماعيل الذى فتح باب الديون على مصراعيه ، وأتاح بالتالى للأوربيين سبل التدخل فى شئون البلاد والاشراف على مصادرها ومواردها ، حتى صارت مغلولة الأيدى والأعناق .

وضع جمال الدين الأفغانى لمعهده فى مصر منهجا ذا شعبتين ، الأولى اشتملت على دروس علمية منظمة يلقيها فى بيته على زواره من كبار رجالات البلاد ، والثانية تضمنت دراسات شعبية وتدريبات حرة لشباب البلاد . وصارت الشعبة الثانية أكبر أثرا وأعم نفعا ، اذ ألقى فيها الأحاديث على عامة الناس بأسلوب يوافق عقليتهم ويثير مشاعرهم . ومن أمثلة ذلك قوله، يخاطب الفلاح

المصرى : « عجبت لك أيها الفلاح ، تشق الأرض بفأسك باحثا عن رزقك ، لماذا لا تشق بهذا الفأس صدور ظالميك » .

وغدا السيد جمال الدين الأفغانى فى مصر يمثل شعلة ذكية ، وقوة هائلة متحركة ، « لا يمسها ماس الا شحن من كهربائه على قدر استعداده ، دائم التفكير ، دائم القول لمن يفهم ومن لا يفهم ، دائم النقد ، دافع للحركة والثورة والهيجان فى المطالبة بالحقوق . حيثما حل رأيت نارا تشتعل وأفكارا تهيج ومطالب تطلب وحكومة تضطرب — قد حدّد غرضه فى الحياة ، ووهب نفسه للوصول اليه ، وهو انهاض الدول الاسلامية من ضعفها ، وتبصرة شعوبها بحقوقها ، ورفع نير الأجنبى عنها ، وتحديد مركز الحاكم والمحكوم فيها [1] » .

وفى ذلك الوقت التقى بزميله وخليفته فى الاصلاح ، وهو محمد عبده . اذ توسل جمال الدين فى سبيل تحقيق أهدافه السالفة الذكر بالعمل على تنوير عقول الخاصة من أبناء مصر حتى يعرفوا مركزهم ، ويعدهم لمهاجمة الغاصبين من الأجانب والمستبدين من الحكام . وشجع المثقفين من الشباب على خلق رأى عام فى البلاد يحثهم على كتابة المقالات فى الصحف والخطب فى المحافل . واكتشف بين جماعة الشباب الذين اتصلوا به محمد عبده الذى كان يدرس اذ ذاك بالأزهر ، وتوسم فيه الذكاء وحسن الاستعداد وطيب القلب والحماسة للاصلاح . فقرّبه منه ، ولا سيما ان

---

(١) أحمد أمين ، زعماء الاصلاح فى العصر الحديث ، ص ٢٩١ ، ٢٩٢

الطالب وجد فى أستاذه سعة العقل ، وصحة الارشاد والسمو فى النفس ونبل الغرض . ولم تلبث الثقة أن ربطت بين جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ، ودفعتهما للعمل سويا فى النهوض بمعهد الدراسات العليا بمصر ، لتخريج قادة من المصلحين وبناة الأجيال .

وكان من حسن حظ حركة الاصلاح الكبرى فى مصر أن وثقت الصلة بين هذين الأستاذين الجليلين . اذ لم تلبث الأحداث فى مصر أن حرمت هذه الحركة من رأسها المفكر ، وهو جمال الدين الأفغانى . فقد اشتدت الأزمة المالية فى مصر ، وصاحبها قوة الرأى العام المصرى الذى نادى بعزل اسماعيل ، ووضع حد للتدخل الأجنبى فى البلاد . وبدأ الاستعمار يتلون فى هذه المرحلة من كفاح الشعب المصرى ، وحث السلطات فى القسطنطينية على عزل اسماعيل ، وتولية ابنه توفيق عرش مصر . واستهل الخديو الجديد سياسته بخيانة كبرى لحركة الاصلاح فى البلاد ، على عكس ما توقعه الرأى العام المصرى منه . فأمر بنفى جمال الدين الأفغانى من البلاد ، وذلك بتحريض الاستعمار الذى رأى فى هذا المصلح الكبير خطرا يتهدده ، ويحول دون تحقيق أهدافه الآثمة فى البلاد .

واعتقد الخديو توفيق والاستعمار أن شعلة الاصلاح فى مصر سوف تنطفىء بعد خروج جمال الدين الأفغانى . ولكن خاب ظن أعداء البلاد ، لأن التلميذ الأول لجمال الدين ، والأمين على تعاليمه ما زال موجودا فى مصر ، ممثلا فى شخص محمد عبده .

وعبّر جمال الدين ، وهو يغادر مصر عن هذه الحقيقة قائلا : « مصر أحب بلاد الله اليّ ، وقد تركت لها الشيخ محمد عبده ، طودا فى العلم وعرمرما من الحكمة وعلو الهمم » . وتابع التلميذ نشاط الحركة التى بذر أستاذه بذورها فى مصر ، والتى كانت تنمو سريعا ، وتأخذ طابعا سياسيا واضحا لتخليص البلاد من نير الاستعمار والاستبداد . وتبلورت هذه الاتجاهات أخيرا فى الحركة العرابية التى قادها أحمد عرابى ضد الخديو وأعوانه من المستعمرين فى سبتمبر سنة ١٨٨١ . وانضم محمد عبده الى الثورة التى قادها عرابى ، وصار من الغلاة الداعين لها ، بعد أن رأى خديو مصر يكشف القناع سافرا عن خيانته للبلاد ، باستدعاء الأسطول البريطانى لحمايته . فأعلن محمد عبده سخطه على الخديو جهارا ، واتهمه بالخيانة ، وانغمس فى الدعوة الى الجهاد ومساعدة الحركة العرابية .

ولكن انتهت أحداث تلك الثورة العرابية بدخول الانجليز البلاد ، نتيجة خيانة الخديو ، ثم بدأت المحاكمات الجائرة لعرابى وأعوانه . وصدرت الأحكام على كثير من المصريين ، ومن بينهم محمد عبده بالنفى الى بيروت من أرض الشام . وجاء هذا النفى ، على غير ما توقع الاستعمار أيضا ، خيرا وبركة على بلاد الشرق العربى . اذ صار المصريون المنفيون بالشام ، ومن بينهم محمد عبده رسل حركة الاصلاح الكبرى الى هذا القطر العزيز من الوطن العربى ، وبناة قادة جدد من أبنائه .

ولم يلبث هذا المد الثورى أن اتصل فى الشام بفتى القلمون

« رشيد رضا » ، حيث أقام جماعة من المصريين المنفيين فى منزل والده بالقلمون . وكان رشيد رضا اذ ذاك قد بلغ الثامنة عشرة من عمره ، وصارت نفسه تتجه نحو الاصلاح ، وتدفعه الى النهوض بمواطنيه من قرية القلمون . وقد شغله الاتجاه الدينى أولا عن الاهتمام بالأحاديث السياسية التى رددها المصريون الذين أقاموا بالشام ، وانصرف الى الوعظ والارشاد ، والتوجه الى حياة التصوف والتنسك . ولكن لم يلبث رشيد رضا أن تنبّه الى هذا التيار الدافق الذى صار على مقربة منه حين هداه الاشتغال بالاصلاح الى البحث فى أسباب العلل والأمراض التى أصابت المسلمين ، ودفعت بهم الى أحضان الركود والتأخـر . اذ رأى ان الاصلاح لا يجدى نفعا دون دراسة الأمراض التى تصيب المجتمع ، وأن الاقتصار على قرية القلمون أو طرابلس لا يحقق له أغراضه ، لأن وطنه المحلّى ما هو الا عضو فى وطن كبير ، يتأثر بما يتأثر به الوطن الأكبر .

ومن ثم بدأ فتى القلمون يقترب رويدا رويدا من جماعات المصريين المقيمين فى منزل والده ، يستمع الى أحاديثهم ، ويتفهم مناقشاتهم . فعرف أخبار الثورة العرابية ورجالها وما انتهت اليه ، ولكن دون أن يدرى السبب الحقيقى لفشـلها . ودفعه حب الاستطلاع الى متابعة حركات ضيوف بلاده من المصريين ، لعله يجد عندهم ما يشفى غلته ، اذ أحس احساسا داخليا بأن هناك ارتباطا بين ما يبغيه لبلده من اصـلاح وبين ما يبغيه ضـيوفه المصريون لوطنهم من عزة كذلك . وسرعان ما وجد الهدى حين

دفعته أخبار الحركة العرابية الى ضرورة معرفة سـيرة كل من جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ، باعتبارهما القادة الفكريين لتلك الحركة ، والغارسين لبذورها .

وشاءت الأقدار أن يسمع رشيد رضا سيرة جمـال الدين الأفغانى ومحمد عبده ، وقد جمع الله بينهما مرة أخرى ، وهيأ لهما أسباب التعاون ثانية للنهوض بالعالمين الاسلامى والعربى . أما جمـال الدين الأفغانى فكان منـذ نفيه من مصر يقيم فى حيدر أباد بالهنـد ، تحت رقابة سلطات الاستعمار البريطانى هناك ، ولا يسمح له بمفارقتها . ولما قامت الثورة العرابية بمصر نقلته حكومة الاستعمار من حيدر أباد الى كلكتا ، وشـددت عليه المراقبة حتى انتهت تلك الثورة ، وعندئذ أباحت له مغادرة البلاد الى أى مكان غير بلاد الشرق العربى . فذهب جمال الدين الأفغانى الى فرنسا ، وكتب الى محمد عبده ، وكان اذا ذاك منفيا فى بيروت ليوافيه فى باريس .

وهكذا تلاقى الشقيقان بعدما ظن كل ظن أن لن يتلاقيا ، وبدآ يجددان الدراسة لاقالة العالم العربى من عثرته بسبب فشل الثورة العرابية . أما الشيخ محمد عبده فكاد يدب اليه اليـأس بعد أن خبر الناس فى الثورة العرابية ورأى غدرهم وعدم وفائهم ، وأشار على السيد جمال الدين أن يذهبا الى مكان بعيد غـير خاضع لسلطان دولة تعرقل سيرهما ، ثم ينشئان فيه مدرسـة للزعمـاء يختاران لها التلاميـذ من نجباء الناشئين من الأقطار الاسلامية ، ومن يتوسمان فيهم الخير ، ثم يربيانهم على منهج

قويم يختارانه ، ويعدانهم للزعامة والاصلاح . وبعد عشر سنين تخرج المدرسة عددا من التلاميذ المستعدين لترك أوطانهم والسير فى الأرض لنشر الاصلاح المطلوب .

ولكن هذا الرأى لم يعجب جمال الدين الأفغانى ، ورأى فيه خورا فى العزيمة ومبالغة فى التشاؤم ، وقال لمحمد عبده : « انما أنت مثبط » . ثم اتفقا على أن الحل السليم لتحقيق أهدافهم هو انشاء جريدة عربية فى باريس ، تنتشر فى العالم الاسلامى ، تفهمه حقوقه وواجباته وتشعل وطنيته . وأصدرا فعلا جريدة « العروة الوثقى » ، تولى فيها جمال الدين الأفغانى ابداء الأفكار والمعانى، وتولى محمد عبده التحرير فيها وصياغة المقالات . وكان وراء هذه المجلة أو الجريدة جمعيــة سرية منبثة فى جميع الأقطــار الاسلامية ، تم اختيار أعضائها من بين المسلمين المثقفين المتحمسين لدينهم . ووضع لهذه الجمعية السرية يمين يقسمها من يدخل فيها ويتعهد « بأن يطلب الوسائل لتقوية الاسلام عقلا وقدرة ، وأن يوسع معرفته بالعالم الاسلامى من كل نواحيه بقدر ما يستطيع » .

واتخــذت الجمعية السرية فروعا لها فى البلدان المختلفة ، يجتمع كل فرع منها لدراسة شئونه ، وفى آخر كل اجتمــاع يتبرع الأعضاء بشىء من المال فى صندوق صغير ، له ثقب ضيق يضع فيه كلٌ ما تيسر له خفية حتى لا يعلم من أدى أقل ومن دفع أكثر . وكان ينفق من هذا المال على جريدة العروة الوثقى والقائمين بها ، حيث كانت ترسل أكثر أعدادها بالمجان . ويحتمل أن والد رشيد رضا وكذلك الأستاذ الشيخ حسين الجسر كانوا

من أعضاء جمعية العروة الوثقى ، وممن ترسل اليهم جريدتها سرا ، وكذلك المصريون الذين نفوا بعد فشل الحركة العرابية الى بيروت . اذ التقى رشيد رضا بهذه الجريدة فجأة عند هذه الأطراف الثلاثة ، وبدأ بالتالى يدخل فى عهد جديد من حياته العلمية وكفاحه فى ميدان الاصلاح .

ووصف رشيد رضا فى أسلوب قوى مؤثر مراحل التقائه بالعروة الوثقى وأثرها فى نفسه قائلا : « اننى لا أزال أتذكر أنه كان بدارنا فى القلمون بجوار طرابلس الشام (فى سنة ١٣٠٣ هـ) ضيوف من المصريين المنفيين بسبب الحوادث العرابية ، فجاءت جريدة العروة الوثقى مساء . فأخذها الأستاذ الشيخ محمد عبد الجواد القاياتى المشهور ، وقد وضع بين يديه مصباح من مصابيح زيت البترول ، وأنشأ يقرؤها بصوت جهورى كأنه خطيب ، وانما كان يقف عند بعض الجمل ، ليعبر عما يخالجه من شعور العجب ، ولم يتركها حتى أتى على آخرها . ولم أكن فى ذلك الوقت أعنى بشىء من مثل هذا ، بل كانت تلك السنة هى السنة الثانية لاشتغالى بطلب العلم » .

ولم يلبث رشيد رضا أن عرف قيمة هذا الكنز الثمين الذى ألقت به المقادير الى قرية القلمون نفسها . فقال : « كنت مرة أبحث فى أوراق والدى العتيقة وأتصفح ما فيها من الجرائد المطوية ، فعثرت على أعداد من العروة الوثقى ، فطفقت أقرأها المرة بعد المرة ، وهى تفعل فى نفسى فعلها — تهدم وتبنى ، وتعد وتمنى ، وما كان وعدها الا حقا ، ولا تمنيها الا رجاء وأملا ، أحدثت

اصلاحا وعملا . فكانت هى أستاذى الثانى الذى أثر فى نفسى ، وأقيم عليه بناء عملى وأملى . وأما الأستاذ الأول فهو كتاب احياء العلوم للامام الغزالى الذى كان أول كتاب ملك عقلى وقلبى » .

« أنشأت بعد أن ظفرت بتلك الأعداد أبحث عن أخواتها فى طرابلس ، فكنت أجد عند الرجل العدد ، وعند الآخر العددين فأنسخ ما أجد . ثم علمت ان الشيخ حسينا الجسر احتواها كلها ، ومن عنده أتممت استنساخها . فكان كل عدد منها كسلك من الكهرباء اتصل بى فأحدث فى نفسى من الهزة والانفعال ، والحرارة والاشتعال ، ما قذف بى من طور الى طور ومن حال الى حال .. والذى علمته من نفسى بالخبر ومن غيرى بالخبر ومن التاريخ أنه لم يوجد لكلام عربى فى هذا العصر ولا فى قرون قبله بعض ما كان لها من اصابة موقع الوجدان من القلب والاقناع من العقل ، ولا حد للبلاغة الا هذا ..

« سمعت أستاذنا الشيخ حسينا الجسر ، عالم سورية الوحيد فى الجمع بين العلوم الاسلامية ومعرفة حال العصر السياسية يقول : ما كان أحد يشك فى أن جريدة العروة الوثقى ستحدث انقلابا عظيما فى العالم الاسلامى لو طال عليها الزمان .

« وسمعت محمد بك على المؤيد يقول كنت فى بغداد فى عهد صدور العروة الوثقى وكانت ترسل الى الزعيم العربى الأكبر فى العراق السيد سلمان الكيلانى نقيب السادة الأشراف . وكان يقول كلما جاء عدد منها يوشك أن تقع ثورة من تأثير هـذه الجريدة قبل أن يجىء العدد الذى بعد هذا » .

وصدر العـــدد الأول من جريدة العـــروة الوثقى فى ١٥ جمادى الأولى سنة ١٣٠١ هـ / ١٣ مارس ١٨٨٤ م ، ومنه عرف رشيد رضا أسباب اصدار هذه الجريدة ، ورسالتها فى سبيل النهوض بالعالمين الاسلامى والعربى ، والعمل على انقاذهما من براثن الاستعمار ، وخاصة بعد دخول الانجليز مصر بمساعدة الخديو توفيق وفشل الحركة العرابية . فجاء فى هذا العدد الأول ذلك العرض الرائع : « ان الرزايا الأخيرة التى حلت بأهم مواقع الشرق (أى احتلال انجلترا لمصر) جدّدت الروابط ، وقاربت بين الأقطار المتباعدة بحدودها ، المتصلة بجامعة الاعتقــاد بين ساكنيها ، فأيقظت أفكار العقلاء ، وحولت أنظارهم لما سيكون من عاقبة أمرهم ، مع ملاحظة العلل التى أدت بهم الى ما هم فيه ، فتقاربوا فى النظر ، وتواصلوا فى طلب الحق ، وعمدوا الى معالجة الحق وعلل الضعف ، راجين أن يسترجعوا بعض ما فقدوه من القوة ، ومؤملين أن تمهد لهم الحوادث سبيلا حسنا يسلكونه لوقاية الدين والشرف .. « تألفت عصبات خير من أولئك العقلاء لهذا المقصد الجليل فى عدة أقطار ، خصوصا البلاد الهنــدية والمصرية ، وطفقوا يتحسسون أسباب النجاح من كل وجهة ، ويوحدون كلمة الحق فى كل صــقع ، لا ينــون فى السعى ، ولا يقصرون فى الجهد ، ولو أفضى بهم ذلك الى أقصى ما يشفق منه حى على حياته ..

« ولما كان نيل الغاية على وجه أبعد من الخطر ، وأقرب الى الظفر ، يستدعى أن يكون للداعى فى كل قلب سليم نفثة حق ،

ودعوة صدق ، طلبوا عدة طرق لنشر أفكارهم ، بين من خفى عنه شأنهم من اخوانهم ، واختاروا أن يكون لهم فى هــذه الأيام جريدة بأشرف لسان عندهم ، وهو اللسان العربى ، وأن تكون فى مدينة حرة كمدينة باريس ليتمكنوا بواسطتها من بث آرائهم ، وتوصيل أصواتهم الى الأقطار القاصية ، تنبيها للغافل ، وتذكيرا للذاهل ، فرغبوا الى السيد جمال الدين الحسينى الأفغانى أن ينشىء تلك الجريدة ، بحيث تتبع مشربهم ، وتذهب مذهبهم ، فلبى رغبتهم ، بل أدى حقا واجبا عليه لدينه ووطنه ، وكلف الشيخ محمد عبده أن يكون رئيس تحريرها ، فكان ما حمل الأول على الاجابة حمل الثانى على الامتثال ، وعلى الله الاتكال فى جميع الأحوال » ..

« .. ومع كل هذا فهذه الجريدة تتبع سير الداعين اليها .. وترسل الى الذين نعرف أسماءهم مجانا بدون مقابل ليتداولها الأمير والحقير ، والغنى والفقير . ومن لم يصل الينا اسمه فما عليه الا أن يكتب الى ادارة الجريدة بالاسم المعروف به ، ومحل اقامته على النهج الذى يريده والله الموفق » .

وعرف رشيد رضا من متابعة قراءة سائر أعداد العروة الوثقى السبب الذى حمل هيئة تحرير تلك الجريدة على ارسالها بهذه الطريقة السرية . اذ وقف الاستعمار البريطانى للعروة الوثقى بالمرصاد ، منذ ترامى اليه نبأ الاعداد لها ، ثم صدورها . وشرح العدد الخامس من العروة الوثقى المؤرخ ٤ جمــادى الآخــرة ســنة ١٣٠١ هـ / ١٠ أبريل ســنة ١٧٨٤ ، أساليب سلطات

الاستعمار البريطانية للاطاحة بهذه الجريدة ، فى هذا النص التالى :

« عزمنا على انشاء جريدتنا هذه ، فعلم بذلك بعض محررى الجرائد الفرنساوية ، فكتبوا عنها قبل صدورها ، غير مبينين لمشربها ، ولا كاشفين عن حقيقة سيرها . فلما وقف على الخبر محررو الجرائد الانكليزية المهمة أخذتهم الحدة ، واحتدمت فيهم نار الحمية ، وأنذروا حكومتهم بما تؤثر هذه الجريدة فى سياسة الانجليز ونفوذها فى البلاد المشرقية . ولجوا فى اغرائها بها ، وألحوا عليها أن تعد كل وسيلة لمنع الجريدة عن الدخول فى البلاد الهندية والبلاد المصرية . بل تطرفوا فنصحوها أن تلزم الدولة العثمانية بالحجر عليها . كل هذا كان منهم قبل صدور أول عدد من جريدتنا وقبل أن يقف ولا واحد منهم على مذهبها السياسى ، مع أن هذه الجريدة لم تنشأ لاثارة الخواطر ، ولا لايقاد الفتن، وانما أنشئت للمدافعة عن حقوق الشرقيين عموما ، والمسلمين خصوصا ، وتنبيه أفكار بعض الغافلين منهم لما فيه خير لهم .

وزادت العروة الوثقى فى عددها التاسع الصادر فى ٢٥ رجب سنة ١٣٠٢ هـ / ٢٢ مايو فى فضح أساليب الاستعمار البريطانى ضدها ، وما قام به الانجليز فى مصر من الضغط على الحكومة لمنع تلك الجريدة من دخول البلاد . فجاء فيها : « انعقد مجلس النظار المصرى فى القاهرة واهتم بالبحث فى شأن العروة الوثقى ، ثم أصدر قراره الى نظارة الداخلية المصرية قاضيا عليها بأن تشتد

فى منع هذه الجريدة من دخول الأقطار المصرية ، وتراقب جولانها فى تلك الديار ، فصدر أمر الداخلية الى ادارة عموم البوسطة يلزمها الدقة فى ذلك ، وبلغنا ان الجريدة الرسمية بعد نشرها صورة الأوامر أعلنت أن كل من توجد عنده العروة الوثقى يغرم مبلغا من خمسة جنيهات مصرية الى خمسة وعشرين جنيها ..

« أما نحن فلا نظن أحدا من النظار المصريين له رأى اختيارى فى هذا القرار .. هذه جريدة قامت بالدفاع عن المصريين والاستنجاد لهم .. وعملها سكب مياه النصح على لهب الضغائن لتلاقى قلوب الشرقيين عموما على الصفاء والوداد . تلتمس من أبناء الأمم الشرقية أن يلقوا سلاح التنازع بينهم ويأخذوا حذرهم وأسلحتهم لدفع الضوارى التى فغرت أفواهها لالتهامهم ، ومن رأيها أن الاشتغال بداخل البيت انما يكون بعد الأمن من ظروف الناهب .

« هذا منهاج العروة الوثقى علمه كل مطلع على ما نشر فيها من يوم نشأتها الى الآن . فكيف يخطر ببال عاقل أن شرقيا مسلما أو غير مسلم يميل لحجبها عن دياره .. لا يحزنن أهل الحق القائمين بأمر هذه الجريدة على ما صدر عن الحكومة المصرية من منع العروة الوثقى عن دخول القطر المصرى ، وليعلموا أن الحكومة المصرية لا دخل لها فى هذا المنع ، فان حكومة شرقية لا تسمح لها غيرتها بمنع جريدة لا شىء منها سوى الدفاع عن الشرقيين ، وانما منشؤه حكومة انجلترا ، وشأنها معلوم عند كل عارف بأحوالها » .

ولكن الاستعمار البريطانى شدد الرقابة على وصول أعداد العروة الوثقى الى مصر والهند ، حتى استحال وصولها الى أصحابها الا فى القليل النادر . وأخيرا احتجبت بعد أن صدر منها ثمانيــة عشر عــددا ، كان آخرها بتــاريخ ٢٦ ذى الحجة سنة ١٣٠١ هـ / ١٧ اكتوبر سنة ١٨٨٤ م . وهذه الأعداد هى التى استنسخها رشيد رضا ، وصار يرجع اليها مرارا وتكرارا ، يستخرج من نماذجها ما يهديه سواء السبيل . وذكر أن أول شيء تأثر فيه بالعروة الوثقى هو اتجاهه الى اصلاح أسلوبه فى الكتابه . ذلك ان استاذه الشيخ حسين الجسر كان يكلفه بحفظ مقامات الحريرى ، دون أن يشعر بأى أثر لها فى نفسه .

وحدّث رشيد رضا أستاذه بما وصل اليه من معرفة ، وقال له أن أسلوب المقامات ليس أسلوبا عربيا فى التعبير عن المقاصد ، وانما هو أسلوب مصنوع ، جل فائدته حفظ الكثير من مفردات اللغة ، فمثلها كمثل من يبنى دارا فيجعل فوق بابها نقشا جميلا يعجب الناظرين برقة صــناعته فى نقشــه وألوانه ، ولا يمكن ولا يليق أن يجعل حجرات الدار ومرافقها بهذه الصفة » وبذلك عبر رشــيد رضا عن سقم الأساليب التى كان يتعلمها النشء فى دراسة اللغة العربية ، ورأى ان الأفضل الاهتمام بالمواضيع ذات المعانى التى تتصل بواقع الانسان وحياته . وقال : « والحق ان الروح الذى نفخته العروة الوثقى فى نفسى كان له أقوى الأثر فى أسلوب كتابتى فى موضوعات العروة الوثقى وغيرها » .

وجاء اتصال رشيد رضا بجريدة العروة الوثقى ، وافادته منها دليلا على أن أثرها لم يمت . فقد أحيت روح كثير من المتنورين فى العالم الشرقى وأيقظتهم من سباتهم ، وبصرتهم بسوء حالهم مع الاحتلال ، وعلمتهم كيف يكتبون ويخطبون ويدعون الى الشعور بالقومية . على أن أروع ما خلفته العروة من تراث هو أنها رسمت لزعماء الاصلاح الطريق السليم لتحقيق أهدافهم ، بعد أن كانوا يتخبطون فى عملهم ، ولا يعرفون لهم نهجا يسيرون عليه . وذكر رشيد رضا صراحة فضل العروة الوثقى عليه ، وأثرها فى سياسته فى ميدان الاصلاح قائلا :

« وأكبر أثرها عندى أنها هى التى وجهت نفسى للسعى فى الاصلاح الاسلامى العام بعد أن كنت لا أفكر الا فيمن بين يدىّ ، وأرى كل الواجب علىّ أن أظهر فى دروسى العقيدة الصحيحة والأخلاق الفاضلة ، وآمر بالمعروف وأنهى عن المنكر وأنفر من المعاصى وأنا لا أعلم سبب الفساد الذى فعل فى العقائد والأخلاق ما فعل ، ودفع المسلمين الى مزالق الزلل ، حتى هدتنى العروة الوثقى الى المناشىء والعلل » .

وجد رشيد رضا ضالته المنشودة فى العدد الأول من جريدة العروة الوثقى ، حيث رسمت له منهجا علميا للاصلاح ، وحددت معالمه فى ست نقاط رئيسية ، عرضتها على النحو التالى :

١ — شرحت واجبات الشرقيين ، وكيف ان التفريط فيها أدى الى ضعفهم وسقوط مجدهم ، ثم أوضحت لهم

الطرق التى يجب عليهم السير فيها لتدارك ما فات .

٢ — عمدت الى اشراب النفوس عقيدة الأمل فى النجاح ، وازالة ما حل بها من اليأس .

٣ — دعت الى التمسك بالأصول التى كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم ، وهى ما تمسكت به الدول الأجنبية التى صار لها القوة والمنعة .

٤ — هدمت فى ايمان وقوة التهم التى حاول الاستعمار لصقها بالشرقيين والمسلمين خاصة .

٥ — زودت الشرقيين بما يهمهم من حوادث السياسة العامة والخاصة .

٦ — أفاضت فى بيان أهمية تقوية الصلات بين الأمم الاسلامية وتمكين الألفة بين أفرادها .

ودرس رشيد رضا هذا المنهج دراسة دقيقة ، على نحو ما أوضحته الأعداد الأخرى من العروة الوثقى . فبعد أن كان حائرا لا يدرى كيف امتد الفساد الى العالمين الاسلامى والعربى ، عرف من مقالات العروة الوثقى أن الفساد دخل على توالى الزمن من خمسة أبواب : من عقيدة الجبر والخطأ فى فهم القضاء والقدر حتى صرفت النفوس عن الجد فى الأعمال ؛ ومما أدخله الزنادقة على تعاليم الاسلام فى القرنين الثالث والرابع ، فجعلوا المسلمين شيعا وأحزابا ، وأضعفوا قوة الدين بما أدخلوه من تعاليم فاسدة ، وما أحدثه السوفسطائية من أفكار وعدهم الحقائق خيالات تبدو للنظر ؛ وما عمله كذبة المحدثين من وضع أحاديث

ينسبونها الى رسول الله وفيها السم القاتل لروح العمل والاباء ، وفيها ما يستوجب ضعفا فى الهمـم وفتورا فى العزائم ؛ ومن ضعف التربية والتقصير فى ارشاد الجمهور الى أصول دينهم ونشر العلم بينهم .

ووجد رشيد رضا فى العروة الوثقى شرحا مستفيضا لهذه الأسباب التى أدت الى تفكك بلاد الشرق ، مع دراسة علميـة لدحض الاتهامات التى أساء الاستعمار استخدامها لتثبيط همم أهل تلك البلاد . ومن ذلك ما جاء فى العدد السابع من جريدة العروة الوثقى عن القضاء والقدر . فقد زعم الأوربيون أن عقيدة القضاء والقدر هى سبب ضعف المسلمين وتخلفهم عنهم فى العلوم والفنون . ولكن مقالة العروة الوثقى دحضت هـذه الفرية ، وأوضحت الفرق بين عقيدة القضاء والقدر وبين عقيدة الجبر ، وشرحت فى بلاغة وقوة أن الايمان بالقضاء والقدر هيأ للمسلمين أسباب الرفعة والعظمة .

وقالت الجريدة فى شرح هذه الناحية ما يلى : « الاعتقاد بالقضاء والقدر اذا تجرد عن شناعة الجبر يتبعة صفة الجراءة والأقدام ، وخلق الشجاعة والبسالة .. الذى يعتقد أن الأجل محدود ، والرزق مكفول ، والأشياء بيد الله يصرفها كيف يشاء ، كيف يرهب الموت فى الدفاع عن حقه واعلاء كلمة أمته أو ملته ، والقيام بما فرض الله عليه من ذلك ؟ وكيف يخشى الفقر من ينفق من ماله فى تعزيز الحق وتشييد المجد على حسب الأوامر الالهية وأصول الاجتماعات البشرية .. بهذا الاعتقاد (القضاء والقدر

عند المسلمين) لمعت سيوفهم بالمشرق ، وانقضت شــهبها على الحيارى فى هبوات الحروب من أهل المغرب ؛ وهو الذى حملهم على بذل أموالهم وجميع ما يملكون من رزق فى سبيل اعــلاء كلمتهم ، لا يخشون فقرا ولا يخافون فاقة .. .

« هذا الاعتقاد هو الذى سهل عليهم حمل أولادهم ونسائهم ومن يكون فى حجورهم الى ساحات القتال فى أقصى بلاد العالم كأنما يسيرون الى الحدائق والرياض ، وكأنهم أخذوا لأنفسهم بالتوكل على الله أمانا من كل غادرة ، وأحاطوها من الاعتماد عليه بحصن يصونهم من كل طارقة . وكان نساؤهم وأولادهم يتولون سقاية جيوشهم وخدمتها فيما تحتاج اليه ، لا يفترق النساء والأولاد عن الرجال والكهول الا بحمل السلاح ، ولا تأخذ النساء رهبة ، ولا تغشى الأولاد مهابة .

ووجد رشيد رضا فى العدد الثامن من العروة الوثقى ما فتح أمامه آفاق واســعة لمعرفة أثر الرذائل فى هدم الأمم ، وقوة الفضائل فى تدعيم الملك ونيل العظمة العلمية والعملية . فبعد أن كان يجاهد فى قرية القلمون لاصلاح أخلاق الناس دون أن يرسم لنفسه منهجا محددا رأى فى العروة الوثقى بحثا رائعا عن خطورة هذه الأمراض الاجتماعية ، هــداه الى الطــريق القويم . اذ عددت الجريدة الرذائل المهلكة للأمم ومنها الجبن والمهانة والفحش ، وقالت : « هذه الرذائل اذا فشت فى أمة نقضت بناءها ، ونثرت أعضاءها ، وبددتها شذر مذر . واستدعت بعد ذلك طبيعة الوجود الاجتماعى أن تسطو على هذه الأمــة

قوة أجنبية عنها لتأخذها بالقهر ، وتصرفها فى الأعمال بالقسر ..
أما الفضائل فى عالم الانسان فهى كالجذبة فى العالم الكبير .
فكما أن الجذبة العامة يحفظ بها نظام الكواكب والسيارات ، وبالتوازن فى الجاذبية ثبت كل كوكب فى مركزه وحفظت النسبة بينه وبين الكواكب الأخر ، وانتظم بها سيره بتقدير العزيز العليم ، حتى تمت حكمة الله فى وجود الأكوان وبقائها — كذلك شأن الفضائل فى الاجتماع الانسانى ، بها يحفظ الله الوجود الشخصى الى الأجل المحدود ، ويثبت البقاء النوعى الى أن يأتى أمر الله » .

واذا كانت العروة الوثقى قد أوضحت لرشيد رضا ما كان يظمأ الى معرفته من أسباب الفساد فانها رسمت له طرق الاصلاح ، والسبل التى يمكن للمصلح اجتيازها . فجاء فى العدد الثالث من العروة الوثقى مقال يرفع الروح المعنوية ، ويبعد اليأس عن القلوب ، فأشارت الى العلة والدواء على النحو التالى : « كيف يمكن جمع الكلمة بعد افتراقها ، وهى لم تفترق الا لأن كلا عكف على شأنه ؟ استغفر الله ! لو كان له شأن يعكف عليه لما انفصل عن أخيه وهو أشد أعضائه اتصالا به .. كيف تبعث الهمم بعد موتها — وما ماتت الا بعدما سكنت زمانا غير قصير الى ما ليس من معاليها ؟ هل من السهل رد التائه الى الصراط المستقيم — وهو يعتقد أن الفوز فى سلوك سواه ؟..

ثم زادت المقالات منهج الاصلاح تفصيلا ، موضحة أن العوارض التى أصابت بلاد الشرق يمكن أن تزول ، وأن العلماء

فى كل بلاد العالم الاسلامى هم رسل اعادة الروابط والتضامن وخلق الوحدة التى فككها الاستعمار ، وازالة الأفكار السيئة التى بثها المستعمر فى عقول الشرقيين . وأسهبت العروة الوثقى فى شرح الدور الذى يقوم به العلماء فى البلاد الاسلامية لأن الاستعمار عمد الى تثبيت دعائمه عن طريق نشر مدارسه الأجنبية ، وتخريجه فئة من الشرقيين يتشبهون بالأجانب دون فهم سليم لحقيقة أمرهم . فوصفت العروة الوثقى هذا التعليم الأجنبى بأنه « جدع لأنف الأمة يشوه وجهها ويحط بشأنها وما كان هذا الا لأن تلك العلوم وضعت فيهم على غير أساسها وفاجأتهم قبل أوانها » .

وهز هذا التشبيه رشيد رضا ، لأنه شاهد فى وطنه ببلاد الشام عددا كبيرا من المدارس الأجنبية ، ورأى وقوع نفر من مواطنيه فى أحابيلها . وذكرت له جريدة العروة الوثقى الدور الخطير الذى يقوم به أولئك المقلدون للأجانب ، وصورتهم تصويرا كان له أبعد الأثر فيما بعد فى منهجه الاصلاحى . فجاء فى تلك الجريدة : « علمتنا التجارب ، ونطقت مواضي الحوادث ، بأن المقلدين من كل أمة المنتحلين أطوار غيرها ، يكونون فيها منافذ وكوى لتطرق الأعداء اليها ، وتكون مداركهم مهابط الوساوس ، ومخازن الدسائس ، بل يكونون بما أفعمت أفئدتهم من تعظيم الذين قلدوهم ، واعتقاد من ليس على مثالهم ، شؤما على أبناء أمتهم ، يذلّونهم ويحقرون أمرهم ، ويستهينون بجميع أعمالهم . ويصير أولئك المقلدون طلائع لجيوش الغالبين ،

وأرباب الغارات ، يمهدون لهم السبيل ويفتحون الأبواب ، ثم يثبتون أقدامهم ، ويمكنون سلطتهم ، ذلك بأنهم لا يعلمون فضلا لغيرهم ولا يظنون أن قوة تغالب قواهم » .

واستفاد رشيد رضا فائدة كبرى من المقالات السياسية أيضا التى هاجمت فيها العروة الوثقى الاستعمار فى مصر ، وأدرك منها أن ميدان الاصلاح لا يتجزأ ، وأن المصلح فى بلاد الشرق العربى يجب أن تكون نظرته الأمور شاملة لوطنه الكبير. ومن ذلك ما جاء فى العدد الثانى من العروة الوثقى عن خطورة الاحتـلال البريطانى لمصر عقب ثورة عرابى ، فقالت الجريدة : « يهم المسلمين فى كل أرض ما يجـرى فى مصر ، بل تذهب نفوسهم حسرات كلما رأوا أو سمعوا أن جنديا أجنبيا يجول فى نواحيها مقاتلا أو حاميا . وليس شأن مصر عندهم كغيرها من البلاد فانها بهرة الاسلام وباب الحرمين الشريفين ، فكل نازلة بها ترزأ الدين وتصدع من أركانه » .

واستوعب رشيد رضا كذلك دعوة العروة الوثقى الى حث الشرقيين على التضامن ، وندائها للدولة العثمانية باعتبارها حامية المسلمين أن تنهض للدفاع عن مصر والعالم الاسلامى ضـد الخطر البريطانى . فقد كتبت تلك الجريدة عدة مقالات فى هذا الموضوع صارت الأساس الذى أقام عليه رشيد رضا سياسـته فيما بعد تجاه العثمانيين . ومن ذلك ما نادت به العروة الوثقى : « انا نقول ، كما يهتف به كل مسـلم انه من فروض الدولة العثمانية أن لا تدع وسيلة للذود عن مصر ، وكف يد الانجليز

عنهـا ، وأن تكون همتها فى ذلك كهمتها فى الذود عن نفس الاستانة . وليس لها أن ترهب هذه الوعود وتلك البروق التى لا تعقب مطرا ، ومن الحق أن تقول ان فى مكنة العثمانيين أن يقوضوا هذا البيت البلورى « بيت العظمة الانكليزية » بحجر واحـد ..

« فهذه دولة الانكليز كمرض الآكلة يظهـر أثـره ضعيفا لا يحس به عند بدئه ، ثم يذهب فى البدن فيفسده ويبليه دون أن يشعر المصاب بالألم . هكذا شأن الانجليز فى لينهم وتلطفهم وحلاوة وعودهم وتملقهم وخضوعهم ، يسلبون المالك ملكه ، بل الحى حياته ، وهو مأخوذ بما يشعوذون له . ولا ريب ان الاهانة التى تمس الدولة العثمانية تنال جميع المسلمين فى الشرق والغرب، فان كل مسلم وله الحق يعد هذه الدولة دولته ، ولو تباعدت الأقطار » .

وهـذه السياسة التى رسمتها العروة الوثقى تجاه الدولة العثمانية هى نفس السياسة التى اتخذها رشيد رضا فى كفاحه من أجل العالمين الاسلامى والعربى ، ثم أضاف اليها تجاربه الخاصة فيما بعد . والأمر الهام هنا هو أن نفس هذا الشاب المصلح بدأت تتطلع الى آفاق جديدة واسعة بعد أن كان أفقه ضيقا ، قاصرا على قريته القلمون . وكان من حسن طالع رشيد رضا أن ينظر الى هـذه الآفاق الشاسعة من منظار العـروة الوثقى ، اذ ثبتت فى نفسه الثقة بالنفس واحتقار القوة المـادية التى أخافت بها بريطانيا بلاد الشرق .

وشرحت العـروة الوثقى فى العدد السابع عشر للشـاب الموهوب الأخطاء التى وقع فيها مواطنوه نتيجة الوهم الذى سيطر عليهم عن قوة الانجليز . فقالت : « ألا قاتل الله الوهم ، الوهم طورا يكون مرآة المزعجات ، ومجلى المفزعات ، وطورا يكون ممثلا للمسرات ، حاكيا للمنعشات . وهو فى جميـع أطواره حجـاب الحقيقة ، وغشاء على عين البصيرة ، لكن له سلطان على الارادة ، وحكم على العزيمة ، فهو مجلبة الشر ومنفاة الخير .. الوهم يمثل الضعيف قويا ، والقريب بعيدا ، والمأمن مخافة ، والموئل مهلكا .. الوهم روح خبيث يلابس النفس الانسانية وهى فى ظلام الجهل ، اذا خفيت الحقـائق تحكمت الأوهام ، وتسلطت على الارادات ، فتقود الواهمين الى بيداء الضـلالة ، فيتخبطون فى مجاهيل لا يهتدون الى سبيل ، ولا يستقيمون على طريق .

« كان الانكليز أمة مجتمعة القوى ، مستكملة العـدد ، مستعدة للفتوحات ، وذلك فى زمان بليت فيه الأمم الشرقية بتفوق الكلمة واختلاف الأهواء ، وحجبت بالجهل عن معرفة أحوال الغربيين وصنائعهم وعوائدهم ، فكان الشرقيون يعدون كل غريبة معجزة ، وكل بديع من الاختراع سحرا أو كرامة . فانتهز الانجليز تلك الفرصـة واندفعوا الى الشرق وبسـطوا سلطتهم مع غالب أرجائه ..

« ومع هذا كله نرى الأمر لم يزل خافيا على الشرقيين ، محجوبا عنهم بحجاب الوهم . يمثـل الوهم لكل شرقى أن

الانكليز على ما كانوا عليه فى ماضى زمانهم . فمثل الشرقيين مع الانكليز كمثل مارٍّ فى مفازة يرى بها جثة أسد مطروحة عـلى طريقه فاقدة الحياة عديمة الحراك فيتوهمها سبعا ضاريا ومفترسا قويا فينكب عن الطريق وهما وريبة بدون تحقيق لما تخوف منه ، يرتعد ويسقط ويموت خوفا ، أو يضل بعد ذلك عن الجادة ، وتشتبه عليه مسالك الوصول الى غايته ، وربما صادف مهلكة فى ضلاله ومتلفة فى غيه ..

وأخذ رشيد رضا يدفع عن نفسه حجب الوهم ، ويتطلع بعد قراءة هذه المقالات الرائعة ، ودراسة منهجها السليم الى الاتصال بينابيعها الأصيلة ، بكل من جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده . اذ رأى أن يسلك هذا الطريق لأنه السبيل الوحيد للوصـول الى الحقيقة فى ميدان الاصلاح عن طمأنينة وسلام .

الفصل الخامس

البحث عن الحقيقة

مع رئيس تحرير العروة الوثقى

فتحت العروة الوثقى أمام رشيد رضا آفاقا واسعة لم يكن يعرف عنها شيئا ، ودفعت به الى الطريق الطويل الذى سلكه كبار المصلحين وقادة التحرير . فكانت قراءته لأعداد هذه الجريدة أشبه بعصى سحرية ، نقلته من الأفق الضيق فى قريته بالقلمون الى الوطن الشاسع الأرجاء بدار العروبة والاسلام . ومن حسن طالع رشيد رضا أنه درس منهج العروة الوثقى وهو فى دور الشباب ، دور الطهر ، وحيث يستجيب فيه القلب لما يصدر عن القلب ، وحيث تصد الآذان ما يصدر عن اللسان . لقد كانت العروة الوثقى تخاطب قراءها حديث القلب للقلب ، ولا تعرف زخرفا فى القول أو زيفا فى التعبير . ولذا تجاوب رشيد رضا مع نداء كل عدد من أعداد هذه الجريدة فى سرعة غريبة ، كانت كما أحس بها ، كسلك من الكهرباء اتصل به فأحدث فى نفسه من الهزة والانفعال والحرارة والاشتعال ما نقله من حال الى حال .

وجاء انتقال رشيد رضا من ميدان الاصلاح المحلى الى

ميدان الاصلاح العام قفزة هائلة استطاع أن يجتازها فى سلام ، بفضل تكراره المستمر لما درسه من منهج العروة الوثقى . اذ كان يرى وهو فى قريته أن الاصلاح ما هو الا وعظ وارشاد ، وأن الوسيلة المثلى للحياة هو الزهد فيها وفى مطالبها ، والانصراف كلية للعمل للآخرة . أما العروة الوثقى ، فعلمته ألا ينسى نصيبه من الدنيا ، ويعمل لها ، كما يعمل لآخرته .وقال رشيد رضا فى مذكراته عن هذا التطور فى حياته ، « فانتقلت بذلك الى طريق جديد فى فهم الدين الاسلامى ، وهو أنه ليس روحانيا أخرويا فقط ، بل هو دين روحانى جسمانى ، أخروى دنيوى ، من مقاصده هداية الانسان الى السيادة فى الأرض بالحق ، ليكون خليفة الله فى تقرير المحبة والعدل » .

« وأحدث لى هذا الفهم الجديد فى الاسلام رأيا فوق الذى كنت أراه فى ارشاد المسلمين . فقد كان همى قبل ذلك محصورا فى تصحيح عقائد المسلمين ونهيهم عن المحرمات ، وحثهم على الطاعات وتزهيدهم فى الدنيا . وكنت مجدا فى ذلك حيث كنت ، حتى اذا ما أردت ترويح النفس فى بعض قرى الكور (من لبنان) أخذت معى مثل كتاب (الزواجر عن اقتراف الكبائر) لأتوكأ عليه فى المواعظ التى كنت أبثها فى كل مجلس . فتعلقت نفسى بعد ذلك بوجوب ارشاد المسلمين عامة الى المدنية والمحافظة على ملكهم ومباراة الأمم العزيزة فى العلوم والفنون والصناعات وجميع مقومات الحياة . فطفقت أستعد لذلك استعدادا » .

ورأى رشيد رضا أن هذا الاستعداد يتطلب منه الاتصال

بالينابيع التى غذّت العروة الوثقى بهذه الآراء القيمة ، وينهل من هذه الموارد العذبة ، بعد أن وقف صدور جريدتهم . فأخذ يسأل عن قطبى الرحا للعروة الوثقى ، وهما جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ، ويعمل جاهدا على الاتصال بهما ومعرفة الحقيقة الكاملة منهما . وتهيأت الفرص أمامه لتحقيق أمنيته . ذلك ان رئيس تحرير العروة الوثقى ، وهو محمد عبده ، جاء الى بيروت مرة أخرى بعد اغلاق الجريدة ، وقرر الاقامة بها ، على حين ذهب جمال الدين الأفغانى الى فارس بدعوة من الشاه .

وبذلك صار على مقربة من رشيد رضا أحد الينابيع الدافقة التى غذت العروة الوثقى بما هزه من مقالات وآراء . اذ طالت مدة بقاء محمد عبده فى بيروت لأن حكم النفى الصادر عليه لم ينته بعد ، فضلا عن أن الخديو توفيق عارض فى عودة هذا الزعيم الكبير بعد انتهاء فترة النفى نفسها . فقد سبق لمحمد عبده أن صرح لأحد محررى الصحف البريطانية عن هذا الخديو بقوله : « ان توفيق باشا أساء الينا أكبر اساءة لأنه مهد لدخولكم بلادنا ورجل مثله انضم الى أعدائنا أيام الحرب — لا يمكن أن نشعر نحوه بأدنى احترام » ولذا أقام محمد عبده فى بيروت مدة بلغت حوالى خمس سنوات ، وقضى الوقت فى متابعة الاصلاح هناك .

وكان رشيد رضا يطلب العلم اذ ذاك فى طرابلس عندما ترامت اليه أنباء عودة محمد عبده الى بيروت ، وتوليه مهمة التدريس بالمدرسة السلطانية هناك . وتواترت الأخبار على رشيد رضا

بما جعله يكبر هذا الأستاذ الجليل ، ويتابع أعماله فى شوق وعناية . اذ اتجه محمد عبده فى هذه المرحلة من جهاده الى الاصلاح العقلى والدينى ، فاشتغل بالتأليف والتعليم ، وشرح نهج البلاغة ومقامات بديع الزمان متخذا رسالة المعلم الواسع الثقافة والادراك . وتجنب محمد عبده الاشتغال بالسياسة حتى لا يثير عليه السلطات العثمانية الحاكمة فى الشام ، ولكن وجد فى دروس تفسير القرآن سبيلا للتنفيس عما يجيش به صدره من مطامح وآمال . اذ اتخذ من شرح بعض الآيات القرآنية وسيلة للاستطراد ونقد أحوال المسلمين حسبما تلهمه الآية .

وتابع رشيد رضا هذه المجهودات بعين ملؤها الرضى ، وخاصة أن محمد عبده استطاع أن يرفع مستوى المدرسة السلطانية باصلاح برامجها ونقلها الى درجة أعلى مما كانت عليه . غير ان الظروف لم تسمح لرشيد رضا اذ ذاك بالانتقال الى المدرسة السلطانية فى بيروت وتلقى العلم مباشرة على يد محمد عبده ، واكتفى بما تيسر له من استقصاء أخبار محمد عبده وسيرته فى بيروت . ولم تلبث الأحداث أن أتاحت للطالب الشاب ، ابن القلمون أن يلتقى برئيس تحرير العروة الوثقى ، فى مدينة طرابلس . اذ جاء محمد عبده الى هذه المدينة لزيارة أحد أساتذة المدرسة الخاتونية ، وهو الشيخ عبد الله البركة ، وهو أحد العلماء الذين تخرجوا من الأزهر ، وسبق أن عرفه محمد عبده .

وتصادف وجود رشيد رضا بالمدرسة الخاتونية ، على حين كان الشيخ عبد الله البركة غائبا . ولذا شارك رشيد زملاءه فى

الحفاوة بالضيف الجليل ، وقدموا له الشراب المثلج ، وأحاطوا به يسألونه كل عما تطلع اليه من ألوان المعرفة . وتجاوب محمد عبده مع هذه الروح الوثابة التى أظهرها الطلبة ، وأخذ يستفسر منهم عن أحوالهم ، وسجّل رشيد رضا فى مذكراته أثر هــذه الزيارة فى نفسه ، وما تحدث فيه مع هذا الأستاذ الجليل قائلا :

« وطفق يسألنا (محمد عبده) عن طلب العلم وأساليب التدريس للعلوم التى تدرس عندنا . وتوليت اجابته دون رفيقى . ومما سألنا عنه تفسير القرآن ، هل يدرس للطلبة ؟ قلت لا وانما يقرؤه رجل واحد للعوام ، ويعنى فيه بالقصص الاسرائيلية والخرافات الصوفية ، اذ يقرأ تفسير روح البيان لاسماعيل حقى الصوفى .

« وسألته أى التفاسير أنفع لطلبة العلم ؟ قال الكشاف . قلت ولكن فيه كثيرا من نزعات الاعتزال . قال تلك مسائل معروفة ، لا تخفى على طالب التفسير الواقف على أقوال الفرق ومذاهب السنة فيها ، وانما فضّلته لدقته فى تحديد المعانى ، ونكت البلاغة بالعبارة الدقيقة المختصرة . ثم قلت له ، أما علم الأخلاق فقد اندرس ، فليس له طالب ولا مدرس . قال نعم واندرس معه الدين . فأكبرت هذا الجواب ، وكبر شأن الرجل فى نفسى ، لأننى كنت شديد العناية بكتب الأخلاق ولا سيما احياء العلوم » .

وظل رشيد رضا يعوّض العجز عن الدراسة مباشرة على يد محمد عبده عن طريق متابعة نشاطه العلمى . ومن أهم الأعمال التى قام بها هذا الأستاذ الجليل ، والتى استفاد منها رشيد فائدة كبرى هى ترجمة « رسالة الرد على مذهب الدهريين » التى

ألفها جمال الدين الأفغانى بالفارسية . اذ استعان محمد عبده فى الترجمة بشخصية تجيد الفارسية ، وأتاح لهذه الرسالة القيمة أن تنتشر بين الأوساط العلمية . وترجع أهمية هذه الرسالة الى أنها تضمنت آراء السيد جمال الدين الأفغانى فى الدين الاسلامى ، واحتوت على كثير من المبادىء التى تناولها بالتفصيل والشرح فى أعداد العروة الوثقى .

وجد رشـيد رضا فى رسـالة الرد على الدهريين مواضيع وضّحت له ما سبق أن قرأه من مقالات العروة الوثقى ، وأضافت الى ما اكتسبه فى ميدان الاصلاح خبرات زادته ايمانا بدور الدين فى النهوض بالبشرية . فلم يعد رشيد رضا يرى فى الدين مجرد وعظ وارشاد ، وانما عرف أن الدين — كما ذكر جمال الدين الأفغانى فى رسالته — أكسب عقول البشر ثلاث عقائد ، وأودع نفوسهم ثلاث خصال ، كل منها ركن لوجود الأمم وعماد لبناء الهيئة الاجتماعية . أما العقيدة الأولى فهى التصديق بأن الانسان ملك أرضى ، وأنه أشرف المخلوقات . والعقيدة الثانية ، يقين كل ذى دين أن أمته أشرف الأمم ، والثالثة ان الدين يؤكد أن الانسان ورد هذه الدنيا لتحصيل كمال يهيئه للعروج الى عالم أرفع وأوسع من هذا العالم الدنيوى . أما الخصال الثلاث فهى : الحياء والأمانة والصدق . وبعد ذلك تناولت الرسالة بيان المزايا التى انفرد بها الاسلام على سائر الأديان ، وكيف أنها تمثل الأساس السليم للمدنية والسعادة الانسانية .

ومن ثم بدأت مدركات رشيد رضا تنمو نموا سريعا ، وهو

يخطو نحو ميدان الاصلاح العام ، بشكل لم يتح لغيره من المصلحين . اذ رأى فى النشاط العلمى الذى خلقه محمد عبده فى بيروت كنزا ثمينا ساعده على أن يعرف حقيقة الاصلاح وما هى الواجبات الأساسية التى يجب أن ينهض بها كل من يتصدى لهذا الميدان . وتجنب المصلح الشاب بذلك العثرات التى تردى فيها كثيرون ممن خرجوا لهداية مواطنيهم ، لأنه عرف كيف يستفيد من التجارب التى وصل اليها رئيس تحرير العروة الوثقى ، بعد أن عاد الى بيروت ، وجعلَ نتاجها نبراسا يضىء له معالم الريق .

وكان رشيد رضا قد أخذ يكتب فى الصحف بعد أن تقدم فى مراحل التعليم بتشجيع أساتذته . واشتهرت مقالاته — نتيجة دراسة للعروة الوثقى وأعمال محمد عبده فى بيروت — بالقوة فى المعنى والأسلوب ، وصار الناس يقبلون عليها فى شغف واهتمام . وأشار رشيد رضا الى نشاطه فى هذا الميدان قائلا فى مذكراته : « ولما أنشئت جريدة طرابلس ، برأى شيخنا الجسر ونظره ، وكان هو رئيس تحريرها غير الرسمى ، رغّبنا بأن ننشىء مقالات ينشرها لنا فيها ، نتمرن بها على الانشاء العصرى ، وخصنى بالذكر . فكتبت مقالا فى فلسفة الأخلاق ، نشره فى أعداد متفرقة ، ولقبنى عند ذكر اسمى فى عنوانه « بالأديب الأريب » . ولكن كان من تأثير المقال أن فضّله الناس على كل ما ينشر فى الجريدة لغة وموضوعا ، وانتقدوا عليه تفريق المقال ، وعدم اعطائى لقب عالم » .

وظلت مكانة رشيد رضا تعلو عند مواطنيه ، بسبب معالجة

المواضيع الاجتماعية ، ومتابعته لمجهودات الأستاذ محمد عبده . فعلى الرغم من عودة هذا الأستاذ الى وطنه مصر بعد أن عفا عنه الخديو توفيق ، دأب رشيد رضا على تلمس أخباره ، والاشادة بها فى كل مكان . وكانت الحماسة قد بلغت أقصاها عند رشيد رضا فى تشيعه لأعمال جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ، حتى اشتهر بذلك عنــد مواطنيه . ولم يجرؤ انسان على ذكر هذين العالمين الكبيرين بسوء أمام رشيد رضا ، خوفا من دفاعه عنهما ، وعدم قبوله ذكر أى شيء فيه اسفاف بمكانتهما .

ولم يلبث رشيد رضــا أن التقى بمحمد عبــده مرة ثانية سنة ١٣١٢ هـ / ١٨٩٤ م ، وجدّد الافادة من علمه وفضله . اذ جاء محمد عبده فى هذا العام الى سورية مصطافا ، وكان يصحبه أحمد فتحى زغلول ، وهو من خواص مريديه ، ورئيس نيــابة الاسكندرية اذ ذاك . ثم دعا كبار رجال طرابلس محمد عبده الى ولائم عديدة احتفاء به ، أقاموا له فى خارج المدينة . أما رشيد رضا فقد استبد به الشوق لمقابلة محمد عبده ، وسجل فى تفصيل ممتع مشاعره قائلا فى مذكراته :

« وكنت فى طرابلس أتنسّم أخبار عودته كل يوم . فوصل اليها ليلا ، ونزل فى دار صديقه الأستاذ عبــد العزيز أفنــدى سلطان ، الذى كان مدرسا للقانون فى المدرسة السلطانية ببيروت أيام كان الأستاذ مدرسا فيها . ذهبت فى الصباح لزيارته فقيل لى انه ذهب الى حمام عز الدين ، فجئت الحمام وانتظرت فى محل الجلوس الخارجى ريثما يخرج . وكان فى انتظاره بعض العلماء .

فخرج قبله أحمد فتحى بك زغلول ، فعرّفه بى الأستاذ الشيخ خير الدين الميقاتى ، وذكر له حبى للأستاذ وللسيد جمال الدين وتشيعى بهما . وكان مما قاله انه أبلغ كاتب عندنا ولا يعدله أستاذ فى الانشاء الا الشيخ محمد عبده ، وهو لم يلقه .. ثم خرج الأستاذ فسلمت عليه ، وقد تذكر تلاقينا تلك السويعة منذ بضع سنين . وكنت ألازمه مدة وجوده فى طرابلس من أول النهار الى وقت النوم » .

وحرص رشيد رضا على أن يشترك فى المناقشات التى دارت بين الأستاذ محمد عبده وكبار رجالات الشام . ولم يستطع أن يخفى اعجابه بالعروة الوثقى وما أفاده منها . من ذلك أنه جرى فى احدى المناقشات ذكر الشيخ أحمد فارس الشدياق ، وأشاد محمد عبده بمكانته فى اللغة والانشاء . فقال رشيد رضا له : أين هو من أسلوب العروة الوثقى الرفيع ، ووضعكم لفرائد اللغة الطريفة فى مواضيعها منها ؟ . فقال محمد عبده ؛ تلك ألفاظ نديرها ، أما الشيخ أحمد فارس ، فهو امام اللغة ، وأما أسلوبه فى الكتابة فغريب ، قلما فطن له الأدباء . وهنا زاد اعجاب رشيد رضا بمحمد عبده ، وأكبر تواضعه وتفضيله فارس الشدياق عليه ، برغم مكانته الفريدة فى ميدان الأدب والتحرير .

وانتهز رشيد رضا هذه الزيارة التى قام بها محمد عبده الى سورية ، وأخذ يسأله فى مواضيع شتى ، مما دار فى نفسه ، ولم يعرف لها جوابا . ووجد ضالته دائما عند هذا الأستاذ الجليل ، الذى استولى على مشاعر الحاضرين ، فكان لا يملّ

الكلام ، حتى صار سبعة أعشار الحديث له أو أكثر . وقد سأل رشيد رضا محمد عبده اذ ذاك عن رأيه فى اسلام مسلمى ليفربول من بلاد انجلترا ، أهو اسلام صحيح أم سياسى ؟ فأجابه محمد عبده : السياسة لا تأتى من العامة ، وهؤلاء من العامة .

وظلت زيارة محمد عبده لسوريا خيرا وبركة على رشيد رضا ، اذ جدد اتصاله بهذا الأستاذ الجليل على نطاق واسع ، وتدارس معه الكثير من المواضيع التى تطلبت منه بحثا وخبرة . وتعلقت نفس رشيد رضا بمحمد عبده تعلقا أكبر عن ذى قبل ، وزاد ايمانه به ، وبقدرته على أنه خير من يخلف السيد جمال الدين الأفغانى فى ميدان الاصلاح ، وايقاظ الشرق من سباته . ولم ينس محمد عبده مريده الجديد فى أرض سورية ، ودأب على السؤال عنه فى جميع المكاتبات التى أرسلها بعد عودته الى مصر لكل أصدقائه بالشام . وأصبح رشيد رضا على اتصال وثيق برئيس تحرير العروة الوثقى ، وبالتالى على أهبة الانطلاق العظيم فى ميدان الاصلاح .

وعجل بهذا الانطلاق محاولة رشيد رضا الاتصال أيضا بينبوع الأفكار فى جريدة العروة الوثقى ، وهو جمال الدين الأفغانى . وكان موقظ الشرق قد أخذ يطوف — بعد أن عاد محمد عبده الى بيروت — فى بعض بلاد العالم الاسلامى والأوربى أيضا . فذهب الى فارس ، بدعوة من الشاه ، ثم اتجه الى الروسيا وأقام فيها ثلاث سنين . ثم عاد الى فارس حيث اختلف مع الشاه ، وخرج الى أوربا حيث اتصل به السلطان

عبد الحميد العثمانى الذى دعاه الى الآستانة والاقامة فيها ، ولبّى جمال الدين هذا النداء .

عاشق جمال الدين

اتجهت أنظار رشيد رضا نحو الآستانة ، وهو يبحث عن أخبار جمال الدين الأفغانى ، مستهدفا الاتصال بهذه الشخصية ، واكمال الصورة التى سبق أن حصل عليها من محمد عبده عن دعوة الاصلاح الكبرى التى أسهم فيها هذان المصلحان الكبيران . ذلك أن السلطان عبد الحميـد العثمانى استطاع أن يستدرج جمال الدين الأفغانى الى الآستانة ، معللا له القول بأنه يهدف الى نفس ما يرمى اليه من اعادة مجد الاسلام واحيـاء خلافة المسلمين . واستخدم السلطان فى تحقيق هذا الغرض كبير دهاة الدولة ، وهو أبو الهدى الصيادى ، الذى اقترن اسمه باسم السلطان عبد الحميد فى القدرة على الدس والتحايل وحبـك المؤامرات . وجاء جمال الدين الأفغانى الى الآستانة سنة ١٣١٠هـ / ١٨٩٢ م ، وهو يعلق الآمال الكبار على تحقيق آرائه من هذا المكان ، الذى اشتهر بين العالم بزعامته للمسلمين .

ولكن سرعان ما أحس جمال الدين الأفغانى أنه أصبح فى قفص من ذهب ، ينال ما يريد من حفـاوة وتكريم دون تلبية رسالته الأولى وهى اصلاح الاسلام والمسلمين . ثم زاد مركز هذا المصلح الكبير سوءا حين انقلب عليه أبو الهدى الصيادى ، وأخذ يدس له عند السلطان ، وتطور الأمر بينهما الى الغمز

واللمز . فأبو الهدى الصيادى يصف جمال الدين بالمازندرانى ، للنيل من شهرته وأنه ليس من أصل عربى عريق ، وجمال الدين يصف أبا الهدى بالبغل المزركش ، للحط من شأنه فى الدولة . وبلغت هذه الأخبار جميعها مسامع رشيد رضا ، حيث وهب نفسه وهو فى طرابلس لجمع كل شاردة وواردة عن هذا الأستاذ الكبير وتلميذه محمد عبده .

ولم يلبث رشيد رضا أن وجد سبيلا للاتصال بجمال الدين الأفغانى فى نفس السنة التى دخل فيها هذا المصلح الكبير قفصه الذهبى فى الآستانة . ذلك ان أحد أصدقاء رشيد رضا المخلصين ، وهو عبد القادر المغربى ، والذى شاركه فى التعلق بالسيد الأفغانى وتتبع أخباره وتدوين آثاره عزم على زيارة الآستانة سنة ١٣١٠ هـ / ١٨٩٢ م . ووصف السيد عبد القادر المغربى شدة انفعال رشيد رضا حين علم بنبأ سفره قائلا : وكان أول ما أوصانى به أن أقصد الى السيد الأفغانى وأبلغه تحيته واخلاصه فى حبه ، وأن أكتب اليه بكل ما أرى وأسمع من أحواله وأطواره .

ولما وصل السيد عبد القادر المغربى الى الآستانة لم يستطع مقابلة جمال الدين الأفغانى مباشرة ، وكتب الى رشيد رضا يخبره بذلك . وبادر رشيد بارسال خطاب الى صديقه بالآستانة ، يؤكد فيه ضرورة مقابلة جمال الدين والاسراع بذكر أحواله . وذكر رشيد فى هذا الخطاب الذى بعث به وصفا لرحلة قام بها من القلمون الى بيروت بأسلوب بليغ ، لتكون مادة يتحدث بها صديقه الى جمال الدين الأفغانى اذا سأله عن وطنه . فقال :

« اذا أسعدكم البخت أو أكسبكم السعى التشرف بلقاء حكيم الوقت السيد جمال الدين فانه ربما يسألكم عن سورية ولبنان ، لا عن أوربا أو بلاد الروم . واذا سأل فهو يسأل عن الفتيل والنقير والقطمير » .

وقال رشيد رضا فى آخر كتابه : « اعتذرتم عن تأخير المكاتيب بانتظار الاجتماع بهذا الرجل العظيم (يريد السيد الأفغانى) لتخبرونا عما تشاهدونه منه ، وما تقفون عليه من شأنه ، لما تعلمون له عندنا من المكانة التى لم يحلها من الناس أحد سواه . فنعم الاعتذار وحبذا الشفيع . ونرجو الآن أن تكونوا اجتمعتم به ، وصرتم من المحسوبين عليه ، وأنكم توافونا قريبا بما يشرح الصدر من أخباره ، ويقر العين من آثاره . ولا نشك بأنكم اذا صار لكم مع سيادته لسان ينطق تخبرونه عن أخيكم بأنه مستغرق فى حبه ، راج للسعادة بقربه . له لسان لا ينفك يهتف بالثناء عليه ، ويتمنى أن يتمثل للخدمة بين يديه ، حيث تعرفون ذلك منا حق المعرفة . ولا أراك تذهل عن افادتى : هل يمكن لأمثالنا ملازمته ان جئنا الآستانة أم لا ؟ .

وكان السيد عبد القادر المغربى قد قابل جمال الدين الأفغانى قبل مجىء خطاب رشيد رضا السالف الذكر . وشرح لهـذا الأستاذ الجليل حب صديقه له ، وكيف أنهما يعملان سويا على بث مبادئه وتعاليمه . فبارك جمال الدين عملهما ، ودعا لهما . وكتب بذلك الأستاذ عبد القادر المغربى لرشيد رضا ، الذى بادر بارسال هذا الخطاب الى صديقه بالآستانة : « لقد ألقى الىّ

كتابكم الكريم ، وأول ما أجيب عليه هو أداء واجب الشكر والثناء على ما أتحفتمونى به من الرغيبة العظمى ، ألا وهى البشارة بنوالكم شرف الاجتماع بحكيم العصر ، ونادر الدهر ، أستاذنا السيد جمال الدين حفظه الله وزاده رفعة وجلالا . وفوزكم من لطفه ومكارمه بالالتفات والرعاية الخصوصية ، وافصاحكم بأن هذا كان نتيجة درسنا سيرته بالامعان والانعام . مع ما انضم الى ذلك من قيامكم بحقوق الاخاء باجابة ما رغبت به اليكم من اجراء ذكرى لديه ، وشرح بعض شأنى عليه ، وعرض أكبر مقاصدى على مسامعه الشريفة ، ألا وهو الحصول على صحبته بصفة تلميذ ملازم ، أو مريد خادم . وبعبارة أخرى أننى أكون « أبا تراب الثانى (أبو تراب اسم الخادم الخاص للسيد جمال الدين) أدور معه حيث يدور . لكنكم أديتم هذا على غير وجهه : اذ أنكم أبدلتم لفظ (الملازمة له) بلفظ (التردد عليه) ، ولا ريب أنكم فهمتم ذلك من عبارتى السابقة : اما لقصورها عن بيان ما شرحته الآن ، واما لذهول منكم ، كما هو شأن الانسان . وعلى كل حال نقول جعل الله سعيكم مشكورا ، وعملكم مبرورا ، وحظكم من الكمال موفورا ، ونرجو أن تؤدوا الأمانة فى الكرة الثانية على وجهها :

وتلطف واجـر ذكرى عندهم　　علهم أن ينظروا عطفـا الىّ

« وفى نفسى أن أكاتب حضرة السيد ، وأطلب منه ما كلفتكم بعرضه عليه أيضا (أى ملازمته) فان أجاب بالقبول فاننى أجتهد كل الاجتهاد فى الحضور لطرفكم . وان أبى (السيد) علىّ

فانني أجتهد بعض الاجتهاد فى المجيء للتشرف بزيارته ، والتيمن بمشاهدة غرته المباركة : هذا اذا بقيتم فى الآستانة ، وان حضرتم الى طرابلس قريبا فاننا نتذاكر فى الايجاب . وأقل ما يناجيني به ضميرى من الفائدة فى الكتابة الى السيد جمال الدين قول الشاعر :

عسى يذكر المشـــــتاق فى طى رقعة

فحسب الأمانى أن ترينى رقاعه »

وانتهى بذلك خطاب رشيد رضا الى صديقه وهو يفيض حبا بالسيد جمال الدين الأفغانى ، حتى انه عتب على هذا الصديق ابدال كلمة بأخرى عند ذكر اسمه وحاله لهذا الأستاذ الجليل . ولذا بعث رشيد رضا بخطاب خاص لجمال الدين الأفغانى جاء صورة حيّة عن مشاعر هذا المصلح الشاب ، ورغبته فى معرفة الحقيقة فى ميدان الاصلاح من المصلح الكبير . وفى هذا الخطاب ما يلى :

« اننى منذ لاحت علىّ مخايل التمييز ، ما نمى الىّ خبر ألذّ وأشهى ، ولا أنبل وأسمى من خبر سيدى (جمال الدين) . نبأ غرس فى قلبى حبّة الحب والشغف ، وسقاها بماء الحياة ، فنبتت نباتا حسنا ، وامتدت أغصانها ، وتشعبت أفنانها ، حتى لم تذر فى أرض الجسم ذرة من دقائقه الا وجذورها راسخة فيها . شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين باذن ربها ، جنيت منها ثمرة حب الحكمة واقتطف الناس منها ثمار الثناء ، على حكيم الحكماء ، أعزه الله تعالى . ولم تزل تنمو

بنموى حتى كأنها من عناصر جسدى ، وتقوى بقواى العاقلة حتى كأنها من مقومات ماهيتى . وهى الآن أرسخ الملكات فى نفسى : لا أتبوأ مجلسا ، ولا أفيض فى كلام الا ويكون ذكر الجمال فاتحته أو ختامه ، أو متخللا أجزاءه وأقسامه ، وان لم يكن هو موضوع الكلام ، حتى عرفت بين المعاشرين ، بعاشق جمال الدين ، وربما دعانى بعض الأصدقاء بالداعى له » .

واختتم رشيد رضا هذا الخطاب الخاص بذكر شىء عن حياته ، وابداء رغبته للسيد جمال الدين بأن يسمح له بالاتصال به — واعتذر رشيد عن عدم المبادرة بالمجىء الى الآستانة قائلا له : « لأننى أعتقد ان القسطنطينية على سعتها ، بل المملكة العثمانية بما رحبت لا ينفسح فيها لسيدى مقام ، لأن ممالك الشرق أمست كالمريض الأحمق يأبى الدواء ، ويعافه من حيث انه دواء » .

وأشاد جمال الدين الأفغانى بهذا الخطاب لكل من زاره من رجال الشرق ، وخاصة لصديق رشيد رضا ، وهو عبد القادر المغربى . اذ عندما عاد مرة ثانية لجمال الدين ليخبره بخطاب رشيد رضا اليه ، قال له جمال الدين انه تلقى خطابا خاصا من رشيد رضا نفسه ، وأثنى عليه ، وأظهر اعجابه لاهتمامه بأمر الاسلام والمسلمين . فطلب السيد عبد القادر من جمال الدين أن يكتب لرشيد رضا خطابا بخطه وتسليمه له ليرسله اليه . فاعتذر جمال الدين بعدم وجود ورق وأقلام لديه (لأنه كان فى القفص الذهبى ، ولا يستطيع مكاتبة أحد) وقال للسيد عبد الغنى : أنت

القلم الأعلى ، والكاتب البليغ ، ولك أنت أن تنوب عنى بابلاغ سلامى لرشيد رضا وتحياتى اليه .

وكتب السيد عبد القادر المغربى لرشيد رضا يخبره باعجاب السيد جمال الدين بخطابه ، وأنه يقرأه لزواره المرة بعد المرة ، ويثنى عليه . ونفخ ذلك فى رشيد رضا روحا عالية ، مليئة بالحماسة للسيد جمال الدين ، فتابع الاشادة به فى كل مكان ، جهارا دون أن يخشى شيئا . وكان ذلك جرأة عظيمة من رشيد رضا اذ ذاك ، لأن العداوة بين أبى الهدى الصيادى وجمال الدين الأفغانى قد اشتدت ، وصارت السلطات العثمانية تضطهد كل من يعرف بتشيعه لهذا المصلح الحبيس فى الآستانة . وتولى ادارة طرابلس فى ذلك الوقت بدرى باشا ، أحد أنسباء أبى الهدى ، وقام بتنفيذ سياسة الدولة العثمانية فى محاربة أنصار جمال الدين . ولكن الحماسة استبدت برشيد رضا ، وجاهر بحبه لجمال الدين فى دار بدرى باشا نفسه ، دون أن يأبه بما قد يتعرض له من أذى وعقاب .

وعرف أهل طرابلس تشيع رشيد رضا لجمال الدين الأفغانى ، حتى صار كل شخص يريد التقرب اليه يذكر مجرد اسم جمال الدين . وروى السيد عبد القادر المغربى حادثة طريفة وقعت له ولصديقه رشيد رضا فى هذا الصدد قائلا : ومن ذلك ان الشيخ على العمرى المشهور بالصلاح والكرامة رحمه الله صادفنا فى الطريق يوما فأطلعنا على كتاب جاءه من الأستانه بتوقيع (جمال الدين الخطيب) وقال لنا : انه لا يعرف أحدا فى الآستانه مسمى

بجمال الدين الا السيد الأفغانى ، يريد بذلك مطايبتنا ، وادخال السرور علينا .. ثم تبين أخيرا أن صاحب الكتاب دمشقى . واختتم السيد عبد القادر وصف تشيعه ورشيد رضا لهذا الأستاذ الجليل وزميله فى الجهاد قائلا : « وكثر اهتمامنا بالأفغانى والشيخ عبده ، والحرص على الاتصال بالوافدين من مصر والآستانه لمعرفة خبرهما والتحدث بما يروى عنهما من آراء وأفكار قد تكون غير مألوفة ، حتى جعل الناس فى بعض الأحايين يقعون فينا ويتقولون علينا . وكنا لا نبالى ذلك ، ونكثر من الجدل والدفاع عن الشيخين وتعاليمهما ووجوب الانتفاع بعلمهما ونصحهما » .

وصور أحد كبار المعاصرين لرشيد رضا ، وهو الأمير شكيب أرسلان ، الجهد الذى بذله هذا الشاب فى سبيل مقابلة كل من يسمع ان عنده خبرا عن جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ، وهيامه بهما . فقال شكيب أرسلان فى مذكراته : الذى أتذكره أنه فى سنة ١٣١٣ هـ / وفق سنة ١٨٩٥ م قيل لى فى بيروت أن شابا أديبا من طرابلس الشام يسأل عنك ويهمه الاجتماع بك . فلم أعلم من ذلك الشاب الأديب . وما مضت أيام حتى جاءنى ، وكنت نازلا فى فندق ببيروت يقال له « كوكب الشرق » فرأيت شابا سريا ظاهرة عليه سيماء النجابة والاصالة ، وضىء الطلعة ، وقور المجلس غالبا ، عليه الأدب وحب العلم .

علمت منه أنه قصد ملاقاتى من قبل ولم يوفق ، وأنه كان مولعا بقراءة ديوانى المسمى « بالباكورة » ، الذى نشرته عندما

كنت فى السابعة عشرة من عمرى ، وذلك سنة ١٨٨٧ المسيحية ، ورأيت هذا الشاب يحفظ كثيرا من أبيات ديوانى هذا . ولكن ظهر لى ان اعجابه بديوانى ، مع افتتانه به لم يكن شيئا بالقياس الى اعجابه باتصالى بالشيخ محمد عبده وبالسيد جمال الدين الأفغانى ، اللذين كان يقصد لقائى لأجل أن أحدثه عنهما وأروى له من أخبارهما . وكنت أنظر الى وجهه عندما أبدأ بالكلام عنهما فأراه يشرق نورا ويطفح سرورا وكأنه يصير كله آذانا واعيه وأسماعا صاغية يريد أن يحفظ عنهما حتى الحرف والحركة ويفضى الىّ بما فى نفسه من حب التعرف اليهما . وبالجملة فكنت أقرأ على وجه هذا الشاب سورة النور ، وأتفرس فيه منتهى الخير . وأعتقد أنه سيكون فى يوم من الأيام عظيما . وكنت أرى المثل الأعلى فى نظره كلا من الشيخ محمد عبده والسيد جمال الدين الأفغانى . وقد علمت أن اسمه هو « محمد رشيد رضا » من قرية القلمون من عمل طرابلس الشام ، وأنه من بيت مجد وفضل وتقوى ، وأنهم هم مشايخ تلك القرية » .

وهذه الصورة الرائعة الدقيقة التى ذكرها الأمير شكيب أرسلان تصور حرص رشيد رضا على دراسة حقيقة الأمر وراء اصلاح كل من جمال الدين ومحمد عبده ، وأنه استطاع فى هذه السن المبكرة من حياته أن يعرف منهجها عن روية وامعان . فرأى أن هذين المصلحين ، حين التقيا فى مصر قبل الثورة العرابية اشتغلا بالتجديد السياسى والعلمى ، وما يتصل بهما من الأمور التى

اشتدت اليها حاجة الأمة . وعندما التقيا فى أوربا مرة ثانية بعد نفى محمد عبده من مصر اقتصر عملهما على التجديد السياسى عن طريق العروة الوثقى ، التى هزت العالمين الاسلامى والعربى هزا عنيفا ، ووجهت أنظارهما الى مســاوىء الاســتعمار عامة والبريطانى خاصة .

ولما افترق جمال الدين الأفغانى عن محمد عبده بعد اغلاق جريدة العروة الوثقى بدأ منهج كل من هذين المصلحين يأخذ اتجاها خاصا يتفق مع طبيعة كل منهما . فجمال الدين الأفغانى ظل يرى ألا سبيل للاصلاح والتجديد الا عن طريق السياسة ، على حين نادى محمد عبده بأن الاصلاح والتجديد يأتى عن طريق التربية والتعليم . وبعبارة أخرى نادى موقظ الشرق بأن تجديد الأمة باصلاح الدولة ، على حين حاول تلميذه محمد عبده أن يثبت بأن تجديد الدولة باصلاح الأمة .

وخرج رشيد رضا من هذه الدراسة بحقيقة واضحة ، وهى أن الاصلاح عن طريق السياسة أدنى وأسرع ، وأن الاصلاح عن طريق التعليم أثبت وأدوم ، ولكن كلا منهما يفضى الى الآخر . وقبل أن يحدد رشيد رضا منهجه الخاص على ضوء مادرس ، وقعت أحداث دفعته الى خضم الاصلاح العام ، وجعلته يمزج بين وجهتى نظر كل من أستاذيه جمال الدين ومحمد عبده . ذلك أنه وجد الجو فى سوريا لا يساعده على الانطلاق فى الاصلاح بسبب ضيق أفق السلطات العثمانية ، ومراقبتها لكل من يتشيع لجمال الدين الأفغانى . ثم بلغه نبأ وفاة هذا المصلح الكبير بالآستانه

فى سنة ١٣١٤ هـ / ١٨٩٧ م ، نتيجة اهمال العثمانيين فى علاجه ، كما راجت بذلك الروايات والأقوال . ولذا لم يجد رشيد رضا مخرجا له سوى الهجرة الى مصر ، ليعمل مع تلميذ جمال الدين الأفغانى هناك ، وهو محمد عبده ، ويتعاون معه فى هذا الميدان الجديد ، الذى صار قاعدة للنضال العربى والاسلامى .

الفصل السادس

ملتقى الأحرار

النفس الأبية

لا تكمل تربية الرجال الا بمكافحة الأهوال ، فمعادن النفوس لا تصفو من شوائب الضعف في الحق ، وتتمكن من مقعد صدق الا بعد أن تعرض على نيران الفتن وتذاب في بوادق المحن . لقد جاء انتقال رشيد رضا الى ميدان الاصلاح العام في عهد أخطر وأخبث سلطان عرفته الدولة العثمانية في أواخر القرن التاسع عشر ومطالع القرن العشرين . فقد شاهدت تلك الدولة تولى السلطان عبد الحميد العرش بعد عزل السلطان عبد العزيز ، الذى امتلأ عهده بالتصرفات الشاذة ، وانعدام الأمانة والكفاية عند كبار وزرائه وموظفيه . فلما تولى عبد الحميد العرش أخذ الناس يمنون النفس بعهد طيب نظرا لما عرف عن هذا السلطان من ميل الى الأفكار الحرة واستجابة لآراء الاصلاح .

غير ان السلطان عبد الحميد أظهر جداره فائقة في تمثيل دور المنافق الذى اشتهر به . فأضفى على حياته الخاصة مظهرا من الزهد والتقشف ، وأخذ نفسه أخذا شديدا بمزاولة الشعائر

الدينية ، والتظاهر بأدائها تظاهرا يدل على خبثه ودهائه . وكان من سبقه من السلاطين مندفعين فى غيهم ، غارقين فى اللهو والشراب ، ولا يبالون بالتقاليد . ثم أجاد عبد الحميد القدرة على المراوغة ، والتخلص من الأزمات ؟ فنصب أحد رجال الأتراك المعروفين بالميول الاصلاحية ، وهو مدحت باشا رئيسا للوزاره (صدرا أعظم) ، وكلفه وضع دستور تعمد أن يحيط نشره بكل مظاهر الفخفخة فى يوم ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٧٦ ، وهو اليوم الذى انعقد فيه مؤتمر الدول الأوربية للنظر فى اصلاح الادارة العثمانية.

وكان الدستور المعلن من صنع مدحت ومطبوع بأفكاره الحرة . وهلل الناس فرحين بهذا الدستور ، واعتقدوا أن عهدا جديدا أشرق بتولى السلطان عبد الحميد . ولكن سرعان ما أدرك الناس أن الدستور لم ينشر رغبة فى الاصلاح ، وانما كان الهدف من ذلك أن يشغل السلطان عبد الحميد شعبه بما يلهيه عنه ، وأن يقذف المؤتمر الأوربى بقنبلة تعطل أعماله . اذ ما كاد هذا الهدف يتحقق ، حتى عمد السلطان عبد الحميد الى نفى مدحت ، ثم تذرع بالحرب بينه وبين الروسيا وأبطل العمل بالدستور نهائيا . وبدأ عهده على عكس ما توقع الناس بأعمال لا تجد لها مثيلا فى التاريخ من حيث الظلم والارهاب .

وأقام عبد الحميد أسس حكمه على التجسس والاضطهاد . فأنشأ نظاما أصبح فيه الجواسيس الذين استخدمهم لتحقيق أهدافه يؤلفون طبقة قوية من الرجال الفاسدين . فلم يسلم من أذاهم أحد مهما كانت مكانته فى المجتمع . وخص السلطان

عبد الحميد البلاد العربية ومن بينها بلاد الشام خاصة بالنصيب الأكبر من طغيانه واستبداده . فتظاهر باستمالة العرب بأن أسبغ على زعمائهم وكبرائهم مظاهر التكريم ، وحباهم بالمناصب ، وأنفق أموالا طائلة على اصلاح مساجد مكة والمدينة وبيت المقدس . واختار جماعة من الجواسيس يجوبون البلاد العربية ، يلبسون مسوخ الوعاظ ، بينما كان عملهم الحقيقى أن يبذروا بذور الخلاف وينشروا أسبابه بين زعماء العرب .

على أن أخطر خطوة قام بها السلطان عبد الحميد اعتماده على نفر من رجال العرب أنفسهم ، يسخرهم لتحقيق سياسته ضد مواطنيهم من أهالى البلاد العربية . فعهد الى أولئك العرب تولى بعض المناصب الكبرى فى القصر ، ووكل اليهم الاشراف على كبار موظفيه المناوئين لميول الوطنيين العرب . وتنظيم أعمالهم وتوجيهها . ونال بعض هؤلاء العرب من الحظوة عند السلطان ما دعا رجال الحاشية والطامعين فى المناصب والوزراء بل والصدر الأعظم نفسه ، الى التزلف اليهم واسترضائهم ، واتباع الطريقة التى لا تخيب فى تحقيق الهدف ، وهى الحصول على تأييدهم وموافقتهم على جميع الأعمال المهمة قبل تنفيذها ، أو البدء فيها .

وفى هذا الجو الخانق الذى أحاط بالبلاد العربية دخل رشيد رضا ميدان الاصلاح العام ، وهو يدرك جميع الأهوال التى تواجه من يتصدى لهذه الرسالة . ومن ثم انفرد رشيد رضا عن أستاذيه جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده بهذه الحقيقة الهامة ، وهى معرفته الدقيقة بسياسة العثمانيين ، وأنها مبنية على الخداع ،

ووضع نصب عينيه منذ صــدر شــبابه ألا يقع فى شباكها . ولذا انغرس فى نفس رشيد رضا كراهية العثمانيين ، وصمم على محاربتهم دون هوادة دفاعا عن أمته العربية . ولكن ظل رشيد يقظا لجواسيس العثمانيين ، برغم ما بدر منه أحيانا من كراهيتهم ، ولم يصدر عنه ما يمكنهم منه أو ايقاع الأذى به . وتجلى نشاط رشيد رضا فى تلك السبيل فى عدائه لأخطر شخصية فى عهــد السلطان عبد الحميد ، وهو أبو الهدى الصيادى ، الذى سبق أن أوقع فى حبائله موقظ الشرق نفسه ، وهو جمال الدين الأفغانى .

لقد كان أبو الهدى الصيادى فقير المال والحسب ، من أهل حلب ، ودفعته المقادير الى الآستانة . غير أنه كان ماهرا ذكيا ، وسيم المحيا ، ماضى العزيمة ، قادرا على معرفة نفوس الناس ، ومن أين تؤتى . فتغلب على عقل السلطان عبد الحميد ، واستطاع أن يسيطر عليه ، ويتولى أكبر وظيفة فى القصر . ولم يقف طموح أبى الهدى الصيادى عند هذا الحد ، وانما ربط نسبه بأعلى نسب عربى ، وصــار يلقب بلقب « مستشار الملك » ، و « حــامى العثمانيين » ، و « سيد العرب » . ثم اتخذ له بطانة من العلماء والأدباء ، كرسهم لتأليف الكتب التى تسبح بحمده ، وتعلى من شأنه ، وينظمون القصائد فى فضله ومجده . وكوّن جماعة له من الأتباع الخطرين المدربين يأتونه بكل الأخبار ، ويستغلها أمهر استغلال . ويكفى للدلالة على خطورة هذا الرجل أنه استطاع نيابة عن السلطان عبد الحميد استدراج جمال الدين الأفغانى الى الآستانة ، بعد أن أوهمه ان سياسة السلطان هى نفس سياسة

هذا المصلح العظيم للنهوض بشأن المسلمين . ثم ان أبا الهدى هو الذى تولى تنظيم شبكة الرقابة حول جمال الدين الأفغانى فى الآستانة ، ودبر المؤامرات والدسائس التى انتهت بالوقيعة بين هذا العملاق الجبار وبين السلطان عبد الحميد .

وترامت أنباء هذا الداهية الخطر وما فعله بجمال الدين الى مسامع رشيد رضا ، الذى غضب من أجل موقظ الشرق ، وكتب له أول خطاب يعبر فيه عن حبه وتقديره له . ولم يقف نشاط رشيد رضا عند مجرد الغضب والمكاتبات ، وانما خطا أولى خطواته الجبارة فى ميدان الاصلاح العام ، بأن تصدى لأبى الهدى الصيادى ، والعمل على وقف سمومه من أن تنتشر فى البلاد العربية . وبدأ رشيد رضا جهاده بنقد المؤلفات التى أمر أبو الهدى الصيادى بوضعها لتمجيد نسبه وروابطه القوية بكبار أهل التصوف . وكانت هذه المؤلفات قد انتشرت فى الآستانة ومصر وبيروت تحمل دعاية واسعة لأبى الهدى وأهل بيته وللشيخ أحمد الرفاعى الصوفى والمنتمين اليه نسبا وطريقة ، وتتضمن تفضيله أيضا على الشيخ عبد القادر الجيلانى وغيره من الأولياء . واستهدف أبو الهدى من ذلك منافسة أتباع الجيلانى فى بغداد وحماه ، وليظل له ولآل بيته الصدارة فى الدولة العثمانية ، اذ كان الجيلانية ينعمون بمركز ممتاز فى العالم الاسلامى بالانتساب الى الشيخ عبد القادر ، برغم أنهم لم يصلوا الى المراكز الكبرى عند العثمانيين .

ولما اطلع رشيد رضا على هذه الكتب التى روّجها أبو الهدى

الصيادى عن نفسه ، لم يرض عنها ، ولم يسلّم بما جاء فيها من دعاية لتفضيله على الجيلانية . وفى نفس الوقت هاله ما جاء فى تلك الكتب من الأباطيل فىالدينوالتصوف والتاريخ ، اذا امتلأت بالمغالطات ، والزيف ، ورأى أن الواجب يحتم التصدى لهـا ودحضها . ولذا شرع فى تأليف كتاب سماه « كتاب الحكمة الشرعية فى محاكمة القادرية والرفاعية » ، وانغمس فيه بكل وجدانه وما وصـل اليه من علم . ولما كان رشيد رضا ما زال اذ ذاك يطلب العلم ، فانه خصص لهذا الكتاب أوقات فراغه ، وشغلها كلها بالعمل حتى انتهى منه فى سرعة غريبة .

وترك رشيد رضا لنفسه العنان فى معالجة مواضيع هـذا الكتاب ، لأنها تطلبت كثيرا من الأبحاث الدينية والاجتماعية ، ثم عرضها بما عرف عنه من أسلوب جيد وبلاغة ممتازة . والأمر الهام هنا هو أن هذا الكتاب صار الأساس الذى شيد عليه رشيد رضا صرح مجده فى ميدان الاصلاح الاسلامى . اذ غدا نشاطه فيما بعد تدعيما لما جاء فى هذا الكتاب من آراء ودراسات ، أو تعديل لبعضها ، حسب تطور الزمن والأحداث . ثم ان رشيد رضا نفسه ازداد ايمانا بما وهبه الله من قدرة على الانتقال من ميدان الاصلاح المحلى الى ميدان الاصلاح العام ، بعد أن فرغ من كتابه السالف الذكر . اذ اكتشف ما انطوت على نفسه من مواهب عالية ، وأن ثمار دراساته العليا للعروة الوثقى وغيرها قد آن أوان عرضها ليستفيد منها المسلمون جميعا .

وتجلت مواهب رشيد رضا وعبقريته المبكرة فى المواضيع

التالية التى تناولها فى كتابه « الحكمة الشرعية فى محاكمة القادرية والرفاعية » :

١ — بحث فى أصل التصوف وأطواره وما انتهى اليه عند أهل الطرائق التى تدعيه فى هذا العصر ، وتقاليدهم وعاداتهم وأزيائهم وما يخالف الشرع منها .

٢ — بحث فى الزى فى الاسـلام ما يحل منـه وما يحرم وما يكره وما يباح وما يفضل غيره بمنافعه أو زينته ، وما ينبغى للمسلمين فى الاجتمـاع والسياسـة من كونهم قدوة متبوعين لا مقلدين تابعين .

٣ — بحث مسألة تشبّه المسلمين بغير المسلمين فى الأمور الدينية وغيرها من العادات والماعون والأثاث وآلات الحـرب وسلاحه وما فيه من مضار ومنافع .

٤ — بحث مسألة المهدى المنتظر وما حدث بسبب اعتقاده من الفتن والحروب ، وما كان ينبغى للمصلحين أن يتوسلوا به الى الاصلاح والقوة بدلا من الاتكال على ما ينتظرونه منه .

٥ — بحث مسألة الخطابة التى شرعت فى الاسلام للاصلاح العام فى السياسة والأخلاق والآداب وما يختلف منها باختلاف الأحوال والأحداث والأطوار ، فجعلها الخطباء الرسميون تقليدا صوريا كالعادات ، حتى فقـدت ملكتها ، واكتفى أهلها بأداء الواجب فى الجمعة بخطب مدونة يحفظونها حفظا أو يقرأونها فى القراطيس قراءة غير مؤثرة ولا تكاد تتجاوز موضوعاتها مدح الشهور والمواسم الشرعية والبدعية ، والتذكير بالموت والتزهيد

فى الدنيا بدعوى أنها منافية للدين أو مضادة له ، وشرح ما ينبغى من الاستعداد للخطابة الارتجالية وجعل الخطب بحسب الحاجة الى اصلاح الأمور العامة كلها فى الأمة والدولة .

٦ — بحث مسألة الكرامات ، حقيقتها والخلاف فى جوازها ووقوعها وأنواعها والحقيقى والصورى منها ، وما دخل من بابها على الأمة من الخرافات والفتن .

واستغرقت هذه الأبحاث صفحات كثيرة ، حتى صارت تكون مجلدا ضخما ، فى أسلوب رفيع ممتع . وقد عرض رشيد رضا مسودة هذا الكتاب على أقرب المقربين لديه من كبار المصلحين ، ليستطلع رأيهم فيه . ومن أولئك الشيخ مرتضى الجزائرى ، أحد كبار رجال الاصلاح والتقى بالشام ، فامتدح الكتاب ، وأعجب اعجابا شديدا بما جاء فيه ، وقال لرشيد رضا : « ان هذا ليس فى استطاعتك ، وانما استعملك الله بقدرته (أو الهامه) واستشهد بحديث « اذا أحب الله عبدا استعمله » . وقدم رشيد رضا كتابه أيضا لأستاذه الشيخ الجسر ، الذى قال له ان فيه آراء كثيرة ، ولكن أسلوبها يحمل الخصوم على الرد عليها بمثلها .

واكتفى رشيد رضا بما قام به من أبحاث فى هذا الكتاب ، واطمئنانه الى أنها حازت اعجاب خاصة العلماء المخلصين ، وصمم على أن يكون هدفها خدمة المسلمين عامة ، فعلى الرغم من أن الدافع على تأليف هذا الكتاب الرد على أباطيل أبى الهدى الصيادى الا أنه ترفع عن استخدام نشاطه العلمى للنيل من شخص هذا الرجل . اذ بلغ خبر هذا الكتاب مسامع الشيخ

السيد عبد الفتاح الزغبى نقيب أشراف طرابلس ، ومن فروع الشجرة الجيلانية بالشام ، والتى بلغ اتباعها فى تلك البلاد بضعة عشر ألف نسمة . وكتب هذا النقيب بما علم الى قريبه فى بغداد ، ونقيب الجيلانية بها وهو سلمان الكيلانى . وتم الاتفاق بين أولئك السادة على طلب الكتاب من السيد رشيد رضا وارساله الى الهند لطبعه ، بعيدا عن رقابة أبى الهدى الصيادى وجواسيسه. ولكن رشيد رضا لم يسمح بذلك ، وجعل الكتاب فى مسودته ، طى الخفاء . اذ أبت عليه نفسه الا أن يجعل عمله لوجه الله والاصلاح العام .

قاعدة النضال

أحس رشيد رضا بعد فراغه من « كتاب الحكمة الشرعية فى محاكمة القادرية والرفاعية » أن وطنه فى بلاد الشام لم يعد ملائما لجهاده فى سبيل الاصلاح العام . ذلك أن وطنه ، باعتباره مفتاح البلاد العربية ، من وجهة نظر العثمانيين ، لم يتعرض للرقابة الشديدة من جانب السلطان عبد الحميد فحسب ، وانما صار كذلك مسرحا للجواسيس ووسائل الرعب الخفية التى ابتكرها نظام الحكم الحميدى لمطاردة الرجال المتحمسين من أبناء العرب . ولذا أخذ الأحرار فى بلاد الشام ، وكذلك فى البلاد العربية الأخرى الخاضعة لسيادة العثمانيين يتطلعون الى أماكن بعيدة عن قبضة السلطان عبد الحميد ، يتابعون منها نشاطهم وجهادهم . وشارك رشيد رضا أولئك الأحرار فى التطلع الى

الهجرة من وطنه فرارا بعقيدته ، والتماسا لتربة صالحة لغرسه ونشاطه .

واتجهت أنظار رشيد رضا ، كما اتجهت أنظار أقرانه من الأحرار العرب نحو أرض مصر ، التى صارت منذ القرن التاسع عشر تكوّن قاعدة النضال العربى . وكان السبب فى ذلك ان مصر حملت قصب السبق على جيرانها من البلاد العربية فى سبيل كفاح الطغيان العثمانى وما اقترن به من زحف القوى الأوربية عليها . وشرح الميثاق هذه الظاهرة السالفة شرحا دقيقا فى قوله : « ولم تكن الحملة الفرنسية على مصر فى مطلع القرن التاسع عشر هى التى صنعت اليقظة المصرية فى ذلك الوقت — كما يقول بعض المؤرخين — فان الحملة الفرنسية حين جاءت الى مصر وجدت الأزهر يموج بتيارات جديدة تتعدى جدرانه الى الحياة فى مصر كلها ، كما وجدت الشعب المصرى يرفض الاستعمار العثمانى المقنع باسم الخـلافة .. والذى كان يفرض عليه دون ما مبرر تصادما بين الايمان الدينى الأصيل فى هذا الشعب وبين ارادة الحياة التى ترفض الاستبداد » .

ثم ان الشعب المصرى حمل راية الكفاح ضد الفرنسيين كما سبق أن حملها ضد العثمانيين . ووقف هذا الشعب صامدا فى اباء أيضا ضد الانجليز الذين لم يتمكنوا من دخول بلده الا نتيجة خيانة الخديو توفيق . حافظ المصريون على حيويتهم ونضالهم فى سبيل حريتهم برغم التضحيات الباهظـة التى قدموها فى تلك السبيل ، وغدت أعمالهم منذ القرن التاسع عشر تجذب اليهـا

أنظار العرب من كل مكان . وكان أهم تنائج هذا الكفاح المتتابع ان مصر خرجت عن دائرة التبعية للدولة العثمانية ، وصارت تشق طريقها باعتبارها رائدة للعرب فى سبيل الحرية ومقاومته الاستعمار مهما كان لونه عثمانيا أو أوربيا .

واقترن بانفصال مصر عن الدولة العثمانية خروج المصريين من حلقة الركود العثمانى ، واتصلوا بأوربا أيام البعثات التى أرسلها محمد على الى أوربا ، وبدأوا بالتالى يقفون على سر تقدم أوربا ، ويعملون جاهدين على رفع وطنهم الى مصافها . ودعمت هذه الظاهرة بدورها مكانة مصر باعتبارها رائدة البلاد العربية فى سبيل تحطيم الركود العثمانى الجاثم عليها ، وأقبل أبناء البلاد العربية فى شغف على دراسة أعمال المصريين ، والافادة من تجاربهم . وأشار الميثاق الى هـذه الحقيقة فى ذلك القول البليغ :

« وليس صدفة ان هـذه الزهـور المتفتحة على ضفاف وادى النيل كانت بمثابة الومضات اللامعة التى لفتت أنظار العناصر المتطلعة الى التقدم فى المنطقة كلها نحو مصر . وجعلت منها فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر منبرا للفكر العربى كله ، ومسرحا لفنونه ، وملتقى لكل الثوار العرب من وراء الحدود المصطنعة والموهومة » .

ولذا ظلت العلاقات الثقافية تربط مصر بالبلاد العربية الباقية تحت ربقة العثمانيين ، كما ظلت آمال المصريين متفقة مع آمال العرب جميعا فى الجهاد من أجل الحرية وتحقيق السيادة الكاملة .

ومن ثم غدت مصر المأوى الذى يتطلع اليه أحرار العرب من كل مكان ، كل منهم يبغى الوصول اليها والاقامة بها ، والانطلاق بالجهاد من أرضها . واجتذبت أرض مصر ضروبا متعددة من أبناء العرب ، من طلاب العلم ، والكتاب وكذلك المفكرين السياسيين . وكان هذا هو المسرح العربى أمام رشيد رضا حين ضاق به خناق العثمانيين فى وطنه بالشام ، وفكر فى الهجرة من وطنه ، فى سبيل قيامه بالاصلاح العام .

ولم يتردد رشيد رضا فى أن يجعل مصر قبلته لأنه سمع عن مواطنين له من الشام سبقوه الى هذا الميدان من أرض مصر ، وجعلوه لهم ملتقى الأحرار . فوفد على مصر كثير من أحـــرار الشام فرارا من بطش العثمانيين ، وعاشوا فى هذا الوطن العزيز ، كما عاشوا فى وطنهم أعزاء كرام ، وحققوا ما عجزوا عن تحقيقه فى مسقط رأسهم . وممن سبق رشيد رضا الى مصر نفر من كبار قادة العرب ، ممن تبلورت أفكارهم فى سبيل ايقاظ الأمـــة العربية وبعث أمجادها .

ويأتى على رأس هذه القائمة ابراهيم اليازجى ، الذى كان أول صوت انبعث بالدعوة الى القومية العربية فى الشام . ففى جلسة سرية عقدها بعض أعضاء الجمعية العلمية السورية ألقى ابراهيم اليازجى قصيدته التى هزت النفوس ، وجاء فيها : —

تنبهـــوا واستفيقوا أيهـــا العـــرب
فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب

فيم التعلل بالآمـــال تخـدعكم
وأنتم بين راحـات القنـــا سلب
خلوا التعصب عنكم واستووا عصبا
عـلى الوئام لدفع الظلم تعتصب

وأتبع ابراهيم اليازجى هذه القصيدة العصماء بشعر سياسى يحض فيه العرب على الترك ، ومن ذلك قوله :

دع مجلس الغيـد الأوانس وهـــوى لواحظها النواعس
أين النعـــيم لمن يبيت عـلى بســاط الذل جالس
ولمن تبـــاع حقـــوقه ودمـــاؤه بيع الخسائس
فالترك قـــوم لا يفو ز لديهـــم الا المشـــاكس
أو لستم العـــرب الكرام ومن هم شـــم المعاطس

ولم يكن منتظرا أن تطيب الاقامة لابراهيم اليازجى بالشام بعد هذا النداء الصارخ ، وبادر بالهجرة الى مصر ، حيث أسهم فى ميدان الصحافة بها . وتوفى على أرضها ، التى احتوت جثمانه سنة ١٩٠٦ ، بعد أن شاهد قدوم رشيد رضا الى مصر .

واقتفى أثر ابراهيم اليازجى شخصية سورية أخرى ، هو رفيق العظم ، الذى التقى فيما بعد برشيد رضا فى مصر ، واشترك معه فى الجهاد والاصلاح . اذ أبى رفيق العظم الاستكانة لظلم العثمانيين فى وطنه الشام ، وانضم الى الجمعيات السرية المناوئة لهم . ولما حامت حوله جواسيس العثمانيين ، وضاق بهذا الحبس الكبير هاجر الى مصر سنة ١٨٩٤ م ، أى قبل مجىء رشيد رضا بثلاث سنوات تقريبا . ومن الشخصيات الكبرى التى عاصرت

رشيد رضا ، وشاركت معه الهجرة الى مصر ، ثم التعاون معه فى ميدان الاصلاح ، السيد عبد الرحمن الكواكبى . وصارت مصر قاعدة لهؤلاء الأحرار العرب ، ومنبرا يدوى منه أصواتهم بالاصلاح والكفاح .

واذا كان رشيد رضا قد التقى فى مصر بنفر من أحرار وطنه ، فانه وجد البلاد حين هاجر اليها تموج بحركة وطنية ، ذات مظاهر سياسية واجتماعية وثقافية عالية . ونهض بهذه الحركة أبناء مصر ، الذين أفاقوا سريعا من صدمة فشل الثورة العرابية ، وما تلاها من احتلال بريطانيا لمصر . اذ استأنف المصريون الجهاد فى عنف بالغ ، متعاونين مع اخوانهم من الضيوف السوريين فى سبيل دفع الظلم والطغيان والاستعمار عن الوطن العربى . وكان على رأس هذه القائمة من أحرار المصريين الأستاذ الامام محمد عبده ، الذى نظر اليه الجميع نظرة الأستاذ الأكبر ، وخليفة موقظ الشرق السيد جمال الدين الأفغانى . فمنذ عاد محمد عبده من منفاه فى بيروت سنة ١٨٨٨ م وهو يحاول قدر استطاعته متابعة الاصلاح ، قاصرا جهوده على الميادين الاجتماعية والثقافية ، تاركا الميدان السياسى الذى سبق أن اكتوى بناره أيام الحركة العرابية .

وكان من حسن طالع مصر أن شاهدت فى الميدان السياسى شخصيات وثابة ، دافقة بالايمان ، على رأسها مصطفى كامل ، وخليفته محمد فريد ، ثم سعد زغلول . اذ حملوا راية الجهاد السياسى خالفا عن سالف ، وجعلوا مصر نارا محرقة على

الاستعمار وأعوانه فى البلاد . وساعد على روعة النشاط السياسى انطلاق الصحافة المصرية فى نقد الاستعمار وظهـور طبقة من الصحفيين الممتازين على رأسهم الشيخ عـلى يوسف صاحب جريدة المؤيد . فقاد أولئك الصحفيون الحركة الفكرية والتجديد فى مصر ، وأفسحوا المجال لهذا اللون من النشاط الى جانب الجهاد السياسى . واتسمت المقالات التى تناولت مواضيع الأدب والفلسفة والاجتماع بالقوة والجرأة ، اذ تنافس الكتاب فى عرض روائع أفكارهم ، والوصول الى خدمة الوطن عن تلك السبيل .

وحفل ميدان الأدب بطائفة من فحول الشعراء منهم سامى البارودى وأحمد شوقى وحافظ ابراهيم . فهؤلاء جميعا علا صوتهم بالقصائد العصماء التى خدمت شتى نواحى الاصـلاح السياسى والاجتماعى والثقافى . وأخيرا كانت البلاد المصرية ترى جيلا صاعدا من تلامذة محمد عبده ، يشقون طريقهم فى ميادين الاصلاح ، ومنهم لطفى السيد والعقاد . لقد كانت هذه القائمة الحافلة من الأحرار المصريين ، وعلى رأسها الأستاذ الامام محمد عبده ، فى استقبال رشيد رضا حين هاجر الى مصر ، وشدت أزره فى ميدان الاصلاح سواء بالتعاون معه أو بالنقد والتوجيه .

ملتقى الأحرار

اقتضت هجرة رشيد رضا الى مصر ، والالتقـاء بجماعات الأحرار فيها تدبيرا محكما ، وخطة منظمة محبوكة الأطراف . ذلك ان هذا المصلح الطموح صار منذ عرف بحبه الشديد لجمال الدين

الأفغانى وآرائه موضع رقابة السلطات العثمانية فى الشام . ثم انه اشتهر فضلا عن ذلك بأنه كاتب ومفكر حر ، وباحث فى الشئون السياسية ، بما لا يتفق مع وجهة نظر الدولة العثمانية . ولذا ما كاد رشيد يحصل على اجازاته العلمية من طرابلس حتى بدأ يمهد لخروجه من الشام ، والاتجاه الى مصر ، ليحقق للأمة العربية والعالم الاسلامى ما اختمر فى ذهنه من اصلاح وآراء .

وبدأ رشيد بالوالدين يعرض عليهما فى يسر وبالتدريج ما استقرت عليه نفسه . ووجد من والده كل تشجيع ، لأن هذا الوالد كان على اتصال بالشئون الجارية فى العالمين العربى والاسلامى ، بحكم مركزه الدينى والاجتماعى . ويكفى أن رشيد رضا وجد فى أوراق والده نسخ العروة الوثقى التى دفعته الى ميدان الاصلاح العام . ولم يجد الشاب الطموح صعوبة فى الحصول على موافقة والدته ، لأنها كانت تبارك كل شىء يذكر لها ابنها أن فيه فائدة له . فهى تعرف عنه التقى والصلاح ، والابتعاد عن زخرف الدنيا وزينتها .

وفرح رشيد رضا بموافقة والديه على سفره ، ولكنه كتم هذا الخبر تماما حتى لا يتسرب الى آذان جواسيس السلطان عبد الحميد ، ومعاونه أبى الهدى الصيادى . وبدأ يبحث عن الشخصيات الأمينة التى يمكنه الاطمئنان اليها ، ويحصل على مساعدتها فى السفر الى مصر . فوجد أولا أحد أصدقائه من شباب وطنه المتحمس للاصلاح ، وهو فرح أنطون على استعداد مثله للهجرة الى مصر . وكان هذا الصديق قد استلفت نظر

رشيد بحذره فى الحديث مما جعله يثق به . وقال عن ذلك رشيد :
« وكنت ألقاه أحيانا .. فيعجبنى منه أدبه وامتناعه عن ابداء رأيه فيما تدور المذاكرة بيننا فيه من المسائل السياسية والاجتماعية ، معتذرا بأنه لم يدرسها درس تمحيص يعطيه الحق فى الحكم فيها » .
ولذا عندما صمم رشيد على السفر ، أعطى كل ما يريد حمله من متاع لفرح أنطون ، على أن يسافرا معا فى باخرة واحدة .

على أن المساعدة القيمة التى حصل عليها رشيد رضا فى سبيل مغادرة الشام كانت من صديقه الأستاذ الشيخ صالح الرافعى ، وكان اذ ذاك مدير جوازات بيروت (ناظر النفوس) . اذ أخذ منه جواز سفر دون أن يعلم بذلك أحد . وقبل أن يحين ميعاد الباخرة التى دبر رشيد رضا خطة سفره عليها ذهب لمقابلة اثنين من أعز أصدقائه ليخبرهما بما عزم عليه . وأولهما هو عبد القادر القبانى ، وهو صاحب جريدة ثمرات الفنون ، أقدم الجرائد الاسلامية فى سوريا ، وكان صديق الأستاذ الامام محمد عبده منذ كان منفيا فى بيروت .

ودارت بين رشيد رضا وعبد القادر القبانى مناقشة كشفت عن الآمال العراض التى جاشت بنفس هذا المصلح الشاب . اذ حين علم الأستاذ عبد القادر القبانى من رشيد رضا برغبته فى السفر الى مصر ، وان هدفه من ذلك انشاء صحيفة اصلاحية هنالك عرض عليه أن يقيم فى بيروت ويتولى رئاسة التحرير لجريدته .
فقال له رشيد : ان الحرية التى فى بيروت لا تسعنى . فقال القبانى : أتريد أن تنتقد السلطان عبد الحميد أو تخوض فى

سياسته ؟ . قال رشيد : انما أريد اصلاح الأخلاق والاجتماع والتربية والتعليم . قال : ان لك أوسع الحرية فى هذا . قال رشيد : اذا أردت أن أكتب فى فضيلة الصدق ومضار الكذب ومفاسده ، فأبيّن أن أكبر أسباب فشوّ الكذب فى الأمم الحكم الاستبدادى، أتنشر لى ذلك جريدتكم . وعندئذ قال له الأستاذ القبانى : لا ، لا ! ، عجّل بالذهاب الى مصر ولا تخبر أحدا ! .

ثم ذهب السيد رشيد رضا الى صديقه الأمير شكيب أرسلان ، وكان مقيما اذ ذاك فى بيروت ، ليخبره بما عزم عليه ، باعتباره من مريدى الشيخ محمد عبده ، ومن زعماء الاصلاح فى الشام . وذكر الأمير أرسلان فى مذكراته هذه المقابلة التاريخية للسيد رشيد رضا ، قائلا : « كنت نازلا فى فندق كوب الشرق : فتناول السيد رشيد طعام الغذاء عندى ، ودعوت له الأستاذ الشيخ سعيد الشرتونى صاحب « أقرب الموارد » ، وكان من أعز أصدقائى ومن أخلص المخلصين لى ولعائلتى آل رسلان . وجلسنا نتحدث ثلاثا أو أربع ساعات من ذلك النهار . وقرأت لهما احدى مقالاتى فى جريدة الأهرام عن سياحة لى فى صرود لبنان . وبعد أن انصرف الشرتونى أسرّ الىّ الشيخ رشيد قضية سفره الى مصر ، وأوصانى بكتمان الخبر لأنه يجوز أن الحكومة فى حال معرفتها بالخبر أن تمنع الشيخ رشيدا من السفر ، فقد كنّا فى عصر السلطان عبد الحميد لا نقدر على السياحة الى الخارج الا باذن ، وكان هذا الاذن متعذرا كثيرا .. وأظن أن الشيخ رشيد

أخبرنى وقتئذ بما دار من الحديث بينه وبين السيد عبد القـــادر القبانى صاحب جريدة « ثمرات الفنون » .

ولما قرب ميعاد السفر بالغ رشيد رضا فى اخفاء نواياه ، فأعطى صندوق ثيابه الخاص للشيخ أبى النهى القاوقجى ، حتى لا يبدو عليه أى مظهر من مظاهر السفر . ووصف رشيد رضا فى مذكراته الساعة الحاسمة ، ساعة مغادرة بيروت ، ساعة الخلاص من أسر السلطان عبد الحميد ، والانطلاق الى وطن الحرية قائلا : « ولما حضرت الباخرة التى نزل فيها رفيقى فرح أفندى من ميناء طرابلس الى بيروت ، نزلت اليها فى زورق مع الأستاذ الشيخ صالح الرافعى ناظر النفوس ، وليس شىء معنا يدل على ارادتى السفر . وقد تساءل رجال الشحنة (البوليس) الذين يفتشون المسافرين عنى ، فقيل لهم هذا ضيف طرابلسى عند ناظر النفوس يريد أن يتنزه فى البحر . ولما استقرت قدمى فى الباخرة تنفست الصعداء ، وحمدت الله تعالى ان منّ علىّ بالخروج من تلك البلاد وأنجانى من ذلك الوباء » .

ورست الباخـــرة فى الاسكندرية مساء الجمعـــة ٨ رجب سنة ١٣١٥ هـ / ٣ يناير ١٨٩٨ م ، وأقام السيد رشيد بها أياما . ثم خرج فى رحلة استطلاعية فى الوجه البحرى زار فيها طنطا والمنصورة ودمياط ، حيث أقام فى كل منها أياما . ثم عاد الى طنطا ، حيث نزل فى ضيافة السيد حسين القصبى الذى كان على صلة ومودة بوالد السيد رشيد رضا ، وسبق أن أقام فى منزلهم بالقلمون عندما حضر للاصطياف فى لبنان .

وفى يوم السبت ٢٣ رجب سافر رشيد رضا من طنطا الى القاهرة قبل الظهر . ولم يطق البقاء طويلا فى القاهرة قبل أن يرى الأستاذ الامام محمد عبده . ولذا فى صحوة اليوم التالى ، وهو يوم الأحد ، ذهب لزيارته فى داره بالناصرية ، ومعه صديقه الشيخ اسماعيل الحافظ ورفيقه الشيخ أبو النهى القاوقجى . ووصف رشيد رضا هذا اللقاء ، لقاء الأحرار قائلا : « فلما بلغناها (دار الامام محمد عبده) أرسلت اليه بطاقة الزيارة ، فما لبث أن نزل وهى بيده ، وطفق بعد السلام يسألنى عن أصحابه فى طرابلس : الأستاذ الشيخ حسين الجسر ودروسه وجريدة طرابلس التى ينشر فيها مقالاته .. ثم قلت له ان غرضى من الهجرة الى مصر تلقى الحكمة عنه ، واننى أعتقد انه بقية رجاء المسلمين » .

وكان الأستاذ الامام محمد عبده قد سبق ان علم حب رشيد رضا له وللسيد جمال الدين الأفغانى ، واعتقد ان هذا الحب من النوع الذى يتملك ألوف النـــاس للعلماء والفصحاء والكتاب والخطباء . ولكن المناقشات كشفت للأستاذ الامام فى سرعة ان حب رشيد رضا « نوع آخر لم يعرف له ضريبا الا حبه هو للسيد جمال الدين » . اذ وجد اندفاع هذا الشاب الطموح نحـــو الاصلاح يستند الى أسس راسخة عميقة ، ترجع الى سن مبكرة . فلمس عن يقين استفادة رشيد رضا مما قرأه فى احياء علوم الدين للغزالى عن التفرقة بين علماء الدنيا ، الذين لقبهم بعلماء السوء ، وعلماء الآخرة ، واستفادته كذلك من دراسات جريدة العـــروة الوثقى لأسباب توقف نهضة الاسلام ، وأن ذلك صار موكولا

الى العلماء ، وعليهم دفع دول الاستعمار عن ملكه وأخـيرا أدرك الامام محمد عبده أن رشيد رضا يفهم كل المقاصد التى هدف اليها هو نفسه بجهاده فى سبيل عزة الاسلام والمسلمين .

ودوّن رشيد رضا فى مذكراته ازدياد العلاقات وثوقا بينه وبين الامام محمد عبده قائلا : « كان قد علم بحبى له ، وظن أنه كحب الألوف من النـاس للعلماء والفصـحاء والكتاب والخطباء .. وبعد محاورات ومسامرات كثيرة تتابعت .. علم ان هذا الحب نوع آخر لم يعرف له ضريبا الا حبه هو للسـيد جمال الدين .. وأن صاحبه شبعان ريان ، مفعم العقل والفكر والخيال والوجدان ، يحب الاصلاح الذى تلقاه هو عن الأفغانى ، قوى الاستعداد للجهاد فى سبيله بكل ما أوتيه من حول وقوة ، وأنه وقف حياته على هذا الجهاد ، ويرى من الواجب عليه دينا أن لا يصده عنه شىء من المخاوف ولا المضار ، ولا من المـال والجمال ...

« وقصارى القول انه رأى منه فتى ربى نفسه ، بل رباه الله تعالى ، ذلك النوع من التربية التى اقترحها هو عـلى السيد جمال فى باريس ، وهو أن يذهبا الى مجهل من معامى الأرض وأغفالها ، لا ترمقهما فيها الحكومات الفاسدة المفسدة لأجل أن يربيا عشرة من أذكياء أبناء المسلمين ويعلمانهم ما يعدانهم به لاستمرار العمل الذى شرعا فيه لتجديد الأمة واحياء الاسلام » .

الفصل السابع

المنــــار

ميدان الصحافة

بدأ رشيد رضا جهاده فى ميدان الاصلاح العام عملاقا ، يبهر الأبصار بقوته الخارقة للعادة ، ومواهبه النادرة . فمنذ وصل القاهرة كشف للأستاذ محمد عبده عن أهدافه الحقيقية ، وهى أنه اذا كان قد جاء الى تلك البلاد للافادة من صحبته ، فانه قد استقر به العزم على انشاء صحيفة اصلاحية يستمد فيها من حكمة الأستاذ الامام فيما يكتب ، ويدخل بذلك ميدان الاصلاح الكبير مفيدا ومستفيدا . ولم يكن اقناع الأستاذ الامام بالموافقة على هذا المشروع أمرا هينا . اذ سبق له أن انتقد الصحافة والعاملين فيها أمام رشيد رضا قبل أن يفاتحه فيما انطوت عليه نفسه من آمال فى هذا الميدان .

وفى احدى مقابلات رشيد رضا للأستاذ الامام ، وذلك فى السادس من شعبان سنة ١٣١٥ هـ / ١٨٩٨ م امتدت المناقشات بينهما ، بحيث أتاحت للسيد رشيد اقناع الأستاذ الامام بأهدافه

الخاصة بالعمل الاصلاحى فى ميدان الصحافة . اذ قال الأستاذ الامام انه سمع من زائر جاءه من بيروت أن جماعة من طرابلس الشام قدموا مصر لانشاء جريدة بها ، وأظهر تعجبه من ذلك موضحا ان الجرائد فى مصر كثيرة ، ولا تحتمل البلاد أعدادا أخرى . فقال له رشيد ، انه سمع أيضا أن والى بيروت أشاع ان رشيد رضا جاء مصر لينشىء جريدة للطعن فى رجال الدولة . ثم أضاف الى ذلك قائلا : وأصل الخبر صحيح ولكن المقصد أعلى من الكلام فى الشخصيات والحكومات ، وأن رجال الدولة قد نالهم كثير من المدح والذم ، وما نفع المدح ولا الذم » .

وبذلك دارت مناقشة طريفة تاريخية بين هذين المصلحين العظيمين ، جاءت حوارا رائعا بين الخبرة والطموح ، بين الواقع والأمل ، ثم انتهت بالاتفاق على ما فيه الصالح العام . قال الأستاذ الامام : ان المصريين فى حالة جعلت أفكارهم موجهة الى شىء واحد من الجرائد ، وهو أخبار الحكومة وما يقال عن الخديو وعن الانكليز ، ولا يلتفتون الى ما وراء هذا . وقد قامت به ثلاث جرائد كبرى هى : المؤيد والمقطم والأهرام . ثم شرح الأستاذ الامام خطة كل جريدة منها ، قائلا فى النهاية لرشيد رضا انه لا يمكن له مباراة واحدة منهن فى خطتها . وفضلا عن ذلك شرح الأستاذ الامام لرشيد رضا موقف الناس من الموضوعات الأدبية ، وأنهم لا يهتمون بما يعالج فيها من مقالات عن التربية والتعليم ، وأنه بالتالى اذا استهدف ذلك لن يلتفت أحد الى كلامه .

ولكن رشيد رضا نقل الحديث الى الكلام فى موضـوع مرض الأمة وضعفها ، وذكر أن أنفع الوسائل فى معالجتها هـو التربية والتعليم ونشر الأفكار الصحيحة لمقاومة الجهل والأفكار الفاسدة التى فشت فيها كالجبر والخرافات . ثم أوضح للأستاذ الامام أن هذا هو الباعث له على انشاء هذه الجريدة ، وأنه مستعد لأن ينفق عليها سنة أو سنتين من غير أن يكسب شيئا . قال الأستاذ الامام : ان كان هكذا فهو حسن ، وهذا أشرف الأعمال وأفضلها . وأنا اذا كنت على ثقة من مشرب هذه الجريدة فانى أساعدها بكل جهدى .

قال رشيد : انى أعاهدكم على أن أكون معكم كالمريد مع أستاذه ، على نحو ما يقول الصـوفية . ولكنى أحفظ لنفسى شيئا واحدا أخالفهم فيه ، وهو أن أسأل عن حكمة ما لا أعقله ، ولا أقبل الا ما أفهمه ، ولا أفعل الا ما أعتقد فائدته .

قال الامام : هذا ضرورى لابد منه . ثم أوضح فى مقابلات أخرى لرشيد رضا الأمور الواجب مراعاتها فى الجريدة الجديدة وهى

١ — ألا تنحيز لحزب من الأحزاب .

٢ — ألا ترد على جريدة من الجرائد التى تتعرض لها بذم أو انتقاد .

٣ — ألا تخدم أفكار أحد من الكبراء .

وأظهر الأستاذ الامام رغبته أولا فى أن تطبع الجريدة الجديدة فى المطبعة الأميرية ، تجنبا للدس والمؤامـرات ، وقال لرشيد

رضا : لكن أجر الطبع فى المطبعة الأميرية غال ، وانما غلاؤه لأجل التصحيح ، فاذا كانوا يرضون منا الطبع بدون تصحيح بأجرة مناسبة فلا معدل عنها ، وأنا أسأل عن هذا الأمر . وسر رشيد رضا من هذا الحديث لأن الأستاذ الامام تكلم عن هذا العمل بضمير المتكلم ومعه غيره ، وأنه يشعر بأنه يعده منسوبا اليه . ولكن لم يتيسر الطبع فى المطبعة الأميرية ، واستطاع رشيد رضا أن يجد أخيرا احدى المطابع الخاصة مستعدة للقيام بطبع الجريدة .

ولم يبق غير معرفة عناوين القراء الذين ترسل اليهم الجريدة ، وحثهم على الاشتراك فيها . وساعد محمد عبده رشيد رضا فى هذا الصدد كذلك . فكتب الى صاحب جريدة الرائد المصرى هذا الخطاب :

عزيزى الفاضل

بعد اهداء التحية أقدم لك حضرة الشيخ محمد رشيد رضا الطرابلسى ، من أفاضل أهل طرابلس ، وهو الذى سبق الكلام معكم فيه ، وانه يريد اصدار جريدة أدبية ، وقد ظهر أنه اتفق مع مطبعة أخرى غير مطبعة الأخبار . والرجاء أن تساعدوا حضرته باعطائه أسماء المشهورين من مشتركى جريدتكم من مأمورى حكومة ومديرين وغيرهم ، ومن أعيان ومعتبرين فى القطر المصرى ، وعندى يقين أنه سينال منكم ما يحب من ذلك . وأكون لكم من الشاكرين . **محمد عبده**

١٤ مارس سنة ١٨٩٨

ورحب صاحب جريدة الرائد برشيد رضا وأعطاه ما طلبه الأستاذ الامام .

واستشار رشيد رضا الأستاذ الامام أيضا فى اسم الجريدة ، وعرض عليه عدة أسماء من بينها اسم « المنار » لينتقى ما يراه مناسبا . واختار الأستاذ الامام اسم « المنار » ، وكان هو الاسم الذى ارتاحت له نفس رشيد رضا كذلك . واستطاع المصلح الشاب أن يحقق أولى أمانى قلبه فى ميدان الاصلاح بفضل تأييد الامام محمد عبده وتشجيعه ومساعدته . فبدأ يعد المادة العلمية لعرضها فى العدد الأول من جريدته ، وليهيىء لها المكانة التى يتمناها لها .

وتطلب هذا العمل من رشيد رضا مجهودا جبارا ومتواصلا . اذ شاهدت مصر فى تلك المرحلة التى جاء فيها هذا المصلح الشاب نشاطا صحفيا واسعا ، وازديادا فى عدد المطابع التى يمكنها اصدار الأعداد المطلوبة فى سرعة فائقة . وكان السبب فى ذلك هو التنافس الذى نشب بين القوى الوطنية فى البلاد وبين سلطات الاستعمار البريطانى . اذ وجد أحرار المصريين ومن سار فى ركبهم من أبناء البلاد العربية أن الصحافة هى السبيل الأمثل أمامهم لايقاظ شعور المواطنين وحثهم على مقاومة الاستعمار وطرده من البلاد . وفى نفس الوقت حاول الاستعمار استخدام بعض العملاء ، وافساح المجال لهم عن طريق الصحافة أيضا للتسبيح بحمده ، وتزييف الأوضاع وقلب الحقائق بما يمكن له البقاء والاستمرار لأطول فترة ممكنة .

واقتضت هذه المنافسة بدورها ظهور أبحاث قيمة اضطلع بها الصحفيون الوطنيون وغيرهم من الغيورين من أبناء البلاد ، لتفنيد آراء الخصوم ، ومقارعتهم الحجة بالحجة ، واتسمت هذه الأبحاث التى احتوتها الصحافة الوطنية بالأسلوب الرفيع ، والعرض الجيد ، والمعانى السامية ، والآراء القيمة . وتبارت الصحف بذلك فى اجتذاب كبار الكتاب اليها ، واغرائهم بالأجور والمكافآت العالية ، حتى تضمن كل منها لنفسها الانتشار الواسع ، والقراء العديدين . وحاولت جريدة الأهرام أن تضم رشيد رضا فى ذلك الوقت المبكر من تاريخه فى مصر الى أسرتها ، وعرضت عليه مكافأة سخية مقابل ما يكتبه لها . وكان رشيد رضا يتمتع بما سبق أن حصل عليه من شهرة فى ميدان الكتابة وجودة الانشاء ، أيام كان فى طرابلس الشام .

على أن هذا المصلح الشاب قد كرس نفسه لخدمة أمته ، لا يبغى لنفسه مكسبا ماديا ، أو عرضا من عرض الدنيا . وصار شغله الشاغل اخراج « المنار » ليكون علما تأتم به الناس فى العالمين العربى والاسلامى ، وليجعل منه صوتا يعلو ما جاوره وعاصره من أصوات ، بالحق والصدق والايمان . ولم يلبث التوفيق أن حالف رشيد رضا ، وفى سرعة خارقة للعادة . اذ بدأ فى الشهر التالى لوصوله مصر تحرير العدد الأول من المنار ، وأذهل أقرب المقربين اليه بما استطاع انجازه من عمل جبار . ففى أسبوع واحد انتهى من تبويب العدد الأول ، فضلا عن كتابة فاتحة ذلك العدد وهى أهم شطر فيه . وكتب رشيد رضا تلك

الفاتحة الرائعة « بقلم الرصاص فى جامع الاسماعيلى المجاور لدار الأستاذ (محمد عبده) بالناصرية ، وذهب بها الى داره فعرضها عليه ، فأعجبته جد الاعجاب » وكان الأستاذ الامام يعلم جدارة رشيد فى الانشاء ، ووصف ما اطلع عليه منها بقوله « أسلوب رفيع » برغم ان عادته جرت على استخدام « كلمته العرفية المصرية (موش بطال) لما يستحسنه من مقالات الجرائد » .

المنهج القويم

صدر العدد الأول من المنار صحيفة أسبوعية ذات ثمانى صفحات فى الثانى والعشرين من شوال سنة ١٣١٥ هـ / ١٧ مارس سنة ١٨٩٨ م . وحددت مقدمة هذا العدد الأول الأغراض التى تسعى اليها هذه الجريدة ، وهى نشر الاصلاحات الاجتماعية والدينية والاقتصادية ، واقامة الحجة على أن الاسلام ، باعتباره نظاما دينيا ، لا يتنافر مع الظروف الحاضرة . وأوضحت هذه الافتتاحية أيضا أن غاية رشيد رضا من انشاء المنار مواصلة السير على نهج العروة الوثقى ، وخاصة فى سعيها للقضاء على الخرافات والاعتقادات الدخيلة فى الاسلام ، ومحو الأفكار الشائعة عن القضاء والقدر ، وما دخل على العقائد من بدع الاعتقاد فى الأولياء ، وما تأتيه طرق المتصوفة من بدع وضلالات ، ثم الحض على ترقية التعليم العام ، واصلاح كتب التدريس وطرائق التعليم ، ودفع الأمم الاسلامية الى مباراة الأمم الأخرى فى جميع الأمور الضرورية لتقدم الأمم .

وتوضح المقتطفات التالية من مقدمة العدد الأول للمنـــار أسلوب رشيد رضا الرفيع ، ومنهجه القويم . اذ يقول فيها :

أما بعد : فهذا صوت صارخ بلسان عربى مبين ، ونداء حق يقرع من سمع الناطق بالضاد مسامع جميع الشرقيين ، ينادى من مكان قريب يسمعه الشرقى والغربى ، ويطير به البخــــار فيتناوله التركى والفارسى .

« يقول : أيها الشرقى المستغرق فى منـــامه ، المبتهج بلذيذ أحلامه ، حسبك حسبك فقد تجاوزت بنومك حد الراحة ، وكاد يكون اغماء أو موتا زؤاما . تنبه من رقادك ، وامسح النوم عن عينيك ، وانظر الى هذا العالم الجديد ، فقد بدلت الأرض غير الأرض ، ودخل الانسان فى طور آخر خضع له به العالم الكبير .

« فهذه الجمادات تتكلم بغير لسان ، وتكتب من غير قلم ولا بنـــان ، والوحوش حشرت مع الأنعام ، والمراكب تجوب السهوب والفيافى وتقترع الأعلام ، بل طارت فى الهواء تسابق الرياح ..

« لا يهولنك ما تسمع ولا يروعنك ما ترى ، واعلم أن هذا العصر عصر العلم والعمل ، فمن علم وعمل ساد ، ومن جهل وكسل باد ، « وما أريكم الا ما أرى وما أهديكم الا سبيل الرشاد » ..

فعليك بالعلم والعمل ، رض بهما نفسك ، وربّ عليهما ولدك ، فقد حل من لسانى عقدة الاعتقال والسكوت ، وأطلق قلمى من عقال الدعة والسكون ، استغراق بعض اخوتى وأخوتك فى النوم ، وغرق بعضهم فى بحار الوهم ، وجهل المريض منهم

بدائه ، ويأس العالم بمرضه من شفائه ، فأنشأت هذه الجريدة اجابة لرغبة من تنبهت نفوسهم لاصلاح الخلل ، ومشايعة للساعين فى مداواة العلل ، الذين أرشدتهم التعاليم الدينية ، وهداهم النظر فى الآيات الكونية الى أن اليأس من روح الله ، والقنوط من رحمته جل علاه ، هو عين الكفر والضلال ، وآية الخـزى والنكال ، فأحبّوا أن يعملوا لأمتهم ، ويقوموا بخدمة لملتهم ، فالجريدة تكون وصلة بينهم وبين الأمة ، تبعث بارشادهم روح الهمة فى أفرادها ، وتحيى ميت الغـيرة من نفوس آحادها ، وتجارى الحداة لدى السير فى مناهج الترقى ، وتنتصب (منارا) فى أخرات الشبهات ومجاهيل المشكلات » .

وحرص رشيد رضا على أن يعرض على الأستاذ الامام كل ما يكتبه من مقالات ، ويستمع الى توجيهاته وارشاده . ولما صدر العدد الأول من المنار قال الأستاذ محمد عبده لرشيد ، كان ينبغى أن تكتب فيه مقالة أخرى فى موضوع من الموضوعات الاصلاحية التى ذكرتها فى المقدمة ، فوعده رشيد رضا بأن يبدأ ذلك فى العدد الثانى . ولما صدر هذا العدد الثانى افتتحه بموضوع رائع طويل عنوانه « القول الفصل — محاورة فى سعادة الأمة » ، جاء صورة صادقة لمنهج رشيد رضا وآرائه الاصلاحية القيمة . وذهب رشيد رضا الى الأستاذ الامام ليعرض عليه هذا الموضوع ، وكان عنده الأستاذ الشيخ عبد الكريم سلمان ، الذى قرأ المقال كله ، والأستاذ الامام يسمع . وبعد الفراغ من قراءته أثنى كل منهما ثناء مستطابا عليه ، وقال الشيخ عبد الكريم لرشيد : انك لم تترك فى هذا

المقال شيئا يقال فى الموضوع . قال رشيد : وهذا كله مقتبس من مولانا الأستاذ . فقال محمد عبده : كلا اننى والله لم أتكلم معه فى شيء من هذا ! . فقال رشيد : وأنا لست بالمتملق ، انما أعنى اننى استفدت هذا المذهب ورويت هذا المشرب من قراءة جريدة العروة الوثقى .

وصار المنار بالتالى منذ صدر ميدانا ينشر آراء الأستاذ الامام محمد عبده ، ويساعد على شرحها لأكبر عدد من الناس ، وذلك بالتعاون الوثيق مع رشيد رضا . وقد أتاح هذا العمل فرصة طيبة لتنقيح المنهج الذى رسمه رشيد رضا ، والوصول به الى درجة الكمال فى سهولة ويسر . وأوضح رشيد رضا هذه الخطوات الجليلة قائلا عن علاقته بالأستاذ محمد عبده ، انهما كانا كروح واحدة فى جسدين . وكان الأستاذ يكاشفه بجميع أفكاره وأسراره ، ويعهد اليه بكتابة بعض المقالات فى الجرائد لتأييد رأيه وتفنيد آراء مخالفيه فى بعض المسائل أو الأعمال . وكان يعهد اليه أيضا فى بعض الأوقات بكتابة بعض النصوص أو الأحاديث . وصار المنار كما قال رشيد رضا بالنسبة للأستاذ محمد عبده « كأنه له ، حتى كان بعض الناس يظنون أنه هو الذى يكتب مقالاته المهمة . وكنت أسر بهذا » .

وعلى الرغم من اشتراك الامام محمد عبده فى توجيه منهج المنار ، فانه دأب على نقد رشيد رضا ، بما يهيىء له الافادة من خبرته ، والوصول الى الهدف السليم فى سلامة وطمأنينة . فقال

الأستاذ الامام فى نقد المنار ، انه يأخذ على رشيد رضا وتحريره للمنار ثلاثة أمور هى :

١ — الصراحة التامة والشدة فى اظهار الحق ، وذكر محمد عبده رأيه لرشيد قائلا له : انك كثيرا ما تبرز الحق عريانا ، ليس عليه حلة ولا حلى يزينه للناظرين ، ويهون قبوله على المبطلين . فينبغى أن تتذكر أن الحق ثقيل ، وقلما يكون للداعى اليه صديق ، وانه لابد من مراعاة شعور من يعرض عليهم كيلا يزداد اعراضهم عنــه .

٢ — أظهر الامام محمد عبده اعجابه بأسلوب رشيد رضا فى معالجة المقالات ، وخاصة ما جعله منها بأسلوب المناظرة . ولكن قال لرشيد مرارا : ان المنار فى موضوعه ولغته لا يفهم أكثر ما فيه الا الخواص ، فينبغى أن تتحرى من سهولة العبارة وقلة غريب اللغة فيها ما يقربه من أفهام جميع القارئين حتى العوام . واحترم رشيد رضا وجهة نظر الأستاذ الامام ، وأخذ يقلل من الغريب فى أسلوبه وكتاباته .

٣ — أشار الأستاذ الامام على رشيد بأن يبتعد المنار عن الخوض فى سياسة الدولة العثمانية فى بعض الأحيان ، وأن يقتصر كلية على الاصلاح الدينى والاجتماعى .

وأظهــر رشــيد ايمانا عميقا بالمنهج الذى رسمه لنفسه ، واستفادته من النقد البناء ، على النحو الذى تلقاه من الامــام محمد عبده . أما ما عــدا ذلك فانه مضى الى ســبيله لا يبغى الا مرضاة الله . واتضح ذلك حين بعث رشيد رضا بأعداد من

المنار الى أستاذه الشيخ حسين الجسر بطرابلس . اذ انتقد الأستاذ على رشيد آراءه فى بعض المواضيع التى تعلقت بالبدع والخرافات ، قائلا انه بذلك يبين عيوب المسلمين للافرنج وغيرهم . واستهل الشيخ الجسر كتابه لرشيد رضا بهذا النقد اللاذع : « ظهر المنار بأنوار غريبة ، الا أن أشعته مؤلفة من خيوط قوية كادت تذهب بالأبصار » .

ورد رشيد رضا على أستاذه فى خطاب من احدى عشرة صفحة قال فيها لأستاذه ، انه لا يزال يعد نفسه تلميذا له ، وانه وان كان نال شهادة العالمية والاجازة بالتدريس منه ، الا أن الأستاذ يعلم أن تلميذه ، من أول طلبه للعلم ، لم يكن يقبل شيئا لا يعقله ولا يقتنع به . ثم ذكر رشيد حججه على نقد أستاذه ، وختم خطابه قائلا له : فان كتبت الىّ ما يقنعنى بأنه خطأ رجعت عنه وأعلنت ذلك فى المنار . غير أن الأستاذ الجسر لم يرد على رشيد رضا ، ونشر نقدا للمنار فى جريدة طرابلس بقلمه ، ولكن غفلا من الامضاء . واضطر رشيد الى الرد مرة أخرى على ما نشرته جريدة طرابلس ، مما أدى الى الجفاء بينه وبين الأستاذ الجسر .

وتصادف أن حضر الشيخ الجسر الى القاهرة فى طريقه للحج . ودأب رشيد رضا على زيارته كل مساء ، وتقبيل يده . ولما كان يوم سفر الشيخ الجسر للحج خلا بتلميذه القديم ، الذى سأله النصح والارشاد . وهنا كرر الأستاذ نقده لرشيد وقال له : اننى أحب لك ما أحب لنفسى . فأجاب رشيد . ولكن هل الله تعالى يحاسبنى يوم القيامة بما أعتقد وأعلم ؟ أم بما تعتقد أنت وتعلم ؟

أقنعنى بما تقول بالدليل ليصير عقيدة لى وأرجع الى قولك . فقال الأستاذ لرشيد : أنت أهل علم وصاحب حجة ، وليس عندى لك غير ما قلته واكتفى رشيد بالصمت وردد فى نفسه قوله تعالى : « قل كل يعمل على شاكلته ، فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا » .

وهكذا ظل رشيد رضا شأن المصلحين المؤمنين مخلصا للمنهج الذى رسمه لنفسه فى المنار ، لا يقبل الا ما تؤيده الحجج والبراهين ، ويرفض ما عدا ذلك مهما كان مصدر النقد . وفى نفس الوقت أثبت هذا المصلح الشاب أنه قادر على الصمود أمام الأعاصير والأنواء ، لا يرهب أى شىء فى سبيل تحقيق أهدافه . وتجلت هذه الظاهرة منذ صدر العدد الأول من المنار ، وطوال حياة هذه الجريدة الغراء .

وعد ووعيد

ما كادت السلطات العثمانية وعلى رأسها أبو الهدى الصيادى تسمع بصدور المنار حتى بادرت الى منع تداوله فى الأراضى التابعة لها . فأصدر « رشيد بك » والى بيروت أمرا بناء على توجيه أبى الهدى الصيادى بجمع العدد الثانى من السنة الأولى للمنار واحراقه ؛ كما فعل نفس الشىء بدرى باشا متصرف طرابلس الشام . ولم يكتف أبو الهدى الصيادى بذلك وانما أوعز الى بدرى باشا وأعوانه بأن يؤذوا والد رشيد رضا واخوته ليحملوه على التخلى عن المنار واصلاحاته فيه . ثم كلفوا والد رشيد رضا

نفسه بالذهاب الى مصر ليحمل ابنه على مشايعة أبىْ الهـدى الصيادى . واضطر رشيد رضا أمام وساطة والده أن يكتب الى أبى الهدى الصيادى خطابا يخبره فيه أنه لا يبغى الا الاصلاح ، دون التعرض لشخصه أو للدولة العثمانية .

وبعث أبو الهـدى برده لرشيد ، وكشف فيه عن السبب الحقيقى لما انطوت عليه نفسه من كراهية للمنار ، وهو أن صاحبه من أتباع جمال الدين الأفغانى ، ومن السائرين على هدى تعاليمه . وجاء فى خطاب أبى الهدى لرشيد رضا ما يلى :

« أخـذت كتابا من والدكم ، وكتبت له الجواب فى بريد اليوم ، فكن ريض الخاطر طيب البال . نعم انى أرى جريدتك طافحة بشقاشق المتأفعن جمال الدين الملفقة .. وهو مارق من الدين كما مرق السهم من الرمية . وأراك تملأ جريدتك كل يوم بانتقاد الصوفية بأبحاث جلها ما هى من طريقتهم .. فلو أنصفت وخدمت دينك بغير هذه المواضيع واذا ألزمك طورك وقلمك بالتطرق فهنالك تنتقد أعمال الأمم السائرة من غير الاسلام انتقادا عقليا يستسيل لك القلوب ويرضى عنك ربك لكان أولى . ولما طاب قلبنا لك نصحناك والموعد الله فى كل غاية والسلام .

١٩ رجب سنة ١٣١٦ هـ .

وأدرك رشيد رضا بما لا يحمل على الحيرة ان سبب كراهية أبى الهدى له هو نشره آراء جمال الدين الأفغانى ، ومهاجمته لطرق الصوفية ، التى ادعى أبو الهدى انتسابه اليها . ولذا أجابه

بخطاب أوضح فيه أنه لا يكتب الا ما يعتقد أنه نافع ، وشرح له وجهة نظره فى كل من السيد جمال الدين والصوفية . وهنا لجأ أبو الهدى الى تجربة أسلوبه الذى سبق أن استخدمه فى اغراء جمال الدين الأفغانى ، وغيره من زعماء الاصلاح ، وذلك باجتذابه الى الآستانة ، ثم وضعه فى القفص الذهبى . فكتب أبو الهدى لرشيد رضا :

« ولدنا الروحانى الأديب الأريب الفاضل الشيخ محمد رشيد أفندى آل رضا المحترم .

أدعو لكم ولوالدكم بالخير والعافية ودوام التوفيق ، وجدا صرت ممنونا من تحريراتكم المرسلة . والمأمول من عناية الله وفضله أن يديم لكم التوفيقات فيما يرضيه . وقد حصل الآن قيد رؤس أدرنة من مراتب العلمية الشريفة لك ، فهى ان شاء الله أول الفيوضات ، ولا يجنحن لبالك أن ذلك لغوائش هذه الدنيا ، بل انى أعجبنى قولك واطمأن قلبى لصدقك ولبراءتك . وأرجو الله اصلاح شأنك فى الله كما هو مطوى فى كل من له للجناب الرفيع نسبه . وأوصى رفيقك بالثبات والاستقامة على ما يبيض الوجه حالة القدوم على الله ورسوله الأعظم صلى الله عليه وسلم وبحوله تعالى عند مجيئكم الينا ، وانفكاكم عن هذه العوارض الحاضرة الزائدة التى لا تنطبق على مجد النسبة نوعا ما . وان كان قصدكم حسنا فهنالك تنبلج فيكم أنوار نسبتكم بالتحقيق فى الطريق الأقوم تحت نظر سرّ الوجود صلى الله عليه وسلم ،

وتكون اذن خدمتكم للدين والمسلمين على النهج الشرعى الصحيح الأمين ، ومن لكم الدعاء ، وهو المطلوب منكم والسلام .

كتبه محمد أبو الهدى

١٦ شعبان سنة ١٣١٦ هـ .

وبادر رشيد رضا عقب قراءة هذا الخطاب بارسال رد الى أبى الهدى الصيادى أخبره فيه أنه لا يقبل الرتبة العلمية التى طلبها له ، وأنه من الذين لا يرغبون فى مناصب الدنيا ، وأنه لا يستبدل بخدمة المنار للأمة الاسلامية والعربية بديلا . ومن ثم لم يكن أمام أبو الهدى الصيادى غير التمادى فى محاربة المنار وصاحبه وأهله . فهجم أعوان أبى الهدى على أقارب رشيد رضا بالقلمون ، وضربوا أحد اخوته ليلا ، وانتزعوا منهم مسجدهم ، وحرضوا علماء طرابلس على الكتابة فى الجرائد فى ذم المنار وصاحبه . ولم تكتف السلطات العثمانية بذلك بل أرسلت جواسيسها الى القاهرة لتخريب المنار . وتصادف ان كان رشيد رضا فى طنطا ، ونجح الجواسيس فى سرقة جميع ما فى ادارة المنار . واضطر رشيد رضا أن يقترض من أحد الأصدقاء ، بمساعدة الامام محمد عبده ، خمسين جنيها لشراء ما فقد من جريدته ، ويتابع نشرها .

وبلغ اضطهاد الدولة العثمانية للمنار وصاحبه وأهله أشده فى السنة الثامنة من صدور المنار . اذ روّج جواسيس السلطان عبد الحميد أن والد رشيد رضا يتآمر مع محمد عبده لانشاء

دولة عربية ، منفصلة عن الدولة العثمانية . ومما يدل على بهتان هذا الافتراء أن محمد عبده كان اذ ذاك على فراش الموت ، بينما صوّرته الشائعات فى بيروت متنكرا ليؤسس الخلافة العربية فى سوريا . وكان يتولى بيروت حاكم طاغية هو خليل باشا ، وطرابلس حسن بك ، وهما من أشد أعوان السلطات العثمانية الاستبدادية . وأسرف هذان الحاكمان عندما راجت الشائعة السالفة فى تفتيش البيوت وأخذ الكتب والأوراق منها ، حتى صار الناس يحرقون كتبهم وأوراقهم بالنار ، ومنهم من كان يدفنها ، حتى أحرق فى سنة واحدة عشرات الألوف من المجلدات . وكان اقتناء المنار أو ما طبع بمطبعة المنار ، هو أعظم الذنوب وأثقل الأوزار .

ونال منزل رشيد رضا وآل بيته فى القلمون الكثير من الاضطهاد فى هذه الحملة التفتيشية الارهابية . اذ نهبوا ما فى الدار من الكتب ، وحبسوا اخوته المقيمين فيها ، ثم فرضوا حصارا شديدا على والد رشيد رضا ، حيث وضعوا حوله الحراس والخفراء دون أن يسمحوا له بالاتصال بأى شخص . وكان والد رشيد رضا قد حضرته الوفاة ، وهو فى هذا الحصار ، وتلك الحالة السيئة ، دون أن تسمح له السلطات باحضار أبنائه المسجونين ليراهم . وصعدت روحه الى بارئها ، وجنود العثمانيين رابضة أمام دار آل رضا بالقلمون « تدل ببأسها وشدتها ، وتمثل قوة الخلافة الحميدية وعظمتها ، ليعرف الشيخ المحتضر عجزه عن تأسيس خلافة عربية ، فى قرية القلمون !! » على نحو ما تهكم به رشيد رضا فى عرضه لتلك القرية .

مرحلة الانطلاق :

تأثر انتشار المنار فى السنوات الثلاث الأولى بموقف السلطات العثمانية العدائى منه . فكان يهرب فى بريد الدول الأجنبية ، ولم يزد عدد المشتركين فيه فى ختام العام الثالث عن الثلثمائة أو الأربعمائة . وحاول رشيد رضا جاهدا خلال تلك السنوات أن يعدل من تحرير جريدته بما يكفل لها مقاومة هـذا التيار الجارف . فبعد أن كان المنار فى السنة الأولى من حياته عبارة عن صحيفة أسبوعية تتضمن عدا المقـالات الخاصة برقيات الأسبوع ، صار المنار فى السنة الثانية مجلة شهرية . وأخـذت هذه المجلة تنشر مقالات كثيرة عدا ما نشره رشيد رضا لكبار الكتاب فى مصر وعلى رأسهم الأستاذ الامام محمـد عبـده وتلاميذه ، ممن اشتهروا بالغيرة وحب الاصلاح .

ومنذ السنة الثالثة للمنار أيضا أفردت المجلة ، الى جانب المقالات التى تعالج الاصلاح فى نواحيه المختلفة بابا خاصـا لنشر تفسير الشيخ محمد عبده للقرآن ، وبابا آخر أنشأه رشيد رضا ، نشر فيه الفتاوى ، أو الاجابة على أسئلة فى أمور اعتقادية أو فقهية تلقاها المحرر من مراسليه ، وربما لشرها على هـذا الاعتبار ، وهى فى الواقع من وضعه ، أخذا بما رسمه فى فن التحرير . وأفرد المنار أيضا أقساما لأخبار الأمم الاسلامية المختلفة ، وللكلام عـلى ما صـدر من الكتب والمطبـوعات ، وتعريف القراء بها .

ولم تلبث ثمار الجهاد أن بدأت تنضج . فمنذ السنة الخامسة للمنار أخذ توزيعه يكثر ، وخاصة بفضل الأستاذ محمد عبده . اذ تضاعف قراء المنار فى مصر بسبب المقالات التى كتبها فيه الأستاذ محمد عبده تحت عنوان « الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية » . ثم عزّز رشيد رضا هذه المقالات بنشر أهم آراء كبار المصلحين مثل الكواكبى ، حيث تابع فى المنار نشر كتاب « سجل جمعية أم القرى » الذى وضعه هذا المصلح العظيم . وصار المنار يشق طريقه فى انطلاق ، ولا سيما أن العلماء والباحثين لجأوا اليه مرارا ، واستندوا الى مقالاته لتعزيز دراساتهم .

ومن أشهر الباحثين الذين ناصروا المنار فى سنواته الأولى ، أو ممن اعتمد عليه فى أبحاثهم أحمد فتحى بك زغلول رئيس محكمة مصر الأهلية اذ ذاك . اذ ترجم كتابا قدم له بكثير من الآراء التى نقلها عن العدد الأول من المنار . ولما ذاع هذا الكتاب بين رجال القضاء أكبروا المنار ، وبادروا الى الاشتراك فيه . وذكر رشيد رضا عن هذا الموضوع فى مذكراته : « وأخص طنطا بالذكر فى هذا المقام ، فقد كان أكثر المحامين الراقين فيها من مشتركى المنار وأنصاره . وكان الداعى لهم الى ذلك أحدهم مصطفى بك الباجورى ، من أصدق مريدى الأستاذ واخوانه . وكان هو الوكيل على أطيان سعد بك زغلول ، وكان يكتب فى حساب نفقاتها اشتراكه فى المنار » . وأسهم الأستاذ محمد عبده نفسه فى الترويج للمنار ، وتقريظه لكل من يقابله ، حتى فى أسفاره ،

وصارت هذه الجريدة فعلا لسان حال الأستاذ الامام ، وأكبر سبيل لنشر تعاليمه فى سائر أرجاء العالم الاسلامى . ولمس الأستاذ الامام نفسه هذه الحقيقة عندما زار تونس والمغرب سنة ١٩٠٣ م ، وشاهد ترديد الناس لتعاليمه وتفسيره نقلا عن المنار .

وفى سنة ١٩٠٥ أى بعد ثمانية سنوات من صدور المنار صار أسلوبه فى الكتابة نموذجا تحتذيه كثير من الصحف ، كما اتخذه كبار الكتاب منهجا يسيرون على منواله . ولم يأت العام الثانى عشر للمنار الا وقد تدعمت مكانته ، وتنافس الناس فى اقتناء أعداده ، القديم منها والحديث ، حتى بيعت النسخ الباقية من العدد الأول بأربعة أمثال ثمنها الأصلى ، كما أعيد طبعه للمرة الثانية . وكان رشيد رضا بعيد النظر حين احتفظ بالأعداد الأولى للمنار ، وأدرك أن الناس سوف يقبلون عليه يوما ما . وشرح وجهة نظره قائلا :

« اننى لم أنشىء المنار ابتغاء ثروة أتأثلها ، و لارتبة من أمير أو سلطان أتجمّل بها ولا جاه عند العامة أو الخاصة أباهى به الأقران ، وأبارى به أعلياء الشأن ، بل لأنه فرض من الفروض يرجى النفع من اقامته ، وتأتم الأمة كلها ببركته ، فلم أكن أبالى بشىء الا قول الحق والدعوة الى الخير ..

« طبعت من الصحف الأولى ألفا وخمسمائة نسخة من كل عدد ، وأرسلت أكثرها الى من عرفت أسماءهم فى البلاد المصرية والسورية ، وكذا فى غيرها من البلاد ، فأعيد أكثر ما أرسلته ..

« ما كان انتقاص عملى ، منتقصا شيئا من أملى ، ولا زهد الأمة فى المنار ، باعثا على جعله طعاما للنار ، ولا لفائف لبضائع التجار ، كما هى سنة أصحاب الصحف فى هذه الديار (أى مصر) ، بل كنت أحرص عليه ، حاسبا أن النـــاس سيعودون اليه » .

واشتهر اسم رشيد رضا ، صاحب المنار ، ليس فى العالم العربى فحسب ، بل وفى العالم الاسلامى كذلك ، وعدد من بلاد أوربا نفسها . فجاءه العلماء من الشعوب المختلفة يستزيدون من علمه ، ويسألونه عما يصعب عليهم فهمه . وأرسلت اليه « جمعية العلوم الروحانية والأبحاث النفسية » بمملكة رومانية العظمى خطابا فى أول يناير سنة ١٩٣٣ تذكر فيه اختياره عضو شرف فيها . وبدأ المستشرقون وغيرهم من الباحثين الأوربيين فى تأثير الكتب العربية فى العالمين الاسلامى والعربى يشيدون بأثر المنار ، وكثرة أتباعه . اذ غدا للمنار مريدون وتلاميذ فى بلاد العـــالم الاسلامى كله ، وفى بلاد شمال أفريقيا الفرنسية وأندونيسية .

وعبّر أحد المستشرقين الهولنديين عن أثر المنار قائلا :

« ولم يشرق (منار) القاهرة على المصريين وحدهم ، ولكنه أشرق على العرب فى بلادهم وفى خارجها ، وعلى مسلمى أرخبيل الملايو الذين درسوا فى الجامعة الأزهرية ، أو فى مكة ، وعلى الأندونوسى المنعزل الذى ظل محافظا على علاقاته بقلب العـــالم الاسلامى بعد عودته لبلاده النائية ، على حدود دار الاســـلام :

هؤلاء جميعا رأوا الاسلام على نور جديد ، لم يروا فيه مثالا للتشدد والجمود ، ورأوه لا يزال الدين المختار بين الأديان ، وحامل المثل العليا لكل زمان مضى ، والمثل الجديدة لكل زمان آت ، وهو شاب متجدد الشباب ، حامل لواء كل تقدم ، شديد فى تسامح ورفق وأصبح الذين اقتبسوا من نور (المنار) فى مصر (منارات) صغرى فى أندونيسية بعد أن عادوا اليها »

الفصل الثامن

الفحص والتشخيص

المذهب السليم

أنشأ رشيد رضا مجلة المنار لبث أفكاره فى الاصلاح الدينى والاجتماعى والايقاظ العلمى والسياسى. واستطاعت هذه الجريدة فى مدة وجيزة أن تصبح المجلة الشرعية الأولى فى العالم الاسلامى، وموئل الفتيا فى التأليف بين الشريعة والأوضاع العصرية الجديدة. ويرجع الفضل فى وضوح آراء المنار وسرعة انتشاره الى حسن قيام رشيد رضا على تنمية التراث الذى آل اليه من جمال الدين الأفغانى وما تلقاه فى صحبة الامام محمد عبده، ثم ما هداه اليه علمه وتجاربه الخاصة. فالمعروف أن السيد رشيد رضا أخذ عن الامام الشيخ محمد عبده، وأخذ الشيخ محمد عبده عن فيلسوف الشرق جمال الدين الأفغانى، فكانت روح كل من الاثنين مستمدة من روح أستاذه، وهى روح اصلاح وتجديد فى الاسلام، وتأليف بين شروط الدين والدنيا.

واعتقد هؤلاء الأقطاب الثلاثة أن هذا المذهب الاصلاحى الجامع بين الرجوع الى عقيدة السلف وبين الارتياح الى المتجددات

العصرية هو المذهب الذى سيكون المعول عليه فى الزمن الآتى .
« وهؤلاء المصلحون الثلاثة — كما قال شكيب ارسلان — هم لات هذا الرأى وعزاه ومناته ، والذين بهم سطعت براهينه وبيناته » . غير أن رشيد رضا استطاع أن يبلور هذا الرأى ، ويجعل « المنار » منبرا له بفضل مزية الكتابة التى سبق بها أستاذيه العظيمين . فبينما آثر كل من جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ايقاظ الهمم عن طريق الخطابة والمحادثة ، انصرف رشيد رضا بكليته الى أعمال القلم ، وصار يكتب فى الساعات ما لا يقدر أن يسوده غيره فى الأسابيع .

وكان رشيد رضا يبهر المعاصرين له برسوخ قدمه فى مختلف العلوم . وكان اذا أمسك بالقلم تدفق نحوا وصرفا ولغة وبيانا وبديعا وفقها وحديثا وتفسيرا وتوحيدا وفروعا وأصولا ، وكل ذلك فى نسق واحد ، وكأنما هو متخصص فى كل علم على حده وساعدته دراسته فى الحديث على تنمية خلق التمحيص لديه ، حتى انه لم يعد يطمئن لما يكتب الا اذا وثقه بأسانيده وآمن بأمانة رجاله . ولذا اكتسب المنار سمعة عالية بين القراء فى أنحاء العالم ، وصار معلمة اسلامية لا يستغنى عنها أحد .

ودعم مكانة المنار وقوة أبحاثه أن رشيد رضا أصدره فى الشهر التالى لهجرته الى مصر (شعبان سنة ١٣١٥ هـ) ، وظل يجول فيه ويصول الى سنة ١٣٥٤ هـ أى ما يقرب من أربعين سنة ، بلا ملل ولا فتور . فكان آخر ما طبع من المنار هو أكثر الجزء الثانى من المجلد الخامس والثلاثين فى ٢٩ ربيع الثانى

سنة ١٣٥٤ هـ ، ووزع الجزء الثانى بعد وفاة رشيد رضا . ولذا صار المنار هو الينبوع الصافى لآراء رشيد رضا ، والمرجع الأول والأوفى لمذهبه الاصلاحى . فعلى الرغم من كثرة مؤلفات هـذا المصلح العظيم ، فان معظمها دراسات ، أما وسع دائرتها فى المنار ، أو سبق أن نشرها فى جريدته ، ثم جمعها ونقحها بما يكسبها طابع البحث الكامل الأركان .

ولخص رشيد رضا مذهبه الاصلاحى فى الأعداد الأولى من مجلة المنار ، والتى امتدت تقريبا الى السنة الثانية عشرة من عمر هذه الجريدة ، أى الى سنة ١٩١٢ م . أما سائر المقالات الأخرى التى حررها فى أعداد المنار الى نهايته فهى اما افاضة فى شرح ما سبق أن تناوله بايجاز أو بالدراسة العامة . فاشتملت المقالات الافتتاحية خاصة فى السنوات الأولى للمنار بينات مجملة فى الاصلاح ، وارشاد المسلمين الى النظر فى سوء حالهم ، وتذكيرهم بما فقدوه من سيادة الدنيا وهداية الدين ، وما أضاعوا من مجد آبائهم الأولين .

وشرح رشيد رضا وجهة نظره فى هذه الطريقة لمعالجة مقالاته الاصلاحية فى المنار قائلا : « قد اقتبسنا أسلوب الاجمال قبل التفصيل ، وقرع الأذهان بالخطابيات الصادعة من القرآن الحكيم ، فان أكثر السور المكية لا سيما المنزلة فى أوائل البعثة قوارع تصخ الجنان ، وتصدع الوجدان ، وتفزع القلوب الى استشعار الخوف ، وتدع العقول الى اطالة الفكر .. تدبر هذا ثم أجل طرفك فى فاتحة المنار الأولى وفى أكثر المقالات الافتتاحية تجدها

زواجر منبهة ، وبينات فى الاصلاح مجملة .. وما جاء فى سائر السنين فهو من قبيل التفصيل أو اقامة البرهان والدليل على تلك الدعوة الاجمالية ، والمقالات الافتتاحية ، وترى بهذا كله اقتباس المنار لهدى الكتاب العزيز واتباعه لسنته فى الترتيب كاتباعه له فى المسائل والأحكام والحمد لله على ذلك .

القول الفصل :

وأول الاصلاحات التى جعل رشيد رضا من المنار منبرا لها طوال عمره المديد هو ضرورة تغيير الصورة التى ألفها المسلمون عن دينهم ، اذ يعتقدون أن هذا الدين به سرا روحانيا يمدهم بالنصر والقوة بصرف النظر عن خلقهم وأعمالهم . ولكن نادى رشيد بأن على المسلمين أن يعلموا أن قيمة الدين ليست فى أسراره الروحية أو قواه الخافية ، ولكنها تكمن فى الحقيقة التى يعلمها للانسانية وهى أن سعادة المرء فى هذه الحياة والحياة الأخرى تتوقف على معرفته سنن الله التى تضبط رقى البشر ، أفرادا وجماعات . ويجب على المسلمين أن يدرسوا هذه السنن ، وأن يسيروا عليها فى يقين وايمان ، وأن يعلموا أن الله لا يمنع خيرات العالم عن أولئك الذين يطلبونها بالطرق الصحيحة ، سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين .

واتبع رشيد رضا فى عرض هذه الآراء أسلوب الحوار الذى أعجب به أستاذه الامام محمد عبده . اذ جعل رشيد من هذه الطريقة فى معالجة المواضيع بلورة للأفكار والمبادىء التى سبق أن نادى وجاهد من أجلها كل من سلفية العظيمين جمال الدين

الأفغانى ، ومحمد عبده ، وصار القارىء يرى صورة واضحة المعالم ، بفضل ما أضافه رشيد رضا اليها من خبراته وثمرة تجاربه. وأجاد هذا المصلح الشاب عرض أمراض الأمة عرضا دقيقا ، وفى اعتداد بالنفس ، وذلك فى احدى دراساته ، « القول الفصل فى سعادة الأمة » .

استهل رشيد رضا هذه الدراسة بأن تخيل عالما شابا كرس جل حياته ووقته للبحث فى أسباب انهيار الأمم ورقيها ، وأخذ يطلع على كل ما يصل الى يده من كتب التاريخ كما تجول فى الأرض شرقا وغربا ، وخالط الأمم عجما وعربا ، واختبر العادات والفنون ليصل الى الحقيقة الخالصة . ويحتمل أن رشيد رضا جعل من هذا الشاب الخيالى البحاثه مرآة يعكس عليها ما جاشت به نفسه من آراء ، وما دار فى ذهنه من تشخيص لأمراض الأمة الاسلامية . فأوضح أنّ الطالب الباحث خرج من تجواله ودراساته بأن « الاستعداد الفطري والقوى الطبيعية فى تلك الأمم واحدة وأن اختلاف الحالات لم يأت من اختلاف المدارك والتفاوت فى الاستعداد ... وانما جاء من أمور عارضة وظروف خارجية .

وبلغ رشيد رضا الاجادة فى عرض تلك الأمور المسببة لتأخر الأمم حين تخيل اجتماع الطالب الباحث بأهل وطنه بعد أن عاد من تجواله . وبدأ يجذب انتباههم الى ما يريد اخطارهم به من أسباب مرضهم وطرق الخلاص منه . اذ عمد الى تحرير مواطنيه من سوء فهمهم لعقيدة القضاء والقدر ، وهى القضية التى سبق أن أسهم فى حلها كل من أستاذيه جمال الدين الأفغانى والامام

محمد عبده . اذ حين بدأ الباحث يسرد على مواطنيه موضـــوع سعادة الأمة ، اعترضه نفر من مواطنيه قائلين له : « ان الكلام فى هذا الموضوع يتعب البال ويزعج الخاطر ، وهو عبث لا يفيد شـــيئا ، فان الأمر كله لله وليس لارادة النـــاس أثر فى أعمالهم ، ولا لأعمالهم أثر فى منافعهم » .

وهنا أجابهم الباحث العالم بأن هذا القول يؤكد أنهم يؤمنون بلفظ الاختيار دون معناه ، وأن الجهل بالقضاء والقدر وفهمه يفضى بالمرء الى التهلكة من حيث لا يدرى . وضرب لهم مثلا أنه حين زار مصر وشرح لفرد من أهلها مصلحة وطنية ، اتكأ المواطن على عكاز الجبر وقال « هو بيدنا ايه » ، وعنـــدما ذهب الى سوريا ، سمع نفس القول ، حيث استند السورى على هـــذه العصا أيضا وقال « شو طالع باليد » . وزاد الباحث قوله وضوحا مبينا أن العلماء الباحثين فى مسائل الجبر والقدر قصروا أنظارهم على مفهومات هذه الألفاظ وتفلســفوا فيها ولم يلتفتـــوا الى ما تحدث هذه العقائد فى الارادة من الآثار ، وما يتبع تلك الآثار من الأعمال ، وما ينشأ عن تلك الأعمال من ضعف أو قوة .

وأخيرا رأى العالم الباحث أن يشرح لمواطنيه القول الفصل فى سعادة الأمة ، بأن يلقى عليهم أولا مجموعة من الأسئلة ، كلها تتعلق بهذا الموضوع ، ثم يناقشهم فيها ، طالبا منهم الجواب ، على شرط أن يكون جوابا واحدا هو الأصل الذى يتفرع عنه كل الحلول السليمة . وسرد رشيد رضا على لسان هذا العالم الباحث

المجموعة التالية من الأسئلة التى هى فى الحقيقة فحص وتشخيص دقيق لأمراض الأمة الاسلامية :

١ — ما هو الناموس الذى يحصل به الجذب والانجذاب بين العناصر المتفرقة ، ويحكم الالتصاق بين أفرادها فيكون المجموع أمة واحدة .

٢ — أى شىء يمحو من نفوس أفراد الأمة الأثرة والاختصاص بالمنافع دون قومهم ويثبت فيها حب الوطنية .

٣ — اذا اعتقدت الأمة بأفرادها انحطاط المدارك وضعف العقول وعدم الاستعداد الفطرى لاحتذاء الأمم الأخرى فيما جاءت من عجائب الصناعات ... فأنّى يكون تنبيهها الى ما أودع فيها من القوى الطبيعية .

٤ — اذا تمكن فى النفوس اليأس من التقدم والقنوط من الترقى لاعتقاد أن زمن التدارك قد فات ... فغلّت لذلك الأيدى عن العمل كأنما هى مشلولة ... فبماذا تنزع الأغلال وتنعم النفوس بحلاوة الرجاء بعد مرارة اليأس .

٥ — اذا حاول بعض أهل الثراء أن يحتذى شاكلة السابقين ويتلو تلو الشعوب المتمدنة ، فأنشأ يقلدهم فى أحوال معيشتهم ... فكيف يمكن اقناع هؤلاء بأن هذا التقليد تذفيف على جرح الأمة واجهاز على حياتها ، وان التقليد النافع انما يكون فى خدمة المعارف .

٦ — كيف تحافظ الأمم على أديانها ولغاتها وعوائدها النافعة اذا كانت مهددة من أمم أخرى بحكم ناموس تنازع البقاء .

٧ — كيف يمكن التفلت من شراك العادات الرديئة وأحابيلها .

٨ — ما هو الغاسول المطهر للأذهان من أقذار الوساوس والأوهام التى توقع فى الخوف مما لا يخيف ورجاء ما لا يفيد .

٩ — ما هو العلاج الذى يستأصل جراثيم الفساد والدواء القاتل « لميكروب » الأدواء الروحية .

١٠— بماذا تحصل الثروة للأمم .

١١— ما الوسيلة لتحسين الزراعة بحيث تفيض الأرض بالخيرات والبركات .

١٢— ما الذريعة الى اتقان الصناعة وتوسيع دائرتها .

١٣— ما هى الطريقة للتصرف بأساليب التجارة التى عليها مدار الثروة الأكبر .

١٤— بماذا تحرز الأمم القوة والمنعة وتعقد على ألويتها الغلبة والظفر .

١٥— كيف يسهل على نفر قليل الاستيلاء على شعب كبير يصرفونه فى مصالحهم ويستخدمون أفراده فى منافعهم ويستعملونه كما تستعمل الدواب والأنعام .

هذه هى الأسئلة التى طرحها رشيد رضا باعتبارها تشخيصا

لحالة الأمة ، وجعلها على لسان الطالب الباحث وسيلة لايقاظ المواطنين ، وحثهم على الاجابة عليها . وبدأ السامعون كما تخيلهم رشيد رضا يجيبون السائل ، بما سبق أن طلب منهم ، وهو أن تكون الاجابة قاصرة على عامل واحد ، هو أصل يتفرع عنه كل علاج لتلك المشاكل . فألقى بعض أولئك السامعين بسبب هذه المتاعب كلها على الحكام والحكومة . ولكن السائل دحض هذه الاجابة مبينا أن الحاكم ليس الا رجلا من الأمة ، يصلح بصلاحها ويفسد بفسادها . وأجابه فريق آخر بأن الطريق الوحيد لانهاض الأمة هو تسلم أزمة أمورها الى رجال من ساسة تلك الأمم . ولكن السائل اعترض على ذلك بأن هذه الخطوة تؤدى الى وضع السلطة المطلقة فى يد نفر قليل من الشعب وسد الثروة عن أبناء الوطن .

وأخيرا قال نفر ثالث من المستمعين أن الجرائد الحرة هى التى تنبه أفكار الأمة وتنير عقولها بنشر المعارف وترشدها الى التحلى بالفضائل والتخلى عن الرذائل . ولكن السائل انتقد تلك الاجابة أيضا قائلا ان الجرائد هى مساعدة على الاصلاح اذا صدقت وأخلصت ، وأفضل عملها ايصالها أفكار الطبقة العاقلة من الأمة الى سائر الطبقات تحت مبدأ واحد شريف . وعندئذ طلب السامعون من السائل أن يذكر لهم الاجابة الصحيحة الشافية ، حسبما هداه اليه تجواله ودراساته وخبراته . وهنا قال السائل : ان الجواب الصحيح الذى قلت انه وسيلة لسعادة الأمة ، تجمع كل الوسائل ، وسبب يرجع اليه جميع الأسباب هو « تعميم

التربية والتعليم » . وهذا اللفظ تلوكه الألسن كثيرا الا أن معناه لم يعط حقه من التبصر والتأمل .

البدع وسلطة رجال الدين

وقبل أن يتابع رشيد رضا شرح العلاج الذى قال انه هو السبيل الوحيد للقضاء على العلل السالفة الذكر ، رأى أن البحث يتطلب الاشارة الى مفاسد أخرى خطيرة مرتبطـة بتلك العلل ارتباطا وثيقا . وأسهب رشيد رضا فى تعداد هذه البدع ، وخاصة ما اتصل منها بعامة الناس ، الذين هم السواد الأعظم للأمة ، والقاعدة الأولى التى ينبغى أن يتجه اليها الاصلاح ورجـاله . وركز حملاته على المنكرات التى تسود الموالد الدينية ، لأنها هى الثغرة التى أبعدت الناس عن الدين القويم ، والوسيلة التى قبض بها رجال الدين العابثين على أزمة السلطان ، ووأد كل حرية للفكر ودعوة للاصلاح .

وعالج رشيد رضا هذا الموضوع فى ست مقالات رائعـة مستفيضة تحت عنوان « ربنا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا » . ذلك أنه سبق أن مارس الحياة الروحية ، وعرف غثها وثمينها ، كما تصدى لمعالجة البدع فى وطنه المحلى بالقلمون. ثم انه أضاف الى تلك الأبحاث مادة طريفة من مشاهداته وما تعرض له شخصيا فى تلك السبيل . فقال عن بدعة الموالد وما يجرى فيها:

« تدخل المسجد فترى سوادا عظيما ، وتسمع جلبة وضوضاء. ترى أناسا قد وضعوا فى أعناقهم السلاسل والأغلال ، بعضهم عار وبعضهم يلبس الأخلاق والأسمال ، وقد تجسدت عليهم الأدران

والأقذار ، ولبدوا شعورهم المضفورة حتى لا ينفذها المـاء ، والحشرات ترتع فى أجسادهم ... وقد قاموا الى الذكر ، وما كان ذكرهم الا همهمة ودمدمة ، حمحمة وجمجمة ، تشوبها صيحات ونبآت ، وتخالطها شهقات وزفرات ، ويعلوها مكاء (صفير) وتصدية (تصفيق) ، ويتخللها أوامر ونواه ودعاو طويلة عريضة وتهذار وهذيان ، ويعقبها نوبات صرع واغماء ، يشترك فى ذلك كله النساء والرجال ، والشيوخ والأطفال . هـذا هو حـزب « الأولياء » الذاكرين .

وثم أحزاب أخرى ، فمنهم المتصدرون للرقى والتمائم وشفاء الأمراض والأدواء ، ومنهم العرافون المتصدون لبيان ما غاب علمه عن الناس من مصالحهم الدنيـوية ، المبشرون البائسـين بزوال بؤسهم والانتصار على أعدائهم . واذا تطلع المرء الى مقصورة « الوالى » المدفون بضريحه بالمسجد ، ترى أن قبره صار كعبة ثانية ، تطوف بها الناس كما تطوف بالكعبة ، ويزيدون على ذلك الدعاء وطلب الحوائج ، معتقدين أن الولى هو الذى يفعل ذلك بنفسه .

وقال رشيد رضا انه شاهد بعينيه وليّة صبيحة الوجه ، وفى معصميها أسورة ، وفى أصابعها خواتيم وفى عنقها عقود ، وقد جمع رأسها الى رأس رجلين والتفت الأيدى على الأعناق فكان عناقا مثلثا .. ورآى منهن فتاة مدت يدها لمصافحته ، فأعرض عنها، فوثبت عليه كالثعبان وقبلته فى وجهه قبلات متتابعة .

وانتقل رشيد رضا بعد هذا الوصف الدقيق الى القاء مسئولية انتشار هذه البدع الى تهاون رجال الدين والعلماء . وهنا وقف وقفة الطبيب الماهر يحلل هذا النفر من الناس من أصحاب السلطة الروحية ، ويذكر لهم تاريخهم وما تطرق اليهم من فساد ، لعلهم بذلك يستطيعون أن يتبينوا معالم الطريق القويم . فقال : « نعني بالسلطة الروحية سلطة العلماء والوعاظ والمتصدين للارشاد وتهذيب الأخلاق وتقويم الملكات » . ثم أخذ يوضح لأولئك العلماء أن فى سكوتهم على تلك البدع ، مع بروزها بالصبغة الدينية طامة كبرى . ونادى بأن كل عالم لا ينهض لحرب تلك البدع انما هو مقصر فى رسالته أو غير جدير بعلمه . وهاجم كذلك أولئك العلماء الذين ظنوا أن تلك العادات السيئة قد رسخت بمرور السنين ، ولم يعد يفيد الوعظ والتنبيه .

وتوسع رشيد رضا فى هذا البحث القيم ، لأنه سبق أن ألّف فى موضوعه قبل هجرته الى مصر « كتاب الحكمة الشرعية فى محاكمة القادرية والرفاعية » . فأخذ ينشر فى مجلة المنار مقدمة هذا الكتاب — ولم يكن قد سبق له نشره — وكذلك فصولا رائعة منه توضح ارتباط تلك البدع بما طرأ على طرق الصوفية من مفاسد ، وابتعاد عن السبيل السوى . ومن ثم صارت المقالات الافتتاحية التى عالج فيها رشيد رضا أسباب انتشار البدع عند المسلمين ، عنصرا مهما فى تشخيص المرض الذى أوهن من قوى أمتهم ، وكان سببا فى تأخرها عن ركب الحضارة .

ولخص رشيد رضا تسلل الفساد الى الطرق الصوفية فى

النقط التالية الرئيسية : كان المسلمون فى صدر الاسلام لهم الحرية فى فهم الكتاب والسنة ، ولم يدع فرد من الأفراد الامتياز لنفسه فى الدين أو الوساطة بين الله وبين سائر الناس . وظل الأمر على ذلك حتى ظهرت فى الأمة فرقة الصوفية العظيمة وتصدى شيوخها للارشاد والتربية العملية . وكان الأمر حتى ذلك الوقت سليما ، حيث اهتدى بتلك السلطة الروحية أقوام كثيرة . ولكن أعقب أولئك الشيوخ العارفين شيوخ جهال ألقوا بذور الضلال فى نفوس أتباعهم فنبتت وأثمرت ثمرا خبيثا تجنى منه الأمة حنظلا . ولم يقف الأمر عند هذا الحد الخطير ، وانما علم أولئك الشيوخ أتباعهم أن يستعينوا بهم فى مصالحهم بحجة أنهم أصحاب كرامات وشفعاء عند الله .

وأوضح رشيد رضا خطورة هذا النفر من علماء السوء عندما قام الشقاق بين القادرية والرفاعية ، نتيجة محاولات أبى الهدى الصيادى ربط نفسه بالرفاعية . فأوضح فى مقدمة كتابه « الحكمة الشرعية فى محاكمة القادرية والرفاعية » كيف أن هذا النفر من أصحاب السلطة الروحية قد « دب اليهم داء الأمم قبلهم ، ففسدت أخلاقهم ، وخبثت أعمالهم ، تحاسدوا على الأعراض البالية وتنافسوا فيها ، وتباغضوا فى الأعراض الخسيسة وتهالكوا عليها ، تلامذوا وتنابزوا بالألقاب ، وتباروا وتفاخروا بالأنساب .. فطن بعضهم بدين بعض ، وغض من طريقته أى غض ، ابتغاء الفتنة وسفك الدماء ، وطلبا للبأساء والضراء ، فتبت يدا الجاهل » .

وكان هذا الكتاب هو السبب فى عداء أبى الهدى الصيادى

لرشيد رضا ، وسر كراهيته للمنار ومنع دخوله فى بلاد الدولة التابعة للعثمانيين .

الجاهل عدو نفسه وأمته

وبلغ رشيد رضا درجة الأستاذية فى تشخيص الأمراض الناجمة من البدع السالفة الذكر ، عندما أوضح أن جهل شيوخ الطرق الصوفية لم يقف عند الوساوس الدينية ، وانما استعملوا نفوذهم لخدمة سياسة الأجانب وتمكينها من الاستيلاء على أمتهم. فروى فى احدى مقالاته كيف تسلل الاستعمار الفرنسى الى الجزائر عن طريق خداع شيوخ الطرق الصوفية فى تلك البلاد . فقال : « لما رأى الفرنسيون عند تداخلهم فى الجزائر نفوذ شيوخ الطريقة التيجانية الروحى وشدة خضوع العامة ، وتسليم الخاصة لهم اكتنهوا شئونهم ، فألفوهم قد اتخذوا هذه الرياسة وسيلة للمال والجاه وذريعة للمكاثرة والمفاخرة ، وظهر لهم امكان استخدام هذا النفوذ لمد ظلال فرنسا وتمكين سلطتها فى تلك البلاد ، وكذلك كان .

وتابع رشيد رضا تشخيص هذا المرض الخطير موضحا أن رؤساء هذه الطريقة ساعدوا البعوث الفرنسية التى سبقت الاستعمار ومهدت له فى الصحراء الكبرى والسودان الغربى ، كما هيأوا لهم سبل الاستقرار فى الجزائر وتونس ، كما أنهم خذلوا الأمير عبد القادر فى محاربته للفرنسيين . واستطاع عملاء فرنسا أن يحصلوا من أولئك الشيوخ الجهال على فتوى تلقى

الرعب فى نفوس المحاربين وتثبط عزيمتهم ، مؤداها : « ان الخوف من الفرنسيين هو الخوف من الله تعالى » .

وأثبت رشيد رضا أنه واسع الاطلاع فى معالجته لهذا الموضوع الخطير . فنقل عن رسالة لأحد الفرنسيين فى مجلة « العالمين » الفرنسية بعددها الصادر فى أول مارس سنة ١٨٨٦ ، أساليب التسلل الاستعمارى الفرنسى عن طريق التيجانية . فقال هذا الفرنسى : « وان كان من الحكمة والرشد أن يدخل بعض رؤسائنا العارفين بلغة العرب فى زمرة الطريقة التيجانية توصلا للفوائد السياسية التى تنتج من ذلك .. وجب أن نقف فى طريق أخذ العهود عند الحد الملائم المقبول والا صرنا واياهم (أرباب الطريقة التيجانية) فى موضع هزؤ وسخرية أمام أعين العرب أجمعين » .

ثم تكلم هذا الفرنسى عن الشيخ السنوسى وما يجب اتخاذه من الوسائل لمقاومته وتشتيت طائفته ، بأن قال ما نصه : « يلزم أن يكون على حدود مستعمراتنا رجال من أصحاب الدهاء والخبرة التامة بأحوال الطوائف الاسلامية الذين يعلمون دخائلها وعيوبها ليستعملوا كل خلل يجدونه لصالح وطننا » وبذلك دق رشيد رضا ناقوس الخطر عاليا عن مفاسد الطرق الصوفية فى الداخل والخارج ، وأظهر علنا المرض الوبيل الذى نقلوه الى أمتهم الاسلامية .

وتطرق رشيد رضا من هذا الموضوع الى معالجة مشكلة أخرى خلقها الاستعمار للحط من قوى العالمين الاسلامى والعربى ،

وابعاد أهلهما عن تقاليدهم القويمة وخلقهم السليم . وناقش هذه المشكلة فى مقال بعنوان رائع هو « الجيوش الغربية المعنوية فى الفتوحات الشرقية » . فقال رشيد فى هذا المقال ان الغرض من الفتوح والاستعمار هو تكثير المال وتنمية الثروة ، وان الغربيين لما علموا أن الحروب تتلف الثروة ، وقد يستوى فى خسائرها الغالب والمغلوب عمدوا الى الفتوح من طريق الكسب والتغلب على الأمم بالقبض على أزمة معايشها ، ثم بتقطيع روابطها الى أن تقضى التفرقة على الأمة . وأطلق رشيد رضا على هذه السياسة الأخيرة للاستعمار اسم « الفتوح المعنوى » ، وشرح فى اسهاب الجيوش التى تصاحب هذا الفتح ، وخططها الحربية الخطيرة .

قال رشيد رضا أن الأوربيين علموا نتيجة أبحاثهم فى طبائع الأمم أن الترف مدعاة الدمار والفناء الاجتماعى اذا لم يقرن بتربية صحيحة تقى من أدوائه وتعصم من بلائه . ثم أن أولئك الأوربيين أدركوا نتيجة تجوالهم فى بلاد الشرق أنه لم يعد لأهله من روابط الاجتماع الا بقايا موروثة لامتعهد لها ولا حافظ ، وأنه يكفى لتقطيعها اشاعة الترف بينهم بما يهدم البقية الباقية من وحدتهم . « فكروا على الشرق بجنود منه لا قبل لأهله بها ، وحملوه أوزارا أثقل من الجبال ، فحملها وكان الشرق ظلوما جهولا . ساقوا عليه خمسة فيالق ، الخمر والميسر والربا والبغاء والتجارة . فنسفوا بذلك ثروته ، وقتلوا غيرته ، وأضعفوا همته ، وأفسدوا ما كان من بقايا أدب ودين [1] » .

---

(١) المنار ، ج ١ ، ص ٣٠ ، ٣١ .

وقاد هـذا التشخيص رشيد رضا الى اكتشاف علّة أخرى أصابت البلاد الاسلامية والعربية تنيجة « الجيـوش المعنوية للاستعمار » ، وتلك العلة هى الجماعات المقـلدة للافرنج فى الحياة ، دون أن تأخذ لب حضارتهم . وقد سبق للعروة الوثقى أن حاربت هذه الفئات واعتبرتها طلائع لجيوش الاسـتعمار الحربية . أما رشيد رضا فأثبتت أن التفرنج عنصر من عناصر تحطيم الوطن نفسه ، وأن الآخذين به هم عملاء الاستعمار ، أحسوا بذلك أم لم يشعروا . فقال عنهم: « أولئك حزب الشيطان، ألا ان حزب الشيطان هم الخاسرون » . تنظر أحدهم فتراه مرآة لرذائل الغرب ، وتصغى لكلامه فتسمع (فونغراف) هجر الشرق. أضاع فضائل أسلافه الأولين ، ولم يحفظ شيئا من فضائل أئمته الآخرين ، ان لهذا لهو البلاء المبين » [(١)] .

وأخيرا فان رشيد رضا أظهر خبرته العالية فى ميدان الاصلاح حين جمع نتائج تشخيصه ، وأرجعها الى عامل واحد هام ، هو نفس الرأى الذى سبق أن ردده أستاذيه جمال الدين ومحمد عبده ، دون أن يسهبا فى التدليل عليه . اذ قال ان أسباب العلل التى سبق أن فحصها وشخصها ترجع الى أن الدين ابتعد عن بساطته الأولى ، وما كان عليه من السذاجة عند نشأته . فقد كان الاسلام فى أيامه الأولى دين يسر وبساطة فسهل على غير المسلمين تعلمه وفهمه من العرب ، وانتشر الاسلام بسرعة لا مثيل لها .

ثم نشر رشيد بحثا ممتازا ، استعرض فيه تاريخ تسلل تلك

---

(١) المنار ، ج ١ ، ص ٢٠٨ .

الأمراض ، نتيجة ابتعاد الدين عن بساطته ، وجاء بحثا علميا أصيلا يشهد له بعلو كعبة فى ميدان الدراسات التاريخية والاجتماعية فتناول تاريخ الدولة الاسلامية زمن الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين ، موضحا ما كان عليه المسلمون زمن الخلفاء الراشدين من هدوء وتعاون ، ثم ما طرأ عليهم زمن الأمويين والعباسيين من قلق وفتن . وذكر أن ظهور الفرق الاسلامية وعداء أتباعها لبعضها البعض أضعف قوى المسلمين ، وفتح أبوابا لتسلل العناصر الهدامة . وأوضح أن أخطر شيء أصاب المجتمع الاسلامى اذ ذاك هى حركات الزنادقة والآراء الفلسفية المنحرفة ، وأن تلك الحركات أبعدت المسلمين عن جادة الصواب . وأخيرا خلص رشيد رضا الى أن النجاة رهن بالعودة الى التضامن بين المسلمين، وتبسيط العقائد ، وازالة الأحقاد الطائفية من النفوس [1] .

---

(١) المنار ، ج ٢٩ ، ص ٦٣ ، ٦٤ .

الفصل التاسع

العلاج الناجع

رسالة العلماء

للأطباء في معالجة الأدواء ومداواة الأمراض طريقتان معروفتان ، احداها مقاومة المرض باعطاء الأدوية في أوقات معينة بمقادير معلومة ، والثانية منع المصاب من كل ما يزيد المرض ويطيل أمده ، وذلك بتدبير الغذاء المناسب والنظافة التامة واستنشاق الهواء النقي وحسن الخدمة وازالة ما يؤلم النفس من كل شيء . ولقد سار رشيد رضا في العلاج على هدى الطريقتين السالفتين ، لأنه أدرك أن أمراض الأمم أشبه بأمراض الأفراد ، وأن المعالجة متشابهة أيضا في الحالتين .

وتعتبر المقالات والأبحاث التي نشرها رشيد رضا في المنار بمثابة السير وفق طريقة اعطاء الأدوية في أوقات معينة وبمقادير معلومة لتخفيف حدة المرض وتسكين آلام المريض . أما الطريقة الثانية من العلاج فهي تمثل نشاطه العملي لاعداد الوسائل للنهوض بالأمة وتقويتها للتغلب على ما بها من أمراض . وهذه

(١) المنار ، ج ١ ، ص ٤٦٢ .

الطريقة الثانية تمثلت فى اتصال رشيد رضا بالعلماء والحكام يرسم لهم السبيل القويم لأداء رسالتهم على خير وجه يكون ، ويضرب لهم الأمثلة بمجهوداته الشخصية فى ميدان الاصلاح والبناء .

وخص رشيد رضا العلماء والحكام بالكثير من توجيهاته لأنهم كما قال : بمنزلة العقل المدبر والروح المفكر من الانسان، وأن صلاح حال العلماء والحكام يصلح حال الأمة ، وفساد حالهما مفسد لحال الأمة بأسرها . وعبر رشيد رضا تعبيرا بالغا عن ذلك فى هذا التحليل القيم « اذا رأيت الكذب والزور والرياء والنفاق والحقد والحسد وأشباهها من الرذائل فاشية فى أمة فاحكم على أمرائها وحكامها بالظلم والاستبداد ، وعلى علمائها ومرشديها بالبدع والفساد ، والعكس بالعكس » .

وأتبع رشيد رضا هذا التحليل بالقاء تبعة ايقاظ الايمان فى قلوب الناس على العلماء المخلصين لرسالتهم الحقيقية . فقال : « لا أعن بالعلماء من قرأ حواشى الصبان على الأشمونى ومطولات الفقه بحيث يقدر على التنكيت فى قوله .. وانما أعنى بالعلماء كل من له وقوف على سر الدين وحكم التشريع وانطباق أحكام الاسلام على مصالح البشر وتأثيرها فى سعادتهم فى الدارين ، وحكمه فى وضع الأشياء فى مواضعها ومخاطبة الناس على قدر عقولهم واعطائهم ما تمس اليه حاجتهم ، وانما تجتمع هذه الصفات لمن يجمع بين العلم بأخلاق الدين وعقائده وآدابه والعلم بأحوال الناس وشؤونهم ومرامى أفكارهم وكيفية معاملاتهم» .

وأوضح رشيد رضـا أن العلماء هم القائمون على الطب الروحانى الذى هو تهذيب الأخلاق وتقويم العادات والمحافظة على سلامة الانسان . وذكر رشيد رضا العلماء بأن رسالتهم فى تلك السبيل ليست بالهينة ، لأنه اذا كان الطبيب المداوى للأجساد يجد التشخيص والدواء فى الكتب ، فان العالم عليه أن يبحث عن العلاج بنفسه ، لأن أمراض النفوس لا تشخيص لها فى الكتب والمصنفات. والسبيل الوحيـد للنجاح هو المعرفة الصحيحة لطبيعة البشر ، وما يجلب لها السعادة والهناء .

وضرب رشيد رضا مثلا عمليا للعلماء للقيام بالاصلاح فى ميدان البدع والمفاسد بأن رسم لهم منهجا محدد الأهداف ، وشرح لهم أيضـا طريقة تحقيق تلك الأهداف . فقال مثلا ان الطريقة المثلى لابطال منكرات الموالد وغيرها من البدع انما هى طريقة الوعظ والتعليم ، وذلك على ثلاثة ضروب ، هى الخطابة ، وقراءة علم الأخلاق والأداب ، وسلوك طريق التربية عملا وتحققا ، وهو المعبر عنه بالتصوف . فهذه الأمور الثلاثة لو أعطيت حقها من العناية لنهضت الأمة نهضة الأسود .

أما عن الركن الأول ، وهو الخطابة فشرح رشيد رضا منهجه بأنه يمكن للعلماء المشتغلين بابطال المنكرات أن يكلفوا أحدهم ممن عرف بالفصـاحة انشـاء خطب بليغة تدور حـول تلك المواضيع ، يبين للناس فيها حقيقة التوحيد . ثم ان الخطـابة لا تنحصر فى المساجد ، وانما ينبغى للعلماء الأتقياء الذين يغشون ساحات الموالد أن يخطبوا الناس فى قوة ، ويوضحوا لهـم

مساوىء ما يعملون دون خوف ولا وجل . ذلك أن العامة كثيرا ما ترقض مثل هذه الخطب من أول وهلة قبل أن تتبين حقيقة أهدافها السامية . وقد تعرض رشيد رضا نفسه للأذى مرتين وهو يخطب بنفسه فى الناس ، منكرا تلك البدع فى الموالد ، وتقديس الأولياء ، احداهما فى القاهرة عندما وقف يخطب الناس فى مسجد الحسين يبين لهم أن توقع البركة من التمسح بعواميد المسجد وغيره عبث لا جدوى فيه ولا غناء . والمرة الثانية عندما زار رشيد رضا مسقط رأسه بالشام سنة ١٩٠٨ م ، ورأى انتشار تلك البدع ، ولم يطق صبرا ، وكادت الفوضى تنتشر فى الشام مرة أخرى لولا تدخل رجال الشرطة .

وذكر رشيد رضا للعلماء ألا يقنطوا من مثل هذه المتاعب ، لأن فطرة العامة السليمة ، سرعان ما تتغلب عليهم ، وتجنح بهم الى الهداية والرشاد . وضرب مثلا عمليا قام به فى تلك السبيل ، حيث دخل احدى الخيام فى المولد ، ورأى الناس يتبركون بأحد الشيوخ . وعندئذ أخذ رشيد رضا يبين للحاضرين معنى الولى وانه انما يمتاز عن سائر الناس بالعلم والعرفان ، وتقوى الله فى السر والعلن . فأقبل الناس على رشيد رضا بعد رفضهم قبوله أول الأمر ، ثم أجلسوه وأحاطوا به وبدأوا يسألونه استزادة للمعرفة واشباع نفوسهم الظامئة للحقيقة الصادقة .

أما الركن الثانى من المنهج الذى رسمه رشيد رضا للعلماء فهو ضرورة قيامهم بدراسة علم الأخلاق والآداب الدينية . فهذا العلم هو الذى يعرّف الانسان حقيقة الدين ، وعليه تعتمد الخطابة

والوعظ . ونصح العلماء في تلك السبيل بقراءة « احيـاء علوم الدين » للغزالى ، بدلا من قراءة الكتب العقيمة ، كحاشية الصبان. اذ أن معرفة أمراض الروح وعللها وكيفية معالجتها والأدوية التى تعيد اليها صحتها هى أحرى بالعناية وأجدر بالتوسع والتطول من التوسع فى معرفة علل الكلام والتطويل بالقيل والقال .

والركن الثالث والأخير ، هو التصوف ، وقصد به رشيد رضا التصوف فى أبسط صوره . فقال ان التصوف فى الاسلام عبارة عن التخلق بالأخلاق الفاضلة وما تستتبعه من أعمال البر والتقوى. وأكد أن هذا اللون من الحياة هو ما كان عليه المسلمون الأولون، قبل أن تنتشر بينهم الفتن والتعاليم الغريبة ، ذلك أن الاسلام نادى بالتوحيد فى العقائد الدينية والتعاليم الأدبيـة والأحكام القضائية والمدنية ، ولذا صار من أهم أركان الاصلاح الاسلامى جمع المسلمين على عقيدة واحدة وأصول أدبية واحدة وقانون شرعى واحد . ويتطلب هذا رسم خطة واضحة للعلماء لتحقيق ذلك الهدف الثانى .

واقترح رشيد رضا ازالة أسباب الفرقة التى انتشرت بين المسلمين ، والتى تجلت بصفة خاصة بين الطرق الصوفية عن طريق علمى سليم . وذلك أن يقوم العلماء بتأليف كتاب يضـم جميع ما اتفقت عليه كلمة المسلمين بكل فرقهم ، فى المسائل التى تتعلق بصحة الاعتقاد وتهذيب الأخلاق واحسان الأعمال . ونصح مؤلفى ذلك الكتاب بالابتعاد عن مسائل الخلاف لا سيما بين الطوائف الاسلامية الكبرى كالشيعة ، ولا يتناولون أيضا مباحث الفلسفة

التى امتزجت بعلم الكلام . ثم ترسل نسخ بعد ذلك من هـذا الكتاب الى جميع البلاد الاسلامية ، وحث الناس على دراستها والاعتماد عليها وحدها . واشترط رشيد رضا أن يكون أسلوب هذا الكتاب مبسطا ، بعيدا عن التعقيد حتى يفهمه كل مسلم بمفرده بقدر الامكان .

وطالب رشيد رضا بتأليف كتب أيضا تهدف الى توحيـد الأحكام . فيقوم العلماء بوضع هذه الكتب على أسس جميع المذاهب الاسلامية ، وتتفق مع مطالب العصر الحاضر . ثم تعرض هذه الكتب على سائر علماء المسلمين للاتفاق عليها والتعاون فى نشرها وتطبيق أحكامها . وأوضح رشيد رضا أن مثل هذا العمل فيه ارضاء لجميع مذاهب المسلمين « وقطع لعرق التعصب الذى أضرّ بهم فى الأيام الخالية » . وبهذه الأعمال الجليلة يستطيع العلماء أداء رسـالتهم السامية فى خدمة المسلمين ، ويستعيدون سالف مكانتهم فى التوجيه والارشاد .

التربية والتعليم :

واقترنت توجيهات رشيد رضا للعلماء بالحث على أن يكون الاصلاح عن طريق « التربية والتعليم » . وقد سبق أن جعـل « سعادة الأمة » ، على لسان العالم الباحث الذى تخيل تجواله فى سائر أرجاء العالم ، يرجع أولا وأخيرا الى « التربية والتعليم » . فأكد أن التربية والتعليم هما الركنان اللذان يقوم عليهما بنـاء السعادة . أما التربية فهى القيام بشئون الصغير حتى يملك القدرة على التمييز والتعقل والعمل ، وارشاده الى ما فيه الصـواب .

أما العلم فهو الينبوع الذى يستمد منه القائمون بالتربية والتعليم لتزويد المرء بما يعود عليه بالنفع والفلاح . وقال رشيد رضا : « ان التربية والتعليم متلازمان بمعنى أن الثانى لازم للأول ، لا يتم الا به ، بل هو جزء منه ، لأن التربية على ثلاثة ضروب ، تربية الجسم وتربية النفس وتربية العقل ، وهذا الأخير هو عين التعليم ، ثم كل منهما يحتاج للعلم والتعليم » .

واتبع رشيد رضا فى توجيه أنظار مواطنيه الى أهمية التربية والتعليم أسلوب أستاذية جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده فى الترهيب والترغيب ، ثم بث الأمل فى النفوس . فقال : « سعادة الأمم بأعمالها ، وكمال أعمالها منوط بانتشار العلوم والمعارف فيها ، فكل أمة ترغب عن العلم فمآلها الى الشقاء شقاء الاستعباد وفقد الاستقلال ، لا يعصمها منه اتساع مساحة بلادها ، ولا كثرة أفرادها ولا عظمة حكامها ، ولا صحة دينها ، ولا شرف أسلافها ، ولا شىء مما يتعلل به المسترسلون مع الأوهام المنقادون بأزمة الغرور . وكل أمة نشطت لاقتباس العلوم والاستضاءة بنور الأعمال النافعة ، فأقامت أساس مدنيتها علـى هدى ، فبشرها بالسعادة ، سعادة المدينة الفاضلة ، والحرية الشاملة ، والسيادة الكاملة لا يمنعها من هذا قلة أفرادها ولا احتلال الأجانب لبلادها، ولا استبداد حكامها ولا اختـلال نظامها ولا فساد عقائدها ، ولا قبح عوائدها . اذ العلم يصلح كل خلل ، ويشفى من جميع العلل ، يشهد بجميع ما قلته العيان ، وينطق بصحته البرهان »[1].

---

(١) المنار ج١ ، ص ٢٥٦ .

ثم عالج رشيد رضا فى أسلوب الطبيب الماهر نوع التعليم الذى يفيد المسلمين ، والمواد التى هم فى حاجة لدراستها . وعمد فى تلك السبيل أيضا الى بث روح العمل والتشجيع فى نفوس مواطنيه . ذلك أن نفرا منهم قد استبد بهم اليأس حين رأوا البون شاسعا بينهم وبين بلاد أوربا فى التقدم العلمى ، وقالوا « ان الأفرنج عقولهم فى عيونهم وأيديهم ، ونحن عقولنا فى رءوسنا وقلوبنا ، يعنون أن عقول المسلمين لا يمكن أن تنشأ عنها أعمال عظيمة » . فبدأ رشيد رضا يعمل على ازالة هذا الوهم من عقول القانطين ، ويؤكد لهم أن التربية والتعليم كفيلة بأن تحملهم الى نفس الآفاق التى حلق فيها الأوربيون .

قال رشيد رضا : « هذا ما أوقع المتفكرين فى هاوية اليأس وقطع بهم أسباب الرجاء . نظروا الى أوربا فى نهايتها والى أهل بلادهم فى بدايتها ، فقالوا لا يبلغ الظالع شأو الضليع ، ولا يمكن أن يسابق الفسكل (الذى يجىء فى الحلبة آخر الخيل) المجلى (أول خيل الحلبة فى السباق) .. أما المتفكرون الأقلون عددا ، والأكثرون هدى ورشدا ، الذين لم يسمح لهم يقينهم باليأس من روح الله والقنوط من رحمته فقد ردوا على أولئك قائلين :

من طلب الغاية فى المبدأ لا يؤب الا بالقنوط والشقا
ومن يسر سيرا طبيعيا لها يبلغ بالتوفيق منها المنتهى

وحذر رشيد رضا مواطنيه الراغبين فى اصلاح التربية والتعليم من تقليد مدارس الحكومة السائدة اذ ذاك فى البلاد الاسلامية . اذ استهدفت تلك المدارس تعليم بعض اللغات الأجنبية والفنون

الرياضية والطبيعية والقوانين الأوربية مما يؤهلهم للوظائف .
اذ شاع بين الناس أن الغاية من العلوم والفنون خدمة الحكومة ، بمعنى أن يكون للانسان وظيفة منها تعطيه مالا يعيش منه ، وجاها يعتز به ، ولا يبالى مع ذلك بأى مظهر أو لون اصطبغ به . « ومن يرمى بتعليمه الى هذا الغرض فهو خاسر ، لأنه غرض خسيس لا يتجاوز المنفعة الشخصية ، ولا يبالى صاحبه بشقاء الأمة بل ولا بفنائها اذا كان وسيلة لمصلحته وطريقا لمنفعته ، وأجدر بتعليم هذا شأنه .. أن يسعى فى ازالته »[1] .

وانتقل رشيد رضا بعد ذلك الى ذكر الفنون التى يجب ادخالها فى ميدان التربية والتعليم لاصلاح شئون الناس ، ودفعهم الى مسايرة ركب العلم والعرفان الذى سار فيه الأوربيون . وتلك الفنون هى :

١ — علم أصول الدين ، ويقصد به القضايا الاساسية للدين ، لا البحث فى غوامض علم الكلام .
٢ — علم تهذيب الأخلاق واصلاح العادات لأنه يساعد على التربية الصحيحة .
٣ — علم فقه الحلال والحرام والعبادات .
٤ — علم الاجتماع وأحوال البشر فى بداوتهم وحضارتهم وعاداتهم وسائر شئونهم .
٥ — علم تقويم البلدان « الجغرافيا » .
٦ — علم التاريخ ، لأنه مادة السياسة ، وممد العقل

---

(١) المنار ، ج ١ ، ص ٥٧٠ .

ومغذيه ، والمفيض على الأرواح حب الجنس والوطن والهادى النفوس الى مصالح بلادها والمحافظة على استقلالها .

٧ — علم الاقتصاد الذى يبحث فى انماء الثروة وحفظها ، وهو من أركان المدنية الحاضرة .

٨ — علم تدبير المنزل ، وينبغى أن تتوسع البنات فى هذا العلم لأنه وظيفتهن .

٩ — علم الحساب ولابد من معرفة القدر اللازم منه للبنين والبنات ، ويتوسع فيه الذكور لأن الأعمال المالية الكبرى انما تناط بالرجال .

١٠— علم حفظ الصحة « الهيجين » ، وهذا من أهم المهمات لتربية الأولاد وهناء العيش ، فكم أسقم التجهل به صحيحا ، وأمات مريضا ، وكم فتك بالأطفال فتك الأوبئة والأدواء . ومن نظر الاحصاءات الصحية فى البلاد المتمدنة يعلم فائدة انتشار العلوم الطبية فى الصحة العمومية .

١١— علم لغة البلاد ، أى يدرس التلاميذ جميع ما يتعلمونه بلغة عربية فصيحة ، وتلقينهم كتبا مختصرة سهلة فى النحو والصرف والمعانى والبيان .

١٢— فن الخط .

وتحدث رشيد رضا عن فوائد تلك العلوم ، وأسهب فيما كان له صلة منها بخدمة الناس فى حياتهم العامة والخاصة ، وهى

العلوم التى صار تطور الزمن يدعو اليها ، بعد أن كانت فى زوايا الركود . وضرب مثلا على ذلك بعلم تقويم البلدان (الجغرافيا) . فقال ان هذا العلم كان يعتبر فى عهد العباسيين من المواضيع الكمالية ، ويقصد به اللذة أكثر مما تقصد به الفائدة . أما فى العصر الحديث فقد أصبح من الضروريات التى لابد منها ، وسعدت أمم بالتوسع فى دراسته ، وهيأ لها « الاستيلاء على العباد من غير سيوف تسل ، وبدون مدافع تسائل ، وصياصى تجيب . وشقيت بالتقصير فيه أمم ذهبت بلادها من أيديها من غير أن تشعر ، وجاس العدو ديارها تحت مواقع أنظارها ولم تبصر . نعم يتوقف اليوم على هذا العلم الحرب والجهاد ، وسياسة الممالك والبلاد ، فهو دعامة الحرب وأساسها ، ومعيار السياسة وقسطاسطها ، وكذلك الهندسة والفلسفة الطبيعية[1] » .

ونادى رشيد رضا أثناء دعوته لاصلاح التربية والتعليم بأن يتولى الناس بأنفسهم انشاء المدارس ، والابتعاد عن الحكومة . ذلك أن معظم الحكومات فى البلاد الاسلامية كانت خاضعة على عهده للسلطات الاستعمارية ، ولا يرجى من ورائها نفع وفى نفس الوقت أكثر الاستعمار من المدارس التبشيرية فى البلاد الاسلامية ، وصار الموقف يتطلب نهضة تنبعث من الشعوب الاسلامية نفسها ، حتى يكون اقبالها على التربية والتعليم مثمرا . وضرب رشيد رضا أروع الأمثلة فى ميدان التربية والتعليم . اذ لم يكتف بدور الموجه والناصح ، وانما نزل الى هذا الميدان عمليا ، ووضع فيه خلاصة

(١) المنار ، ج ١ ، ص ٥٦٧ .

آماله وتجاربه . فاكتسب رشيد رضا مكانة عالية فى ميـدان الاصلاح العملى ، أضاف الى الأبحاث القيمة التى قدمها فى خدمة الاسلام والعروبة . وتبلورت مجهوداته فى تلك السبيل فى انشاء « جمعية الدعوة والارشاد » ، تكون مهمتها الأولى والأخيرة الاشراف على مدرسة تحمل اسم الجمعية ، وتهدف الى تحقيق الاصلاح فى ميدان التربية والتعليم .

مدرسة دار الدعوة والارشاد

اختمرت فكرة انشاء هذه المدرسة فى رأس رشيد رضا منذ كان يطلب العلم فى وطنه بمدينة طرابلس . اذ كان يتردد على مكتبة المبشرين الأمريكان بتلك المدينة ، يقرأ هناك جريدتهم الدينية ، وبعض كتبهم ورسـائلهم ، وكثيرا ما تناقش معهـم فى تلك الاتجاهات . وتمنى لو كان للمسلمين جمعية على هـذا النهج ومدارس تسير فى نفس الاتجاه ، للحفاظ على الدين الاسلامى وتعاليمه ، والأخذ بيد أبنائه الى ما فيه سعادتهم ورشدهم . والمعروف أن الاستعمار الغربى هجم فى ذلك الوقت على البلاد العربية والاسلامية بهذا اللون من التربية والتعليم المنحـرف ، لابعاد النشء فى كل منها عن دينه ولغته وقوميته . ولم يدرك هذه الخطورة غير أصحاب البصيرة الواعية مثل رشيد رضا ، ومن تهيأت نفسه للاصلاح .

ولذا لم تفارق هذه الفكرة نفس المصلح الشاب عند هجرته الى مصر ، وانما شاهد فى تلك الأرجاء ما زاده استمساكا بضرورة تحقيق ما جاشت به نفسه فى تلك السبيل . اذ كانت المدارس

الحكومية الخاضعة لسلطات الاستعمار تحاول خلق طبقة معينة من المواطنين تصلح فقط للعمل فى مصالح الحكومة ، ولا تأخذ قدرا كافيا من التعليم الدينى . وكتب رشيد رضا فى المنار عدة مقالات توضح فكرته فى انشاء مدرسة جديدة هدفها اصلاح الدين وتخليص أتباعه مما علق بأذهانهم من أدران الأوهام والخرافات والبدع .

وبعد تسع سنوات من هجرته الى مصر تبلورت فى ذهنه فكرة انشاء المدرسة الجديدة ، لأن اليابان اذ ذاك دعت لعقد مؤتمر تناقش فيه جميع الأديان واختيار الدين الأمثل منها دينا رسميا ، واتباعه . وخطا رشيد خطوة عملية بأن دعا لانشاء جمعية للدعوة الى الدين الاسلامى ويكون عملها الأول انشاء مدرسة لتخريج الدعاة ، لأن الدين الاسلامى ينتشر عن ذلك الطريق لا غيره ، وخاصة فى العصر الذى تصدى فيه للاصلاح . وعندما ناقش أصدقاءه بمصر فى هذا الموضوع وجد عندهم استجابة عالية ، واستعداد للمعاونة .

على أن أهم شىء ظل يدفع رشيد رضا نحو اخراج فكرته الى حيز التنفيذ هو المكاتبات التى وردت اليه من شتى البلاد الاسلامية ، تستنجد به ضد نشاط المبشرين الاستعماريين ، اذ استهدف الاستعمار فى تلك المرحلة من نشاطه فى العصر الحديث هدم المجتمع الاسلامى القديم ، باثارة الشكوك حول العقيدة الاسلامية . وانبث أولئك الدعاة الخطرون من المستعمرين بين أبناء الشعوب الاسلامية يحاولون الطعن فى القرآن وفى الرسول ،

وذلك فى خطبهم العامة ، وأخطر من ذلك عن طريق التعليم فى المدارس الخاصة والوعظ فى الملاجىء والمستشفيات ، التى أقاموها فى الظاهر للرحمة ، وباطنها لنشر السم الزعاف . واتخذت كل طائفة من طوائف المستعمرين جماعات لها حسب مذاهبها الدينية، وتقاسموا فيما بينهم حقول النشاط الهدام فى العالمين الاسلامى والعربى . فاتجهت جماعات منهم لاتقان اللغة العربية وتأليف الكتب بها ، ثم التسلل عن طريق ذلك فى البلاد العربية والاسلامية، ونشر سمومهم هناك .

واشتد خطر أولئك المبشرين المستعمرين فى الجهات الاسلامية النائية ، أو التى يوجد بها جماعات وثنية تعيش بجوار المجموعات الاسلامية ، كما هو الحال فى جاوه مثلا والسودان . وكان المنار قد انتشر فى سائر أرجاء العالم الاسلامى وصار له أتباع عديدون ، وخاصة فى المناطق النائية ، ودأبوا على ارسال استغاثاتهم لرشيد رضا صاحب المنار ، باعتباره امام الهدى عندهم . فبعث أحد السائحين المسلمين بسنغافورة الى رشيد رضا كتابا مؤرخا فى ٤ شوال سنة ١٣٢٨/١٩١٠ م ما نصه : « انى قد ترددت الى جاوه ومتعلقاتها منذ ثلث قرن ، وقد تبين لى أن دعاة الاستعمار (من الهولنديين) قد أضروا بالاسلام وأهله ، لتغلب الجهل عليهم لمنع الحكومة الهولندية دخول دعاة المسلمين . وحجتهم أنهم ليسوا علماء بل دجاجلة . وكل من منعته وطردته ليس من متخرجى المدارس . ولقد هالنى جدا ما رأيته فى سياحتى هذه ، فان الداء قد تمكن وفتك بالأهالى فتكا ذريعا . وبالجملة أقول أن المتنصرين

سنويا من مسلمى جاوة ومتعلقاتها لا يقلون عن مائة ألف انسان..

... ولو وجد عالم له المام بفن الدعوة بعض المعرفة بلغة أورباوية ، وكان ذا عقل واعتدال ، وساح فى هـذه النواحى لأوقف هذا التيار الجارف ، فكيف لو وجدت بعثة كالبعثات الأوربية » .

وجاءت رشيد رضا رسالة من صديق له بالسودان تشبه الرسالة السالفة ، وتذكر أن الطريقة الوحيدة التى يعتمد عليها المبشرون فى تنصير الأهالى هنـاك تنحصر فى فتح المدارس . ويعتمـد المبشرون فى حمل الأهالى على ارسـال أولادهم الى مدارسهم على الاحسان الى الآباء والتودد اليهم . ففى مدينـة « واو » مثلا بجنوب السودان يعطون لآباء التلاميذ ثلاثة أرطال ذرة يوميا ، كما يعطونهم بعض الأقمشة أو الحلى .

وبذلك لم يعد عند رشيد رضا أدنى شك فى ضرورة انشاء مدرسة يتخرج منها دعاة لنشر الدين الاسلامى ، وايقاف هذا الزحف الاستعمارى المخيف على العقائد الاسلامية . وتصادف أن وقع فى ذلك الوقت الانقلاب العثمانى الذى أطاح بالسلطان عبد الحميد وطغيانه ، والذى سبق أن وقف سدا يحول دون دخول رشيد رضا بلاد الدولة العثمانية . ولذا اتجه رشيد رضا سنة ١٩٠٩ الى الآستانة يحدوه الأمل فى كسب مساعدة رجالها الجدد من الأحرار لاخراج مشروعه الى حيز الوجود . ولكنه صدم هناك ، بعد عام من الاقامة ، لأنه لم يجد لمشروعه آذانا صاغية . ولذا عاد الى مصر ، موقنا بأن السبيل الأمثل هو الاعتماد

على تبرعات الأهالى وذوى الثراء ، والابتعاد عن رجال الحكومة بسبب خضوعها لنفوذ السلطات الاستعمارية .

وأخيرا دخل مشروع انشاء جمعية الدعوة والارشاد الى حيز الوجود سنة ١٩١٢/١٣٣٠ م وجاء فى مشروع تأسيس مدرسة الدعوة والارشاد ، ما يأتى :

١ — يختار طلاب هذه المدرسة من طلاب العلم الصالحين من مسلمى الأقطار . ويفضل الذين هم فى أشد الحاجة الى العلم ، على غيرهم ، كأهل جاوة والصين وما عدا القسم الشمالى من افريقية .

٢ — المدرسة تكفل لهم جميع ما يحتاجون اليه من الغذاء والمنام والكتب .

٣ — يعتنى بتدريبهم على آداب الاسلام وأخلاقه وعباداته، بحيث يطرد من المدرسة من يثبت عليه الكذب أو اظهار العصبية الجنسية أو المذهبية أو ارتكاب شىء من المعاصى .

٤ — يعلمون كل ما يحتاج اليه الدعاة من العلوم الدينية كالعقائد والتفسير والحديث والأحكام ، على الوجه المؤدى الى القدرة على اقامة الحجة ودحض الشبهة، وما يحتاجون اليه من العلوم الرياضية واللغات لأجل ذلك .

٥ — لا تشتغل المدرسة ولا الجماعة المديرة لها بالسياسة المصرية ولا العثمانية .

٦ — يرسل الدعاة والمرشدون الذين يتخرجون فى المدرسة الى أشد البلاد الاسلامية حاجة اليهم كجاوة والصين، ثم الى الشعوب الوثنية ، ثم الى أمريكة

٧ — سيبدأ المؤسسون بجمع الاعانات للقيام بهذا العمل ، ثم يفتحون باب الاشتراك الدائم لأجل استمراره ، ويرجون نجاح السعى بما يجود به أهل الخير والبر من الاشتراكات والتبرعات والهدايا والوصايا والأوقاف التى يرجى أن توقف على هـذا العمـل .

وفى ليلة الاحتفال بالمولد النبوى سـنة ١٣٣٠ هـ / ١٩١٢ افتتحت المدرسة رسميا فى جزيرة الروضة بالقاهرة ، كما صدر النظام الأساسى لها . وأهم ما جاء فى هذا النظام أن : « دار الدعوة والارشاد مدرسة كلية اسلامية تدرس فيها جميع العلوم والفنون التى تدرس عادة فى الكليات مع التربية الدينية ، وزيادة العناية بالعلوم الاسلامية وتنشأ أقسامها بالتدريج . يبدأ منها بقسم عال لتخريج الدعاة الى الاسلام » . وبدأت الدراسة فيها فى اليوم التالى للاحتفال . وكانت المدرسة تقبل فى عداد طلبتها شـباب المسلمين الذين تتراوح أعمارهم بين العشرين والخامسة والعشرين، على أن يكونوا قد حصلوا من التعليم على قسط يسمح لهم بتلقى دروسها .

وكانت تعطى الطالب شهادة مرشد اذا قضى ثلاث سنوات فى الدراسة ونجح فيها ، وهذه الشهادة تؤهل الطالب للقيـام

بالدعوة والارشاد بين المسلمين أو للتدريس فى مدارس الجمعية. أما اذا أراد الطالب مواصلة الدراسة بعد هذه المدة ثلاثة أعوام أخرى فان هذا يؤهله لأن يصبح داعيا من الدعاة ، أى أولئك الذين يقومون بدعوة غير المسلمين الى الدخول فى الاسلام . وكان على الطالب أن يتعهد بقبول التوجه الى أى بلد يراد ايفاده اليه

واشترطت المدرسة على الطالب أيضا الحصول على نسبة معينة فى التقدير ، تفاوتت حسب أهمية مواد الدراسة . فمثلا كان عليه الحصول على ٩٠٪ فى الأخلاق والأداب العملية ، ٨٠٪ فى حفظ القرآن الكريم ، و ٧٠٪ فى التفسير ، و ٦٠٪ حكمة التشريع ، و ٦٠٪ فى اللغة الأوربية ، ٥٠٪ فى قانون الصحة ، و ٣٠٪ فى الخط والرسم .

وفى نفس الشهر الذى تم فيه افتتاح مدرسة دار الدعـــوة أتيحت لرشيد رضا فرصة ذهبية لنشر ثمار تجاربه العملية فى بلاد الهند . اذ جاءته دعوة من ندوة العلماء بتلك البلاد لزيارتها والافادة من خبرته فى ميدان الاصلاح بالعالم الاسلامى . وسافر رشيد رضا فعلا الى الهند فى نفس الشهر الذى فتح فيه المدرسة ، مؤثرا الاتصال بتلك الجهات ، ومشاهدة الحياة فيها ، ومعرفة مدى ما يمكن أن يسهم به فى خدمتها . وعبّر رشيد رضا عن تلك الأحاسيس فى الخطاب الذى ألقاه فى ندوة العلماء بلكنهوء بالهند ، حيث قال :

« أشكر هذه الجمعية بالقول كما شكرتها بالفعل ، بأن أجبت

دعوتها ، ولبيت طلبها فى وقت أنا أشغل فيه ما كنت منذ وجدت . فقد كنت مشتغلا بتأسيس دار الدعوة والارشاد ..

« فتحت مدرسة دار الدعوة والارشاد ، وهى منتهى رجائى فى خدمة الاسلام وغاية سعيى فى اصلاح التربية والتعليم ، وأقر الله عينى برؤيتها والبدء بالقاء الدروس فيها ، ورأيتنى مدعوا الى مفارقتها فى أول العهد بوصالها .. وكنت كالعاشق الذى دعى الى ترك معشوقه بعد طول العناء فى طلبه » (١)

وأعقب رشيد رضا كلمته الافتتاحية بسرد تجاربه فى ميدان التربية والتعليم على علماء الهند . ولم يجد صعوبة فى اقناعهم لأن مدارس الهند كانت تسير فى ظل الاستعمار البريطانى الى اخراج موظفين فقط ، على نحو ما دأب عليه الاستعمار فى سائر البلاد الاسلامية .ولاحظ رشيد رضا بثاقب نظره أن الحكومة الانجليزية توجه العناية بتعليم أهل الهند اللغة العربية ، وأن المسلمين من الهنود ارتابوا فى نية الحكومة الانجليزية فى ذلك . اذ اعتقدوا أن الانجليز يهدفون بذلك تنحيتهم عن تولى الوظائف بابعادهم عن تعلم الانجليزية . وعلق رشيد رضا على ذلك بقوله : « وهذا رأى ضعيف ، والأقرب عندى أنه سياسى ، وهو طمع هذه الحكومة بالاستيلاء على البلاد العربية فى الخليج الفارسى وغيره، فهى تعد مسلمى الهند للوظائف فى هذه البلاد . وأنا لم أناقش

---

(١) المنار ، ج ١٠ ، ص ١٢١ .

هذا الرأى فى الهند لأننى كنت أتحامى السياسة فيها بقـــدر الامكان » [1] .

وعندما عاد رشيد رضا الى مصر تابع الاشراف على مدرسته ، يفرغ فيها من جهده وجهاده ما يستطيع ، وأنجبت نفرا لا بأس به من خيرة المثقفين فى البلاد الاسلامية . ولكن المدرسة تعطلت عند نشوب الحرب العظمى الأولى ولم تفتح أبوابها مرة أخرى .

---

(١) نفس المرجع ، ج١٥ ، ص ٣٣١ .

الفصل العاشر

صحبة الأخيار

ترجمان الأفكار

كانت السنوات السبع التى أعقبت هجرة رشيد رضا الى مصر (سنة ١٨٩٨ م) الى وفاة الأستاذ الامام محمد عبده (سنة ١٩٠٥ م) مرحلة وضع الحجر الأساسى فى صرح الاصلاح العام ، الذى رفع رشيد رضا قواعده فيما بعد . فقد كان هذا المصلح الشاب مع أستاذه فى سنى جهاده الأخير ، كما كان محمد عبده نفسه مع السيد جمال الدين فى مصر وباريس . كان رشيد رضا مع محمد عبده ، كما قال الأستاذ الامام نفسه « ترجمان أفكاره ، ومستودع أسراره ، والداعية له ، والمدافع عنه فى كل معركة من معارك جهاده ، يكتب بشأنها فى المنار ما يليق بعلاقته به ، وفى الجرائد اليومية بما يظهر الحق والمصلحة . »

وتدعمت العلاقات بين هذين المصلحين فى سرعة مدهشة شأن صحبة الأخيار التى تتم فى أقصر وقت ، ثم تزيدها الأيام قوة وارتباطا ، وتتحطم على صخرتها كل دسائس المؤامرات

وكيد الحانقين . اذ كثر الاجتماع بينهما منذ اليوم الأول الذى التقيا فيه بالقاهرة ، يتدارسان كل مسائل الاصلاح ، ويشعر كل منهما بالاتفاق سويا فى العقيدة والرأى . وزاد تردد رشيد رضا على بيت الأستاذ الامام باذنه ، فيقابله فى حجرة النوم والمطالعة والكتابة ، كما يقابل بعض خواص أصحابه أحيانا ، أما سائر الناس فكان يقابلهم فى حجرة الاستقبال من الدور الأسفل . وعند الانصراف بعد كل لقاء يذكر الأستاذ الامام لرشيد رضا مواعيده فى اليوم التالى والوقت الذى يمكن أن يلقاه فيه بالدار ، وهو كل وقت يكون فيها .

ونمت الصحبة بينهما حتى صارا كأولى القربى الأبرار فى البيت الواحد ، ليس فيها أدنى تكلف . وكان رشيد رضا يقلل زيارته للأستاذ الامام أيام الأعياد بسبب كثرة الزائرين . غير أن الأستاذ الامام قال له انه عازم على عدم الخروج للقاء المهنئين بالعيد فى أحد الأيام ، وطلب منه أن يحضر لزيارته ، بأن يتجاوز حجرة الاستقبال ويستأذن على من فى الدار ويدخل عليه فى حجرته الخاصة . ثم ان المقابلة بينهما لم تقتصر على منزل الاستاذ الامام فقط ، وانما كثر التلاقى بينهما فى الأزهر كذلك وفى سائر بيوت أصدقاء الأستاذ الامام كالشيخ عبد الكريم سلمان وسعد زغلول وأحمد فتحى زغلول وحسن عبد الرازق. وصار رشيد رضا والاستاذ الامام لكثرة ما يراهما الناس معا « كاللازم والملزوم اللذين لا ينفك أحدهما عن الآخر » أو « كروح واحدة فى جسدين » .

وبلغت ثقة الأستاذ الامام فى رشيد رضا درجة عالية ، مثل ثقة الأصدقاء الأخيار . فكان يكاشفه بجميع أفكاره وأسراره فى علاقته بالحكومة وفى أعماله فى الأزهر ويعهد اليه بكتابة بعض المقالات فى الصحف لتأييد رأيه وتفنيد آراء مخالفيه فى بعض المسائل أو الأعمال ، ونشر كل منها فى الجرائد التى تليق بامضاء تناسب الموضوع . وكان الأستاذ الامام يرسل اليه أحيانا احدى الجرائد وعليها اشارة منه الى شىء لأجل الرد عليه ، وقد يكتب بجانبه أو على ورقة أخرى موضوع الرد والاشارة الى الروح التى يجب أن تتبع فى أسلوب المقال من شدة أو لطف أو تهكم أو تجهيل ، وأحيانا كلف الأستاذ الامام رشيد رضا باجابة خطاباته الشخصية .

وبادل محمد عبده الأستاذ رشيد رضا المودة والمحبة . فكان يقضى أوقات فراغه عنده فى المنار عندما كثر العمل به ، وذلك دون سابق موعد . وكانت الكلفة مرفوعة بينهما كذلك . فحدث مرة أن ذهب الأستاذ الامام الى ادارة المنار بعد الظهر وقال لرشيد رضا : هل عندك شىء يؤكل ، فان عندى عملا منعنى من الذهاب للغذاء فى الدار . فقال له رشيد : يوجد عندى نصف رغيف من الخبز الجيد الأفرنجى ، وقطعة زبد باقية من فطورى، فان شئت ضمننا اليها ابريقا من الشاى الأبيض الصينى ، وان شئت أحضر الخادم لك من المطاعم ما شئت (لأن رشيد رضا كان يعيش وحده ، ويتغذى ويتعشى فى المطاعم) . ولكن الأستاذ الامام قال له هذا يكفى ، وهو خير ما يؤكل .

وفى العام الثانى من حضور رشيد رضا الى مصر جاءه والده ليزوره لاستمالته الى المودة مع أبى الهدى الصيادى . ولما علم بذلك الأستاذ بادر بالذهاب من فوره لمنزل رشيد رضا وتحية الضيف الكبير ، والد المصلح العظيم . وكثرت زيارة الأستاذ الامام لمنزل صديقه أيضا بعد أن حضرت والدته من الشام ، ومعها بعض اخوته . فصار رشيد رضا يدعو الأستاذ الامام لتناول طعام الغذاء معه . وطلب محمد عبده أن تصنع والدة رشيد رضا بعض الأطعمة الطرابلسية الممتازة ، كما أمر أهل بيته أن يسألوها عن طريقة صنعها .

ولم يخف رشيد رضا عن أستاذه كل أسراره العائلية . اذ قال له : ان والدتى انما جاءت مصر لتقنعنى بأن تزوجنى ، فما رأيك ؟ قال محمد عبده : ان كان عندك فراغ من العمل تبذل فيه ثلاث ساعات أو أكثر كل يوم فى الكلام الفارغ مع النساء فتزوج .وشرح له أيضا طباع النساء واشغالهن للرجل بكثرة الكلام الفارغ . وحدثت والدة رشيد رضا ابنها بأن زوجة الأستاذ الامام قالت له مرة : لماذا لا تعطى السيد رشيد ابنتك فلانة وأنت لا تحب مفارقته ؟ فقال لها : اذا كان هو لا يريد أن يتزوج أفأقول له أنا تعال أزوجك ؟ . وصرف رشيد رضا والدته عن الخوض فى هذا الحديث لأنه كان فى أشد الأوقات اشتغالا بجهاده وعمله فى الاصلاح .

غير أن هذه الصداقة أثارت حقد بعض الناس ، وخاصة من المقربين للأستاذ الامام ، وشعروا أن رشيد رضا صار من دونهم

المقرب الى قلب محمد عبده . وبدأ هذا النفر من خاصة محمد عبده يتحينون كل فرصة للوقيعة بينه وبين رشيد رضا فحدث أن كثرت أعمال رشيد رضا بعد السنة الثالثة من صدور المنار ، لأنه تولى الاشراف على ادارة جريدته فضلا عن تحرير المقالات فيها . ومن ثم قل تردد رشيد رضا على الأستاذ الامام ، حتى قال له بعض أصدقائه : مالى لا أرى فلانا معك كالعادة ؟ أظنه قد استغنى عن مساعدتك فتركك ؟ . وكان السائل يقصد بهذا التعريض اثارة شكوك الأستاذ الامام نحو رشيد رضا ، ويبين له أن تقربه منه كان فقط من أجل الحصول على مساعدته فى اصدار المنار والترويج له .

ولكن محمد عبده بادر بهدم هذه الفرية شأن صحبة الأخيار التى لا يستطيع أى دس أن ينفذ منها أو ينالها بسوء . فقال للسائل : كلا ، ان فلانا كان قليل الأعمال ، فكان جل أوقات فراغه معى ، لأننى أعزّ أصدقائه . وقد كثر الآن عمله فقل فراغه الذى لا يزال يصرف أكثره معى ، ولم يكن للحاجة الى المساعدة أدنى تأثير فى اجتماعنا أولا ولا آخرا كما يظن .

ولكن أعمال الوقيعة لم تقف عند هذا الحد ، وانما اشتد خطرها أثناء ذهاب الأستاذ الامام محمد عبده فى زيارته الى تونس والجزائر سنة ١٩٠٣ م . وكان رئيس هذه المؤامرة هو الأستاذ الشيخ عبد الكريم سلمان ألصق الأصدقاء بالأستاذ الامام ، اذ تولى تدبير الدسائس وكشفها أمام الأستاذ الامام بعد عودته من رحلته بما يؤدى الى اقصاء رشيد رضا عنه .

ولكن صاحب الفضل فى هدم هذه المؤامرة هو شاعر النيل حافظ ابراهيم ، لأنه كان بدوره هدفا من أهداف هذه المؤامرة، لتسوييء العلاقات بينه وبين الأستاذ الامام .

ولما عاد الأستاذ الامام من سفره ، وكان مغتبطا لما شاهده فى تونس والجزائر من أثر المنار فى نشر أفكاره فى الاصلاح حتى صار له حزب ومريدون هناك ، التف حوله المتآمرون لتنفيذ ما بيتوه فى أنفسهم . وقال أجرأ المتآمرين للأستاذ الامام : ان صاحب المنار يطعن فى علم الأستاذ الامام ويقول انه هو الذى يحضر له دروس التفسير ، ويقول ويقول .. وأمن على هذا الكلام الحاضرون من أعضاء المؤامرة . وأضاف الى ذلك رئيس المتآمرين وهو الشيخ عبد الكريم : لا غرابة ، فالشيخ رشيد رضا صار مستغنيا عن الشيخ محمد ، فهو يقول ما شاء ولا يبالى ، وانما الغرابة فى اصرار الشيخ على مودته ورفع شأنه كعادته مع أمثاله ، وهو فى غنى عنه ، فان كانت مزيته أنه ينقل عنه التفسير وينشره فانه يوجد كثيرون يقومون مقامه فى ذلك .

حينئذ غضب الأستاذ الامام غضبة شديدة ، ودافع عن صحبة الأخيار قائلا للمتآمرين : ليس فيكم كلكم أحد مثله أو يقوم مقامه ، ائتونى بواحد مثله وأنا أترك صحبته ، انه لم يقل ولن يقول شيئا مما ذكرتم . ولو قاله لما صح أن يكون له من الأثر ما تريدون ، وقد آن أن أقول لكم ان الله بعث الىّ بهذا الشاب ليكون مددا لحياتى ومزيدا فى عمرى . ان فى نفسى أمورا كثيرة أريد أن أقولها أو أكتبها للأمة ، وقد ابتليت بما

شغلنى عنها ، وهو يقوم ببيانها الآن كما أعتقد وأريد ، واذا ذكرت له موضوعا ليكتب فيه فانه يكتب كما أحب ، ويقول ما كنت أريد أن أقول ، واذا قلت له شيئا مجملا بسطه بما أرتضيه من البيان والتفصيل ، فهو يتم ما بدأت ويفصل ما أجملت .

« وقد رأيت فى سفرى هذا من آثار عمله وتأثير مناره ما لم أكن أظن ولا أحسب ، فهو قد أنشأ لى أحزابا ، وأوجد لى تلاميذ وأصحابا ، ولا أفهم معنى لما تقولون من حاجته السابقة الىّ ، واستغنائه الآن عنى ، ماذا كانت تلك الحاجة ؟ وماذا عملت له ؟ أنا والله فى خجل من نفسى ، اننى لم أعمل له شيئا ، وهو قد عمل لى كل شىء ، عمل لى ما لم يعمله أحد ممن ربيتهم وعلمتهم ومن التزمت طول حياتى خدمتهم » . وبعد أن سمع الحاضرون هذا القول الصريح وجموا ، واضطر أحدهم أن يخفف الوقع على النفوس بشىء من الفكاهة . ثم أرسل الأستاذ الامام بعد ذلك للشيخ عبد الكريم يخبره ، « اما أن تكف عن السيد رشيد واما أن أستغنى أنا عن صحبة أربعين سنة » .

وكان من حسن طالع حركة الاصلاح العام أن سموم الدسائس لم تفرق بين الأستاذ الامام ورشيد رضا ، اذ رأى محمد عبده فى مريده الجديد ، كما عبّر تلمتآمرين امتدادا لنفسه وبالتالى لحركة الاصلاح التى وضع أساسها جمال الدين الأفغانى . وأعلن محمد عبده هذا الرأى لكل من اتصل به من الأصدقاء وغير الأصدقاء . فقد قال محمود سامى البارودى

بعد عودته من المنفى للأستاذ محمد عبده : ان السيد جمال الدين قد تركك لنا ، فقمت بالاصلاح بعده خير قيام ، وانى خائف أن تنقطع السلسلة بعدك ، فبشرنى هل عندك أحد ترجو أن يتصل به سير الاصلاح ؟ . فقال له محمد عبده : نعم ، عندى شاب سورى يقوم بذلك وسأرسله اليك لتتعارفا . وفعلا ذهب السيد رشيد رضا لمقابلة أحد أبطال الحركة العرابية ، ونال اعجابه ورضاه ، وخاصة أنه صار من قراء المنار الدائبين على الاشادة به، وبأثره فى العالم الاسلامى . ثم ان أقوال محمد عبده قد تحققت حيث نهض رشيد رضا معه ، ثم من بعده بحمل لواء أهم عملية تطلع اليهما الأستاذ الامام فى ميدان الاصلاح ، وهى اصلاح الأزهر ، ووضع تفسير جديد للقرآن الكريم .

اصلاح الأزهر

اشتملت الأحاديث التى دارت بين رشيد رضا عقب هجرته الى مصر مباشرة وبين الأستاذ الامام عدة مواضيع كبرى ، كان أهمها موضوعا الأزهر وتفسير القرآن الكريم . ففى اليوم الثانى من وصول رشيد رضا الى القاهرة ، وذلك فى آخر رجب سنة ١٣١٥ زار الأستاذ الامام وتحدث معه فى رجاء المسلمين فيه فى السعى للاصلاح ، ثم قال له بعد ذلك أنه بلغه أنه يعمل لذلك فى الأزهر . وقد أفاض الأستاذ الامام فى هذا الموضوع لرشيد رضا ، الذى لخصه بعد مغادرة المجلس فى النقاط التالية .

قال محمد عبده أولا : ان اصلاح الأزهر أعظم خدمة

للاسلام ، فان اصلاحه اصلاح لجميع المسلمين وفساده فساد لهم .

ثانيا : أن أمامه عقبات وصعوبات من غفلة المشايخ ورسوخ العادات القديمة عندهم .

ثالثا : ان هذا الاصلاح لا يتم الا فى زمن طويل ، وأنه اذا رأى حال الأزهر قد صلحت قبل موته فانه يموت قرير العين ، ويرى نفسه سعيدا ، بل يرى نفسه ملكا .

رابعا : أنه لا يرى لدخوله فى الحكومة فائدة الا الاستعانة على اصلاح الأزهر ، فانه لولا مكانته عند الخديو والحكومة لما كان يسمع له فى الأزهر كلام ولا يقبل له رأى .

خامسا : انه لم يحصل شىء من الاصلاح يذكر حتى الآن .

سادسا : انه أراد أن يبدأ بأعمال عظيمة فى الاصلاح اغتناما للفرصة فأشير عليه بوجوب التدرج .

وكان محمد عبده قد بدأ سياسته فى اصلاح الأزهر قبل وصول رشيد رضا الى مصر ، وصار عضوا فى مجلس ادارة الأزهر الذى تشكل سنة ١٣١٢ هـ/ ١٨٩٥ م ، للاشراف على اصلاح هذا المعهد الجليل . ورأى محمد عبده أن يجرى الاصلاح فى الأزهر باقناع كبار مشايخه ، وتحسين أحواله المالية . أما نظام التدريس واختيار كتب العلوم فأحب أن يجعله برأى أولئك الكبار من المشايخ أيضا ليسهل تنفيذه بالرغبة . وذكر الأستاذ الامام وجهة نظره السالفة لرشيد رضا ، الذى تناولها بالشرح والتوضيح والافاضة فى أعداد المنار ، طوال حياة الأستاذ وبعد وفاته كذلك .

وتقاسم كل منهما شرف الجهاد فى سبيل اصلاح هذا المعهد الجليل ، وتحملا فى شجاعة نادرة أيضا الأذى المتعدد الألوان الذى حل بهما من أجل ذلك العمل النبيل .

أوضح رشيد رضا فى مقالاته فى المنار أن الاصلاح الذى ينشده الأستاذ الامام للأزهر قسمان أحدهما صورى ، ويتضمن النظام الذى وضعه للقضاء على ما كان بالأزهر من الفوضى فى التعليم والحياة البدنية والدينية ، ويشتمل كذلك على توسيع دائرة العلوم والمعارف ثم ترقية اللغة العربية ، والآخر معنوى ويقصد به اصلاح العقل بالاستقلال فى العلم والفهم وصحة القصد بما يفضى الى ارتقاء الأمة فى دينها ودنياها ، ثم اصلاح الأخلاق بالصدق والاخلاص وعزةالنفس .

وفى مقال رائع لرشيد رضا تحت عنوان « محاورة فى اصلاح التعليم فى الأزهر » هاجم جمود أساتذته فى تمسكهم بالعلوم القديمة ، وخوفهم من التجديد . فقال : « لولا أن اليأس من روح الله مقصور فى كتاب الله على القوم الكافرين لقلنا كيف يرجى اصلاح حال أمة يعتقد علماؤها أن الاصلاح محال ، وأن العمل على ارجاع مجد الدين عبث وضلال .. وأن العلوم العصرية حتى الحساب والتاريخ مضلة للأمة صادة لهم عن سبيل الحق مسجلة عليهم الحرمان من السعادة » ثم أوضح رشيد رضا أهمية نظام التدريس واختيار كتب العلوم التى رأى الأستاذ الامام ادخالها فى الأزهر ، حتى تحمى الطلبة من الحواشى وما يترتب عليها من تشويش العقل والفهم .

واستطاع الأزهر فى ظل هذا الجهاد الذى رفع رايتـــه محمد عبده وأيده ودافع عنه رشيد رضا أن يخطو نحو التقدم، وخاصة فى الأخذ بالعلوم العصرية وما يتطلبه تطور الأوضاع . ولكن لم يلبث أعداء الاصلاح أن وجدوا ثغرة لتحقيق مآربهم حين ساءت العلاقات بين الخديو عباس والامام محمد عبده حول بعض المسائل المادية . اذ رفض محمد عبده باعتباره عضوا فى مجلس الأوقاف طلبا للخديو باستبدال بعض أراضى الأوقاف المعدة للبناء فى الجيزة بمزرعة من مزارع الخاصة الخديوية ، لأن فى ذلك غرماً للمسلمين وللدولة . ومن ثم غضب الخديو على محمد عبده ، وبدأ يفتح آذانه للمرجفين من بعض العلماء بأن الاصلاح الذى ينشده محمد عبده فيه ضياع وهدم للأزهر .

وامتد غضب الخديو عباس بالتبعية من الأستاذ الامام الى حليفته فى الجهاد رشيد رضا . اذ دأب صاحب المنار على الثناء على كل من عارض استبدال الوقف السالف الذكر ، وبالتالى الاشادة بجرأة الأستاذ الامام فى الحق . وزاد الطين بلة أن رشيد رضا هاجم فى ذلك الوقت أيضا تخلى الخديو عباس عن سياسة الحزم مع الانجليز ، وتعمد السير فى سياسة الممـــالاة لهم . اذ حضر الخديو على غير عادته حفل استعراض جيش الاحتلال فى مصر ، وندد صاحب المنار بذلك ، بما فضح الخديو وأظهـــر سياسته العرجاء أمام الناس ، بعد أن كان يخدعهم بأنه عدو للانجليز .

وأحس رشيد رضا بتغير الخديو عباس عليه ، حين خرج لاستقباله فى محطة مصر ، بعد عودته من احدى الأسفار . فلم

يتقبل الخديو عليه كعادته ، وصرح أحد كبار المستقبلين لرشيد رضا بأن السبب فى ذلك هو غضب الخديو على الأستاذ الامام وعلى ما يكتبه رشيد رضا فى المنار ، وأن مقالاته أساءت اليه اساءة بالغة فاقت كل الحدود ، حتى ما كتبته الصحف المشهورة بعداوتها الصريحة للخديو مثل صحيفة المقطم . وعبّر المتحدث لرشيد رضا عن أثر مقالته التى هاجم فيها اشتراك الخديو فى استعراض جيش الاحتلال البريطانى قائلا : ان بضعة أسطر مما تكتب فى المنار مرة فى السنة هى أشد عليه مما يكتب فى المقطم ضده مدة سنة ، كأن ما يكتب فى المقطم حصى تلقى مرة بعد مرة على القصر ، وكأن سطورك القليلة كرة من الديناميت ، ونموذج ذلك كله ما كتبته فى حضوره حفلة عيد جلوس ملكة الانجليز » .

ولكن رشيد رضا تابع فى المنار هتك سياسة الخديو وكشف سوءات أسرة محمد على نفسها . فحدث فى تلك الأيام التى اشتدت فيها سعاية أعداء محمد عبده عند الخديو أن أقيم احتفال بمرور مائة عام على تأسيس محمد على حكمه فى مصر . واحتفل ديوان الأوقاف لتلك الذكرى فى المساجد وخاصة فى الجامع الأزهر حيث أقام العلماء احتفالا هناك . فكتب رشيد رضا أن المساجد بيوت الله ، ولا يصح أن تزين للاحتفال بذكرى الملوك والأمراء المستبدين . ولما رأى الأستاذ الامام هذا المقال كتب بدوره مقالة طويلة فى المنار فى مساوىء حكم محمد على فى مصر ، ووقع المقال بامضاء مؤرخ . ولما اطلع الخديو على هذا المقال بعث

الى محمد عبده لايقاف هذه الحملة ، قائلا له انه لا يستطيع أحد اسكات صاحب المنار غير الأستاذ الامام .

وكان من المنتظر أن ينتقل الخديو الى دور الانتقام من محمد عبده ورشيد رضا كذلك ، ولم يجد أمامه من سبيل لتحقيق مآربه غير استغلال الضجة التى أثارها الأعداء حول اصلاح الأزهر . واستخدم الخديو فى ذلك أساليب الدس لصاحب المنار، والعمل على الوقيعة بينه وبين الأستاذ الامام ، والتفرقة بينهما . فأخبر أحد مستخدمى الخاصة الخديوية رشيد رضا أن الخديو جمع مرة جميع مستخدمى القصر وكلمهم فى بعض الأمور الخاصة بوظائفهم ، ثم قال لهم : يجب عليكم أن تعاكسوا مجلة المنار وصاحبها « من تحت لتحت » ، أى خفية بحيث لا يظهر عملكم . ثم بث بعض الجواسيس حول رشيد رضا عسى أن يطلعوا على هفوة منه تنافى صفته الدينية الارشادية ، ويستغلوها فى التشهير به. فلم يعثر الجواسيس على شىء ، عدا أن رشيد رضا يضع عمامته عن رأسه فى أكثر مجالسه ، وأنه يركب الدرجة الثانية من الترام كثيرا .

أما أسلوب الوقيعة ، فهو أن الخديو بعث الشيخ محمد شاكر وبطرس باشا غالى الى محمد عبده ، وأذن لهما بالتصريح له بأن الخديو يرضى عنه ويساعده كل المساعدة على اصلاح الأزهر بشرط أن يبعد عنه صاحب المنار ويقطع صلته به . وجاء كل من مندوبى الخديو لمحمد عبده الواحد وراء الآخر . وكان بطرس غالى أول من فاتح محمد عبده فى رأى الخديو ، فقال له الأستاذ

الامام : اذا كنت أنا انسانا ذا قيمة فى الوجود فانما ذلك بأخلاقى لا بوظيفة الافتاء ولا بغيرها ، وأى خلق يكون لى اذا كنت أترك صحبة السيد رشيد رضا لأجل الخديو . وكيف لا أترك صحبتك أنت أيضا لأجل الخديو اذا أراد ؟ . أحب أن تعلم ويعلم الخديو أننى أفضل أن أعيش أنا والسيد رشيد رضا ههنا فى رمل عين شمس على البقاء فى منصب الافتاء وعضوية مجلس ادارة الأزهر ، لأن هذا الرجل متحد معى فى العقيدة والفكر والرأى والخلق والعمل . ولما جاء الشيخ شاكر يحمل نفس رأى الخديو لمحمد عبده ، قال له الأستاذ الامام هذا القول البليغ المفحم : كيف أرضى بابعاد صاحب المنار عنى وهو ترجمان أفكارى .

ولما يئس الخديو من تغيير نفس محمد عبده على رشيد رضا ، لجأ الى صاحب المنار عسى أن ينجح فيما فشل فيه مع الأستاذ الامام . وكانت الصحف تحفل اذ ذاك بالمناقشات حول فتوى أصدرها الشيخ محمد عبده باعتباره المفتى حول سؤالين جاءا اليه من بعض مسلمى الترنسفال ، وهما :

١ — بقر يضرب على رأسه بالبلطة حتى تضعف مقاومته ، ثم يذبح قبل أن يموت بدون تسمية الله عليه ، فهل يجوز أكل لحمه ؟ وأفتى الشيخ محمد عبده بأكلها ، فقامت عليه قيامة العلماء يقولون انها هى الموقوذة التى حرّم الله أكلها . ويرد محمد عبده بأن الموقوذة هى ما ضربت بشىء غير محدد كالحجارة والخشب حتى ماتت ، وهذه ذبحت قبل موتها .

٢ — والسؤال الثانى : يوجد أفراد فى هذه البلاد (الترنسفال)

يلبسون البرانيط لقضاء مصالحهم ، وعود الفوائد عليهم ، فهل يجوز ذلك أم لا ؟ فأفتى محمد عبده أيضا بجواز ذلك ، ولكن هاجت عليه الصحف ، واتهمته بأن لبس البرانيط فيه تشبه بالأجانب .

وفى وقت هذه الحملة الكبرى على الأستاذ الامام بعث الخديو برسله للتفرقة بين رشيد رضا والشيخ محمد عبده فجاء أحد المقربين من القصر الى رشيد رضا وقال له : ان الخديو يحبه ويحترمه ويود مساعدته على خدمة المنار للاسلام بالمال والنفوذ ، وأنه هو الذى قطع الطريق على نفسه بتشيعه للشيخ محمد عبده . ثم أضاف الى ذلك قائلا له ان الخديو يعد الآن حملة من أشهر الكتاب للطعن فى الفتوى الترنسفالية ، ويطلب من رشيد رضا السكوت فقط عن الدفاع عن المفتى . فقال رشيد رضا: ان هذه مسألة دينية ، وهى من أخص مباحث المنار ، فلا يمكنه السكوت لمن يخوضون فيها بغير علم ، وأوضح أنه يدافع عن الحق لا عن شخص المفتى . وأضاف رشيد رضا على ذلك قوله لكل من أراد منه الوقوف موقفا سلبيا من الامام محمد عبده : ان الاصلاح الذى ادعو اليه لا ينهض الا بزعيم تثق به الأمة ، ولا أعرف أحدا أجدر من محمد عبده به أو يساويه فى استحقاق هذه الزعامة ، فأنا أدعو الى تعميم الثقة به .

وعندئذ لم يجد الخديو مفرا من الجهر بعداوته لكل من محمد عبده ورشيد رضا ، ووجد سبيله الى ذلك استغلال كراهية نفر من علماء الأزهر لمنهج الاصلاح الذى نادى به الأستاذ الامام

لهذا المعهد الجليل . فشجع أولئك العلماء على اثارة الشغب بين طلاب الأزهر ، كما أغرى أحد شيوخ الأزهر فى ذلك الوقت وهو السيد البيلاوى على الاستقالة ، ونصب بدلا منه الشيخ الشربينى لمواجهة تيار اصلاح محمد عبده . وكشف الخديو القناع سافرا عن عداوته لمحمد عبده ورشيد رضا فى الخطاب الذى ألقاه فى حفلة الانعام بالخلعة على الشيخ عبد الرحمن الشربينى ، وجاء فى هذا الخطاب قول الخديو :

« ان الجامع الأزهر قد أسس وشيد على أن يكون مدرسة دينية اسلامية تنشر علوم الدين الحنيفى فى مصر وجميع الأقطار الاسلامية .. ولقد كنت أود أن يكون هذا شأن الأزهر والأزهريين دائما ، ولكن من الأسف رأيت أنه وجد فيه من يخلطون الشغب بالعلم ، ومسائل الشخصيات بالدين ، ويكثرون من أسباب القلاقل .. وأطلب منكم أيها العلماء أن تكونوا دائما بعيدين عن الشغب ، وأن تحثوا اخوانكم والطلبة على ذلك ومن يحاول بث الشغب بالوساوس والأوهام ، أو الايهام بالأقوال أو بواسطة الجرائد والأخذ والرد فيها فليكن بعيدا عن الأزهر ، ومن كان أجنبيا من هؤلاء فأولى أن يرجع الى بلده (وهى اشارة يقصد بها رشيد رضا) ويبث فيها ما يريد من الأقوال والآراء المغايرة للدين، ولمصلحة الأزهر والأزهريين » .

وقد ذكر الزعيم مصطفى كامل للأستاذ الامام أن الخديو يريد نفى رشيد رضا من مصر ، كما قال الشيخ على يوسف لرشيد رضا أنه سمع نفس الكلام من الخديو . ولكن لم يستطع الخديو

تحقيق أغراضه الا فى حمل الأستاذ الامــام على الاستقالة من عضوية مجلس الأزهر . ذلك أن الأستاذ محمد عبده رأى فى خطاب الخديو السالف الذكر تعرضا به وتلويحا له بتقديم الاستقالة . اذ جاء فى هذا الخطاب قول الخديو « قد جريت منذ أثنى عشرة سنة على هذه القاعدة ، وهى ان أقبل استقالة كل من يستقيلنى من وظيفته ... ومن يستقيلنى من وظيفته ... فانى مستعد أن أقبل منه جريا على العادة التى اتبعها فى ذلك . »

وقدم الشيخ محمد عبده استقالته من عضوية مجلس الأزهر فى نفس العــام الذى ألقى فيه الخديو خطابه السالف الذكر (١٣٢٣ هـ / ١٩٠٥ م) . وعمد رشيد رضا وباسهاب فى مقالاته بالمنار الى كشف النقاب عن سر هذه الاستقالة ، معرضا بالخديو، وما تركته هذه الاستقالة من أسوأ الأثر فى نفوس المسلمين . فقال فى احدى مقالاته بعنوان « تأثير ترك الأستاذ الامام للأزهــر فى المسلمين » ما يلى : « لقد اضطربت قلوب عقلاء المسلمين ، ووجمت نفوسهم لهذا النبأ فى كل قطر . فقد جاءتنا الكتب والرسائل فى ذلك من السودان وسورية وبلاد المغــرب والمشرق ما بين شاكية وباكية ... وانما كان هذا غريبا لأن تلك البلاد أبعد بلاد المسلمين عن التفكير فى الاصلاح أو الشعور بالحاجة اليه . ولكن هذه الأفكار قد سرت فى كثير من أهلها من بعض المهاجرين اليهم من المسلمين ، ومن قراء بعض الصحف كالمنار » .

وكتب رشيد رضا فى تلك الأيام ، عقب استقالة الاستاذ الامام مقالا رائعا بعنوان « حقيقة الأزهر » شرح فية أهمية هذا المعهد

وما تعرض له من ارتفاع وانخفاض مع تطورات المسلمين ، ثم نقد طريقة التدريس فية فقال : « للناس فى وظيفة الأزهر وحاله أراء وخواطر مختلفة يقل فيها الصواب . كان الأزهـــر مدرسة كسائر المدارس الاسلامية الكبرى فى الشرق والغرب يشتغل فيها المسلمون بجميع العلوم التى كانت معروفة فى الأرض أيام لا علم الا علمهم ، ولا عمران الا عمرانهم ، ولا مدنية الا مدنيتهم . ولما فتكت الأدواء السياسية والاجتماعية بعمرانهم ضعف فيهم العلم ، ودرست مدارس العراق والأندلس ، وهما جناحا عمران الاسلام ، وبقيت مدرسة الأزهر فى القلب أو الوسط . قد أصابه التدهور فى طرق التدريس والاستبعاد عن مسايرة التطور شأن ما حدث للمسلمين عامة حتى ظهر الأستاذ الامام محمد عبده الذى ، سمت به همته الى السعى فى اصلاح الأزهر ، معتقدا أن اصلاحه خير اصلاح لحال المسلمين الدينية والدنيوية ، ولاصلاح كل من يساكنهم فى بلادهم بالتبع لهم ، وأنه خير وسيلة للتعارف بين الشرق والغرب ، وخير صلة بين المدنية القديمة والمدنية الجديدة » .

ومهما يكن من أمر فقد ساء الخديو ثبات رشيد رضا على حبه للاستاذ الامام ، وخاصة بعد أن انتقل هذا المصلح الى جوار ربه سنة ١٩٠٥ . فقد قال نفر من الناس لرشيد رضا هل ستغير شيئا من خطة المنار بعد وفاة الأستاذ الامام ؟ . فقال : حاش لله ، ما كنت لأغير عملى التابع لعقيدتى وخلقى ، وكل فضيلة لمصر عندى أننى أستطيع منها خدمة ملتى وأمتى بما أعتقد أنه الحق النافع » وعمد الخديو الى استصدار فتوى من شيخ الأزهر أو

مفتى الديار يقول فيها أحدهما ان ما ينشر فى المنار مخالف لعقائد الاسلام وأصوله . ولكن لم يجرؤ أحد على القول بذلك . وأشاد رشيد رضا فى هذا الصدد بسعة صدر العلماء فى مصر ، وأنه برغم انتقاده الشديد لهم ظلوا يحتفظون له بالتقدير والاجلال . اذ قال ان الشيخ البشرى ، وهو ممن انتقده المنار ذكر للمقربين لديه : ان السيد رشيد رضا هو الآن لسان الاسلام .

على أن المحاولة اليائسة التى لجأ اليها الخديو لنفى رشيد رضا هى أنه أبلغ وزارة الداخلية أن خطابا جاء من السلطات العثمانية بالآستانة تطلب رشيد رضا لأداء الخدمة العسكرية . ورد السيد رشيد على وزارة الداخلية مبينا لها أنه حصل على الشهادات التى تعفيه من الخدمة العسكرية باعتباره من رجال الدين ، وقدم لهم المستندات الدالة على ذلك . هذا فضلا عن انتهاء المدة القانونية التى يصح فيها اشتغاله بالجندية . وفشل الخديو كذلك فى هذا المسعى ، وظل رشيد رضا يتابع رسالة أستاذه محمد عبده فى الدعوة الى اصلاح الأزهر ورجاله .

ولقى رشيد رضا الكثير من الأذى فى تلك السبيل ، ورماه خصومه بالحق والباطل ، فاضطر الى تأليف كتاب سماه « الأزهر والمنار » وصدر سنة ١٣٥٢ هـ شرح فيه آراءه وخلاصة تجاربه فى هذا الميدان ، مع تاريخ مفصل لهذا المعهد من حيث نشأته ورسالته وما اعترضه من تطورات وجمود . وقال فى مقدمة هذا الكتاب أنه أنفق خمسة وثلاثين عاما ، هى عمر شبابه وكهولته فى الاصلاح الاسلامى العام ، واصلاح الأزهر خاصة ، مع التزام

الأدب والتواضع مع أهله واجتناب الدعوى . وأنه أوذى فى هذه السبيل بكل ما أوذى به طلاب الاصلاح من قبله . ومن ثم فانه قد اضطر الى مكاشفة الأمة بتأليف هذا الكتاب ، يوضح فيه ماضى الأزهر وحاضره ومستقبله ، مع خلاصته فى جهاده فى سبيل اصلاحه .

ولم تذهب صيحات رشيد رضا مع الريح ، فقد خطا الأزهر بعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ المباركة خطوة جبارة فى سبيل استرداد مكانته العريقة ، والعمل بالرسالة التى تمناها له رشيد رضا ، ليكون « وسيلة للتعارف بين الشرق والغرب ، وخير صلة بين المدنية القديمة والمدنية الجديدة » فجامعة الأزهر تخطو اليوم خطوات سريعة نحو زعامة العالم الاسلامى ، وتثبت أن هذا المعهد الأصيل خير أمين على تراث الاسلام ، وأقوم سبيل للنهوض بالمسلمين وأبنائهم فى كل مكان . ذلك أن القومه على نهضة الجمهورية العربية المتحدة من أبناء أولئك المصلحين الأول ، أمناء على تحقيق آمالهم وأهدافهم .

تفسير القرآن

اذا كان رشيد رضا هو المدافع عن آراء محمد عبده وحامل لواء نشرها فى سبيل اصلاح الأزهر ، فانه كان فعلا « ترجمان أفكاره » فى تفسير القرآن الكريم ، تفسيرا يتفق مع منهجهما فى الاصلاح العام . وكما تحدث رشيد رضا مع أستاذه الامام فى الشهر التالى لوصوله مصر (شعبان سنة ١٣١٥هـ) فى شأن اصلاح الأزهر ، فقد طلب منه فى نفس الوقت أن يكتب تفسيرا للقرآن ،

ينفخ فيه من روحه التى تجلت فى مقالات العروة الوثقى . فأجابه محمد عبده بأن القرآن لا يحتاج الى تفسير كامل من كل وجه ، لأن هناك تفاسير كثيرة أتقن بعضها مالم يتقنها بعض ، ولكن الحاجة شديدة الى تفسير بعض الآيات ، وربما لا يتسع العمر لتفسير كامل . وعندئذ اكتفى رشيد رضا بأن اقترح على الأستاذ الامام قراءة دروس فى التفسير .

وحدث فى يوم الجمعة ١٣ رمضان سنة ١٣١٥ هـ أن أعاد رشيد رضا مناقشة الأستاذ الامام فى موضوع ضرورة وضع تفسير القرآن الكريم . اذ كان فى زيارة محمد عبده فى ذلك اليوم ، وكان يقرأ فى كتاب باللغة الفرنسية فيه طعن على الاسلام . وعلق الأستاذ الامام لرشيد رضا على ما قرأه بأن الافرنج يأخذون مطاعنهم فى الاسلام من سوء حال المسلمين مع جهلهم بحقيقة الاسلام . اذ أن القرآن نظيف والاسلام نظيف وانما لوثه المسلمون باعراضهم عن كل ما فى القرآن واشتغالهم بسفاسف الأمور . واستشهد الأستاذ الامام بآيات من القرآن لتوضيح رأيه.

وأعقب ذلك مناقشة بين محمد عبده ورشيد رضا الذى قال لأستاذه : ان الأمر يتطلب وضع تفسير على النحو الذى تفضلت بشرحه ، يقتصر فيه على حاجة العصر ويترك كل ما هو موجود فى كتب التفسير . فرد عليه الأستاذ الامام قائلا : ان الكتب لا تفيد القلوب العمى ، وانما تفيد القلوب المتيقظة العالمة بأهمية الحاجة اليها . « وأن الكلام المسموع يؤثر فى النفس أكثر مما يؤثر الكلام المقروء ، لأن نظر المتكلم وحركاته واشارته ولهجته فى

الكلام — كل ذلك يساعد على فهم مراده من كلامه . وأيضا يمكن السامع أن يسأل المتكلم عما يخفى عليه من كلامه ، فاذا كان مكتوبا فمن يسأل ؟ ان السامع يفهم ٨٠٪ من مراد المتكلم والقارئ لكلامه يفهم منه ٢٠٪ على ما أراد الكاتب .

غير ان رشيد رضا ذكر لاستاذه أنه يوجد كثير من الناس فى البلاد الاسلامية متشوقين للعلم ، وان كثيرا منهم لم ينتبهوا للاصلاح الا بفضل الكتب ، وضرب مثلا بنفسه قائلا انه لم ينتبه لما أدركه الا بفضل العروة الوثقى . وأن الكلام الحق وان قل الآخذ به والعارف بشأنه لابد أن يحفظ وينمو بمرور الزمن ، كما حفظت العروة الوثقى ، فان أوراقها الأصلية الضعيفة قد بليت ، لكن ما فيها من المقالات البديعة المثال والفوائد العظيمة قد حفظت فى النفوس .

وكانت تلك المناقشة سلسلة من حلقات دأب على عقدها رشيد رضا مع محمد عبده حتى تمكن أخيرا بعد سنة وثلاثة أشهر تقريبا ، من اقناع الأستاذ الامام بالقاء دروس فى التفسير فى الأزهر . واستهل محمد عبده درسه الأول فى التفسير فى غرة المحرم سنة ١٣١٧ هـ وانتهى منه فى منتصف سنة ١٣٢٣ هـ / ١٩٠٥ م عند تفسير قوله تعالى (وكان الله بكل شيء محيطا) ، وهى الآية ١٢٥ من سورة النساء ، أى قبل وفاة الأستاذ الامام بأشهر قليلة . واتبع محمد عبده فى تفسيره طريقة التوسع فيما أغفله أو قصر فيه المفسرون ، والافاضة بما يعين له من آراء .

على أن الأمر الهام هو أن رشيد رضا حضر جميع دروس

التفسير ، وكتب منها أثناء القاء الدرس ما تراءى له من مذكرات ، تشتمل على أهم ما رآه الأستاذ أو قاله ، ثم يبيض ما كتب فيما بعد ، ويزيد عليه ما قد يكون قد فاته من أشياء . واقترح بعض قراء المنار على رشيد رضا أن ينشر هذه التفاسير فى الجريدة لتعم فائدتها ، واستجاب لرأيهم وبدأ فى ذلك من أعداد المنار فى أول محرم سنة ١٣١٨ هـ / ١٩٠٠ م . وكان يطلع الأستاذ الامام أولا على كل ما يعد للطبع ، أى بعد جمع حروفه فى المطبعة ؛ ولكن قبل طبعه ، فكان ينقح فيه بزيادة قليلة أو حذف بضع كلمات ، دون أن ينتقد شيئا جوهريا ..

ووثق الأستاذ الامام فى رشيد رضا وحده فى تدوينه للتفسير ، اذ حدث مرة أن وقع مطر شديد عاق رشيد رضا عن الوصول فى الموعد المقرر الى الرواق العباسى ، حيث دأب محمد عبده على القاء دروسه . ولما دخل متأخرا أراد أن يجلس وراء من سبقه من الحاضرين ولكن محمد عبده سكت حين رآه داخلا ، وناداه ليكون بجانب كرسيه كالعادة ، قائلا للحاضرين : انه يستفيد أكثر من كل أحد منكم .

وأظهر الأستاذ الامام اعجابه بكل ما عرضه عليه رشيد رضا فى نقل مواضيع التفسير ، اذ لم يكن كله للأستاذ الامام ، وانما أضاف اليه الكثير من تفسيره الخاص أو من انشائه . وبرر رشيد رضا هذا العمل قائلا : « ولما كان رحمه الله تعالى يقرأ كل ما أكتبه قبل طبعه وهو الغالب ، واما بعده وهو الأقل ، لم أكن أرى حرجا فيما أعزوه اليه مما فهمته منه ، وان لم أكن كتبته عنه

فى مذكرات الدرس ، لأن اقراره اياه يؤكد صحة الفهم وصدق العزو » .

وبدأ رشيد رضا فى حياة الامام بتجريد تفسير الجزء الثانى من مجلة المنار وطبعه على حده وطبع أولا تفسير سورة العصر ، ثم شرع فى طبع الجزء الأخير من القرآن وأوله سورة الفاتحة وقوله تعالى « عم يتساءلون » . ونشر تفسير الأجزاء الثانى والثالث الى العاشر ما بين سنة ١٩٠٨ وسنة ١٩٣١ ، ووصل فى هذه الأجزاء الى تفسير الآية ٩١ من سورة التوبة . ثم أعاد النظر فى تفسير الجزء الأول ليتفق مع منهجه فى الأجزاء الأخيرة ونشره فى نوفمبر سنة ١٩٢٧ بعنوان تفسير الجزء الأول .

ولما صدر هذا الجزء الأول كتب له رشيد رضا مقدمة رائعة نقد فيها المناهج المختلفة التى سلكها المفسرون فى تفسير القرآن . وذكر فيها ان أكثر التفاسير السابقة تشغل القارىء بمناقشات فى المصطلحات اللفظية ، أو الجدل الكلامى ، وتأويلات المتصوفة ، وبما نشأ من الخلاف بين الفرق ، ثم أضاف ان الفخر الرازى زاد أمرا آخر ؛ هو ما يردده فى تفسيره من الآراء العلمية التى كانت معروفة على عصره ، وقلده فى ذلك نفر آخر ، حتى انهم أكثروا من الكلام على العلوم الحديثة مثل علم الفلك وعلم النبات وعلم الحيوان . واعترف رشيد رضا بأهمية هذه العلوم الحديثة لفهم القرآن ، ولكن يرى ان استخدامها بكثرة يشغل القارىء عن القصد الحقيقى للقرآن الكريم . وخلص من ذلك الى القول بأن

التفسير الذى وضعه راعى فيه « سهولة التعبير ومراعاة أفهام صنوف القارئين » .

ولذا يعتبر تفسير رشيد رضا للقرآن امتدادا لنشاط أستاذه محمد عبده فى تلك السبيل ،ومتابعة لحمل الرسالة التى تلقاها عن هذا المصلح الكبير . ثم ان رشيد رضا لم يقف عن هذا الحد ، وانما خطا خطوة هامة فى تلك السبيل حين ألف كتابه المشهور باسم « الوحى المحمدى » . وكان الغرض منه هداية المسلمين الى ما فى الاسلام من ينابيع تهديهم سواء السبيل ، وذلك مؤيدا بالدلائل العلمية العصرية التى يفهمها كل قارىء . فقد وجد رشيد رضا أن تفسير المنار ، برغم فوائده الجمه ، لا يدرس فى المدارس ولا يعتمد عليه فى التربية . ومن ثم اقتضت الحاجة وضع كتاب « الوحى المحمدى » ، بعبارة مختصرة ، تعلوها عناوين كبيرة أو صغيرة تشير الى ما تحتها من كنوز « فلا تتعب القارىء الكسول ، ولا تنفر السامع الملول » .

وقد كتب الأستاذ الكبير عباس العقاد تقريظا لكتاب « الوحى المحمدى » يعتبر خير بيان لأهمية هذا الكتاب وأهدافه ، وتحليلا رائعا أيضا لمكانة السيد رشيد رضا فى ميدان الاصلاح الدينى والاجتماعى . قال العقاد : أكثر من قرأت لهم من كتاب المباحث الدينية .. اثنان : هما السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار والأستاذ محمد فريد وجدى .. أما السيد رشيد رضا فهو أوفر نصيبا من الفقه والشريعة والدراسات الموروثة . ومزيته على الكتاب الدينيين فى العصر الحاضر أنه خلا من الجمود الذى

يصرفهم عن لباب الفقه الى قشوره ، وسلم من تلك العفونات النفسية التى تصيب أخلاقهم وتشوه مقاصدهم .. قرأت المنار ومباحث السيد رشيد رضا لأننى كنت أقرأ كل ما كتب الاستاذ محمد عبده وكل ما أوصى بقراءته .. ولا أزال كلما احتجت الى بحث مستنير فى الفقه والشريعة رجعت الى كتب السيد رشيد ..

« وكتاب الوحى المحمدى الذى أظهره صاحب المنار .. هو من أفضل ما كتب فى مباحثه الدينية ، توخى فيه كما قال : أن يكون أمضى مدية لقطع ألسنة الطاعنين فى الاسلام من دعاة الأديان الأخرى . وأراد به أن يكون كتابا يصلح لدعوة شعوب المدنية الحاضرة الى الاسلام .. وبيان ما فيه من الأصول والقواعد الدينية والاجتماعية والسياسية والمالية والدفاعية السليمة التى يتوقف على اتباعها اصلاح البشر وعلاج المفاسد المادية وفوضى الاباحية وخطر الحرب العامة التى استهدفت لها جميع الدول والشعوب .

« وعندنا أن الأستاذ يستجمع الكثير من أسباب الكفاءة الضرورية بتأليف كتاب فى هذا الموضوع للغرض الذى أبانه . فهو يعلم من أسرار الأصول الاسلامية ما لم يتيسر فى العصر الحاضر الا للقليلين بين علماء المسلمين . وهو مسموع الرأى فى العالم الشرقى ، كثير القراء والمريدين فى بلاد الاسلام . وهو أسلم فطرة من جميع من سمعنا بهم من المتصدين لهذه المباحث بين الشيوخ والفقهاء » .

الفصل الحادى عشر
فى معترك السياسة

ميدان السياسة

اذا كان رشيد رضا قد عاش فى عالم الاصــلاح الدينى والاجتماعى رئيسا وقائدا عظيما فانه دخل فى نفس الوقت معترك السياسة مجاهدا مناضلا . اذ جمع الى جانب نزعته الاسلامية المحضة نزعة عربية لا تقل عنها أصالة وقوة ، كما جمع بينهما دون أدنى تكلف . فكان من أطباء الأمراض التى ابتلى بها المجتمع فى العصر الحديث سواء فى الأخلاق أو السياسة ، وأدرك بما وهبه الله من يقظة الذهن والفكر أن للسياسة صلة وثيقة بالعلم وبالشرع وبالمنطق وبالأدب وبالاقتصاد . واستطاع رشيد رضا أن ينــال قصب السبق فى ميدان السياسة كما صار الفارس المجلى فى ميدان الاصلاح الدينى والاجتماعى بفضل ما انطوت عليه نفسه من خصال فريدة ممتازة . فلم يكن يضمر لأحد سوء ، وان أخذته فى بعض الأحايين حدة لاعتداء يقع عليه ، كما كان يضع العدل فوق كل شىء ، وهى أمور لا يتحلى بها الا كل كريم النفس ، صريح الطبع ، سليم الصدر .

وتجلت قدرة رشيد رضا على ضبط النفس ، وترك الأمور الى أوقاتها بعد هجرته الى مصر ، وصحبته للأستاذ الامـام محمد عبده . فعندما أنشأ المنار رغب أولا فى اتخاذه سبيلا لنشر مذهبه فى الاصلاح الدينى والاجتماعى ، ومنبرا لشرح منهجه فى الاصلاح السياسى كذلك . ولكن حال بينه وبين دخـول معترك السياسة فى هذه المرحلة المبكرة نصيحة الأستاذ الامام محمد عبده . اذ عندما عرض عليه رشيد رضا مقدمة العدد الأول من المنار ، وافق عليها كلها ، عدا ما جاء فيها من اشارات سياسية. فقد ضمن رشيد رضا هذه المقدمة أهداف المنار ، ومنها بيـان حقوق الأمة على الامام ، وحقوق الامام على الأمة .

استحسن محمد عبده المقدمة كلها عدا العبارة الأخيرة السالفة الذكر ، وأشار لرشيد رضا بأن هذا القول يؤدى الى الخوض فى السياسة العثمانية ، وأنه يترتب على ذلك فتنة يخشى ضررها ولا يرجى منها نفع . ثم ذكر قوله المشهور لرشيد رضا : فلا تخلط السياسة بمقاصدك الاصلاحية لئلا تفسدها عليك ، فانها ما دخلت فى عمل الا وأفسدته ..وبرغم ادراك رشيد رضا لمفاسد الدولة العثمانية ، وسوء ادارتها ورجالها ، وأن ذلك كان السبب فى هجرته الى مصر فانه استجاب لنصيحة الأستاذ الامام ، وحذف من المقدمة العبارة التى اعترض عليها .

وظل رشيد رضا يجد من أستاذه محمد عبده كابحا لجماحه كلما همّ بالانطلاق نحو معترك السياسة . فكان من أقوال الأستاذ الامام المشهورة « أعوذ بالله من السياسة ، ومن لفظ السياسة ومن

معنى السياسة ، ومن كل حرف يلفظ من كلمة السياسة ، ومن كل خيال يخطر ببالى من السـياسة ، ومن كل أرض تذكر فيها السياسة ، ومن كل شخص يتكلم أو يتعلم أو يجن أو يعقل فى السياسة ، ومن ساس ويسوس ، وسـائس ومسوس . وكان لمحمد عبده عذره فى هذا الرأى ، بعد أن قاسى الأهوال أيام الثورة العرابية ، وعانى آلام النفى ، فضلا عما شاهده فى ميدان السياسة على صفحات العروة الوثقى . وفى نفس الوقت كان لرشيد رضا عذره فى تلك النوبات من حمّى السياسة التى انتابته من حين الى آخر . فقد غادر وطنه نتيجة طغيان العثمانيين واستبدادهم ، كما تعرض أهله فى الشام للأذى الشديد على يد أعوان أبى الهدى الصيادى .

وتحمل رشيد رضا فى صبر الأبطال المؤمنين ما حل به وأهله من سوء امتثالا لنصيحة أستاذه محمد عبده . وكل ما استطاع عمله فى ذلك الوقت للتنفيس عن نفسه هو نشر « سجل جمعية أم القرى » ، لأحد أحرار العـرب بمصر ، وهو عبد الرحمن الكواكبى . وكان من حسن طالع الكفاح العربى ضد العثمانيين أن جمع بين هذين الزعيمين فى مصر . فعبد الرحمن الكواكبى مواطن من الشام من حلب الشهباء ، على حين انتمى السيد رشيد رضا الى القلمون بالقرب من طرابلس الشام . وكان كل من هذين البطلين يناضل فى وطنه بالشام دون أن يدرى أحدهما بالآخر . الكواكبى يحمل لواء معارضته العثمانيين داخـل البـلاد ، ورشيد رضا على الساحل . وقد سجن الكواكبى عندما اشتدت

حملاته ضد طغيان السلطان عبد الحميد ، وحين أطلق سراحه لجأ الى مصر ، حيث كان بها رشيد رضا لاجئا فى وطن الأحرار .

وتناقش الزعيمان وهما بأرض مصر فى كل شئون العالم العربى . وبينما كان رشيد رضا يجد فى أستاذه الامام محمد عبده كابحا كلما هم بمهاجمة العثمانيين ، كان عبد الرحمن الكواكبى طليقا ، يكتب فى الصحف ما يشاء ، وينشر بها آراءه التى ضمنها فى كتابين عظيمين، هما طبائع الاستبداد ، وسجل أم القرى. وأهمية مؤلفات الكواكبى وما فيها من آراء أنها فرقت لأول مرة بين الحركة الاسلامية أو الوحدة الاسلامية التى سبق أن نادى بها جمال الدين الأفغانى ، واعتنقها لمصالحه الشخصية السلطان عبد الحميد ، وبين الوحدة العربية . لقد رأى الكواكبى ، ومعه رشيد رضا أيضا ، أن العثمانيين استغلوا الوحدة الاسلامية لوأد نهضة الأمة العربية ، على حين أدرك كل منهما ، نتيجة الاطلاع الواسع ودراسة التاريخ ، أن هناك صلة وثيقة بين عبقرية العرب وروح الاسلام ، وان العرب قاموا بدور هام فى نشر هذا الدين ، وأنه لا نجاة الا بعودة العرب مرة أخرى لتولى تسيير دفة العالم الاسلامى ، وبالتالى ازالة سلطان العثمانيين .

وأشار الكواكبى الى هذه الآراء صراحة فى الوقت الذى ظل فيه رشيد رضا ملتزما لنصيحة أستاذه محمد عبده بعدم الخوض فى سياسة الدولة العثمانية . فقال الكواكبى فى كتابه طبائع الاستبداد ، أن العثمانيين أخضعوا الناس لهم باسم الخلافة، وحملوهم بذلك على أن يخلدوا للسكينة والكسل ، وترك الأمر

للطبيعة تطعمهم وتسقيهم حتى انقلبت جنات بلادهم الى صحارى موحشة . واستغل العثمانيون هذا الضعف وتمادوا فى طغيانهم واستبدادهم ، وادعوا لأنفسهم لقب « حامى الحرمين وسلطان البرين والبحرين » . ثم أن السلطان العثمانى ركب رأسه حتى انتشر الفساد بين الناس وانهارت قواعد الأخلاق وفى كل ذلك انهيار للأمة .

ولم يقف رشيد رضا مكتوف اليدين تماما أمام هذا النشاط الذى أظهره مواطنه وزميله فى الجهاد عبد الرحمن الكواكبى . فأخذ ينشر تباعا فى المنار ، ابتداء من السنة الخامسة من عمر جريدته الكتاب الثانى لهذا الزعيم ، وهو «سجل أم القرى»، وهو الأمر الذى ساعد على ترويج المنار ، وزيادة قرائه وخاصة فى مصر. وعرض رشيد رضا على صفحات المنار آراء عبد الرحمن الكواكبى، وكيف أنه وقف فى كتابه « أم القرى » موقف الطبيب أمام المريض، يفحص داءه ويتعرف أسبابه ثم يصف العلاج فى أسلوب قصصى جذاب . وقد سماه « أم القـرى » لأنه افترض عقد جمعية من المسلمين من شتى انحاء العالم فى مكة وهى « أم القرى » واسندت أعمال السكرتارية فيها الى السيد الفراتى ، وهو الاسم الذى كنّى به الكواكبى رئاسـته فى جلسات تلك الجمعيـة . وقد لخص السكرتير آراء الحاضرين عن أسباب ضعف المسلمين فيما يلى :

١ — أسباب دينية ، أهمها عقيدة الجبر ، ونشر ما يدعو الى التزهيد فى الدنيا وترك السعى والعمل .

٢ — أسباب سياسية ، منها السياسة الخالية من المسئولية

واعتبار العلم صدقة يحسن بها الأمراء على الخاصة .

٣ — أسباب خلقية ، منها الاستغراق فى الجهل واستيلاء اليأس على النفوس .

٤ — أسباب تتعلق بالدولة العثمانية ، منها الخور فى سياسة تلك الدولة الناشيء من عدم تمسكها بأصول الادارة المركزية مع ارتباك لهذه الادارة . ذلك أن الدولة درجت على التمييز الفاحش بين أجناس الرعية فى المناصب ، وقد أصاب العرب غرم كبير ، مع أنهم يؤلفون ثلثى الرعية .

وتلك الآراء التى نادى بها الكواكبى ، ونشرها رشيد رضا على صفحات المنار ، جاءت تنفيسا عما دار فى نفسه ، ودلالة على اتفاقه مع النتيجة التى وصل اليها قرينه فى الجهاد . اذ قال الكواكبى أنه لا نجاة الا بالعودة الى مجد العرب ، وتولى العرب مقاليد الأمور . وحمل رشيد رضا فى مناره تلك الآراء ، واستطاع أن يخطو بها خطوات واسعة نحو الأمام ، لأن العمر امتد به أكثر مما امتد بالكواكبى الذى توفى سنة ١٩٠٢ . ولم يعدل رشيد رضا فى آراء الكواكبى الا حين دعا الى عقد مؤتمر اسلامى يكون مقره القاهرة لأنها صارت قلب العروبة النابض . ولذا كان هذان الزعيمان على صلة وثيقة فى الآراء التى نادى بها كل منهما ، حتى التبس على رجال السلطات العثمانية هذا الأمر ، وظنوا أنهما يتعاونان فى الاساءة اليها . واعترف بذلك رشيد رضا حيث قال : « وقد كنا معه (الكواكبى) على وفاق فى أكثر مسائل الاصلاح ،

حتى أن صاحب الدولة مختار باشا الغازى (من رجال العثمانيين) اتهمنا بتأليف الكتاب (أم القرى) عندما اطلع عليه » .

واذا كان رشيد رضا قد استطاع فى السنة الخامسة من المنار أن يدخل رويدا رويدا فى ميدان سياسة العثمانيين وبطريقة غير مباشرة ، فانه لم يستطع أن ينطلق كما يريد على نحو ما رسمه لنفسه فى السنة السادسة من تاريخ جريدته . اذ شرع فى هذا العام السادس من المنار فى نشر رسالة فى مالية الدولة العثمانية ، ولكن الأستاذ الامام محمد عبده طلب منه ألا يتابع العمل فى هذا الموضوع ، فامتثل لرأيه ، ولكن رشيد رضا عبّر عن شعوره اذ ذاك قائلا : « ولكن ضقت ذرعا بسوء حالنا السياسية ، فصرت أكثر فى تفسير القرآن الحكيم من السياسة » .

ولم تلبث الأحداث فى الدولة العثمانية أن أيدت رأى رشيد رضا فى ضرورة نقد سياسة هذه الدولة . ذلك أن العلاقات ساءت بين العثمانيين وبين الأستاذ الامام محمد عبده نفسه ، الذى اتهمته السلطات العثمانية بأنه يعمل على قلب الوضع باقامة خلافة عربية . وتولى تدبير هذه المؤامرة أخطر شخصية فى الدولة العثمانية ، بعد أبى الهدى الصيادى ، وهو عزت العابد . وكان من أهل الشام المغامرين ، واستطاع أن ينال حظوة كبرى لدى السلطان عبد الحميد . فعلى الرغم من امتلاء الآستانة بالدهاة الا أن دهاء عزت باشا كان خارقا وطاغيا « كما كانت له قدرة على معرفة الصفات البشرية الدنيئة الكامنة فى خلق الناس واستغلالها. فاستطاع أن يفهم ما انطوت عليه نفس السلطان عبد الحميد من

جبن وغرور ، واستغل تلك الصفات ، وصار قطب الرحى فى سياسته العربية القاتلة .

وصدقت السلطات العثمانية هذه المؤامرة التى دبرها عزت العابد ، فى الوقت الذى توفى فيه محمد عبده ، دون أن تدرى . كما أن الحكام العثمانيين فى طرابلس صبوا جام غضبهم على والد رشيد رضا ، ولقى ربّه وهو محاصر بالجنود العثمانيين ، دون أن يودع أهله الوداع الأخير . وصادرت السلطات العثمانية ممتلكات أسرة رشيد رضا دون وجه حق ، كما حرضت نفرا من ذوى النفوس الدنيئة على نهب أموالهم ، والاعتداء على بعض أفراد هذه الأسرة.

مرحلة الانطلاق السياسى

ولما توفى الأستاذ الامام محمد عبده سنة ١٩٠٥ دخل رشيد رضا ميدان السياسة جهارا ، وعمل على نقد الدولة العثمانية ، والاشتراك عمليا فى محاولات اصلاح الأوضاع فيها . وشرح رشيد رضا سياسته الجديدة قائلا : « وبعد وفاة الأستاذ الامام صرفنا وقت الفراغ والراحة الذى كنا نجالسه فيه الى مجالسة اخواننا العثمانيين المقيمين فى القاهرة ، فازددنا علما بسوء الحال وخطر المآل » .

واتفقت آراء العثمانيين فى مصر على تشكيل لجنة أطلقوا عليها اسم « جمعية الشورى العثمانية » ، وتولى رئاستها رشيد رضا . وبدأت هذه الجمعية ترسل منشوراتها السرية الى سائر أرجاء البلاد العثمانية ، حتى أقلقت مضاجع السلطان عبد الحميد ، وأنزلت الرعب والفزع فى نفسه . واستطاع

رشيد رضا بنشاطه وأفقه السياسى الواسع أن يحفظ لتلك الجمعية شخصيتها . اذ علم بنبأ تشكيلها جمعية سرية أخرى عثمانية ، تكونت فى أوربا وهى جمعية « الاتحاد والترقى » ، من شباب تركيا الساخط على السلطان عبد الحميد . وجاء منـدوب عن « الاتحاد والترقى » وقابل رشيد رضا لدمج جمعيته معهم ، وتوحيد العمل ضد السلطان عبد الحميد . وأبى رشيد رضا هذا الطلب وقال لمندوب الاتحاد والترقى : « ان تعدد الجمعيات مع وحدة الغاية والمقصد لا يعد تفرقا ولا يحدث ضعفا ، وانا نرى أنه لا نجاح للعثمانيين الا باتفاق عناصرهم على المطالبة بالدستور».

وكان السبب فى رفض رشيد رضا الاندماج مع جمعية الاتحاد والترقى هو ما لا حظه من اقتصار هذه الجمعية على شـباب العثمانيين فقط دون سائر العناصر الأخرى وخاصة العرب فى الدولة . وهذه الملاحظة التى تدل على سعة أفق رشيد رضـا السياسى سوف تكون نقطة الخلاف الكبرى فيما بعد بين العرب والعثمانيين . وظل رشيد رضا منذ هذا الوقت المبكر يحمـل الحذر والحيطة من شباب تركيا وجمعيتهم « الاتحاد والترقى » ووضع خبرته فى خدمة أمته العربية ، والعمل على اعادة مجدها ، كما سبق أن أوضحه الكواكبى .

وبدأ رشيد رضا اتجاها جديدا على صفحات المنار ، وهو مهاجمة استبداد الدولة العثمانية ، وسياسة السلطان عبد الحميد، ومخاطبا أحرار العثمانيين ، الراغبين فى العدل والمساواة . وشرح رشيد رضا شرحا مؤثرا هذا التطور فى حياته وجريدته قائلا :

« سالمنا السياسة فساورت وواثبت ، وأسلسنا لها فجمحت وتقحمت . وكنا نهم بها فى بعض الأحيان ، فيصدف بنا عنها الأستاذ الامام ، ولم ننل منها ما نهواه الا بعد أن اصطفاه الله . وليس للمنار حظ فى السياسة العملية ، وانما همه أن يكون حرا فيما فرض عليه من الخدمة الملية .. وما كتاب الصحف الا معلمون ومرشدون ، وهل يعلم الأستاذ تلاميذه ما يعلمون ، ويربى المرشد مريديه كما يريدون » وأوضح رشيد رضا بذلك أن هدفه من ثمار تجاربه ، وليس من وحى أحد ، وأنه لا يعمل الا ابتغاء الحق ، وخدمة الأمة الاسلامية والعربية .

ولم يلبث جهاد رشيد رضا فى هذا الميدان السياسى أن أتى ثمرة ناضجة عظمى ، قوامها الاطاحة باستبداد السلطان عبد الحميد ، ثم خلعه هو نفسه عن العرش . اذ استطاعت جمعية الاتحاد والترقى أن تقوم بثورة ضد هذا السلطان الغاشم سنة ١٩٠٨ م ، وبدأت تعمل على حكم الدولة حكما دستوريا . ولكن رشيد رضا برغم مشاركة سائر البلاد الاسلامية فرحها بهذا الانقلاب دأب على النصح بالتريث والترقب ، حتى يتضح الموقف تماما ، ولا يصدم الناس فى آمالهم . وكان رشيد رضا قد لمس بنفسه أن السلطة الجديدة فى الدولة العثمانية تسير على سياسة أشد تعسفا بالعرب من سياسة السلطان عبد الحميد نفسه . وجاءت آراء رشيد رضا نتيجة زيارة قام بها لوطنه سنة ١٩٠٨ بعد زوال استبداد السلطان عبد الحميد ، وتولى «جمعية الاتحاد والترقى» مقاليد السلطة .

وشرح رشيد رضا فى مقالات عديدة استقبال مواطنيه من أهل الشام له ، ثم ما حدث من أمور عكرت صفو تلك الزيارة ، وما تخللها أيضا من هواجس عن مقاصد السلطة الجديدة فى الدولة ورجالها . فوصف حفاوة أهل طرابلس الشام به حين دخل المدينة ، وكيف رحبت به جميع الطبقات ، ومعها فرق الموسيقى . ولكن ما كاد موكب استقباله يقترب من الدار المعدة لنزوله حتى بدأت أولى الهواجس تأخذ طريقها الى نفسه . اذ خرج أحد الأشقياء من بين الصفوف ومعه عصا غليظة أهوى بها على جانب رأس رشيد رضا ، كما أخرج مسدسا وأطلق منه رصاصة حين رأى تكاثر الناس عليه ، وفر هاربا دون أن يستطيع أحد القبض عليه .

وعلم رشيد رضا أن المعتدى أحد أفراد عصابة سبق أن استخدمها رجال السلطان عبد الحميد لارهاب بيت رشيد رضا ، اذ قد حنق المعتدى لهذا الاستقبال الحافل ، ورأى فيه اشادة بمكانة هذا المصلح العظيم وآل بيته ، ورغب فى تشويه حفلة الاستقبال والتكريم . وندد رشيد رضا بهذا الحادث فى مقال بعنوان « الاصلاح الأهم المقدم فى المملكة العثمانية » قال فيه ان تنظيم الشرطة يجب أن يقدم على كل شىء لأجل حفظ الأمن العام . ثم شرح وجهة نظره قائلا : « كنا نعلم أن من فى البلاد من الشحنة والشرطة قد أفسد أكثرهم حكم الاستبداد الماضى ، فصاروا أعوانا للأشقياء والمجرمين ... لو أخذ ولاتنا بالحزم فى أوائل العهد باعلان الدستور ، وساعدتهم جمعية الاتحاد والترقى

التى أخذت بيدها صولجان السلطة عدة أشهر لدى حكومة الأستانة بأمرها ، فقبضوا على كل من يرتكب جناية وعجلوا بمجازاته حتى القتل ان قتل لأراحوا أنفسهم وأراحوا الأمة » .

ولكن فشلت سلسلة المؤامرات التى سبق ان دبرت لتشويه هذا الاستقبال الرائع الذى أعده أهل الشام لرشيد رضا . اذ كان استقبال أهل القلمون لابن بلدتهم حافلا ، اشترك فيه الشيوخ والكهول والأطفال والنساء ، حيث وقف أكثرهم على الطريق الممتد من طرابلس الى القلمون ، وهى مسافة ساعة ونصف ساعة ، ووصف رشيد هذا الاستقبال قائلا : « وقد راعنى وأثر فى نفسى رؤية الأطفال الصغار من بنين وبنات فى الخامسة والسادسة فما فوق يتعسفون الطريق ويتسلقون الروابى بين الأشواك والحجارة ، تبعوا فى ذلك آباءهم وأمهاتهم وأخواتهم . وكان النساء يغنين ويزغردن .. » .

واستغل رشيد رضا هذه الزيارة وغيرها الى سائر مدن الشام للوعظ والارشاد ، ونشر آرائه فى الاصلاح ، وحض مواطنيه خاصة على دراسة العلوم العصرية . ووجد دعاة السوء، فى هذه الخطب والندوات العلمية سبيلا لافساد حفلات الاستقبال. ووقع أخطر شغب عقب خطاب لرشيد رضا فى المسجد الأموى بدمشق . اذ اعترض نفر من الناس على كلامه حول الأولياء ، وأثاروا شعور العامة لولا تدخل السلطات لحل الأزمة المفتعلة . على أن هذه الأزمات لم تقض على بهجة الاستقبال ، كما أنها

لم تصرف رشيد رضا عن بيان هدفه من هذه الزيارة لمواطنيه . فقال فى احدى خطبه الرائعة فى الشام :

« ان لى فى هذه الدنيا وطنين ، وطن المنشأ والتربية وهو سورية . فانى نشأت فى قرية القلمون المجاورة لطرابلس الشام فى ساحل الكورة من لبنان ، وتعلمت فى طرابلس . ووطن العمل وهو مصر التى أقمت فيها احدى عشرة سنة ، أدعو الى الاصلاح الدينى والاجتماعى والسياسى ، وأقرأ الدروس وأعمل فى بعض الجمعيات .

« ولما أقر الله عيوننا معشر العثمانيين بالحكومة الدستورية اشتقت الى زيارة وطنى الأول لرؤية الأهل والأصدقاء ولاختبار رجال البلاد بعد أن اشتدت عليها وطأة الاستبداد ، ومساعدة محبى الاصلاح والترقى فى التنبيه لما يجب أن تتوجه اليه الهمم » .

ثم لخص رشيد رضا النتائج التى خرج بها من زيارته للشام فيما يلى : —

١— انه يخشى من جماعة « الاتحاد والترقى » الاندفاع فى الطريق الذى سار فيه المستبدون من رجال السلطان عبد الحميد . فقد زار المدن السورية ورأى عجز رجال الاتحاد والترقى عن السير فى الطريق القويم .

٢— أن السلطة الجديدة لم تحسن انتقاء العمال والحكام ، ومن ثم بدأ الفساد يسير على النحو الذى كان عليه من قبل .

وضرب رشيد رضا مثلا بما حدث له ولأسرته نتيجة سوء الادارة ، واحساسه بأن الوضع السياسى لم يتغير نتيجة مجيء جماعة الاتحاد والترقى . اذ انتهز فرصة وجوده فى طرابلس وقدم طلبا لاسترداد أملاك الأسرة ، التى سبق أن اغتصبها ظلما وقهرا رجال السلطان عبد الحميد : ولكن نائب طرابلس ماطل فى النظر فى الدعوى ، وقال رشيد رضا : « ان السبب فى هـذا هو أنه حاكم مستبد فى حكومة يرى هو أنها أقرب الى الفوضى من الحكومة الاستبدادية الماضية . »

ومضي عام كامل بعد عودة رشيد رضا من زيارته دون أن يرجع اليه أو لأسرته حقهم المسلوب .

٣ـ على أن النتيجة الخطيرة التى لمسها رشيد رضا أثناء زيارته للشام هى وجود اتهامات توجه الى جمعية الاتحاد والترقى بالتعصب للجنسية التركية ، واهمال شأن العرب خاصة دون نظر لمكانتهم فى الدولة . وأوضح رشيد رضا أن هذه الاتهامات هى أخوف ما يخافه العقلاء اذ ذاك على مستقبل الدولة العثمانية وعلاقاتها بالعالم العربى .

وقبل أن يكوّن رشيد رضا رأيه فى هذا الموضوع الأخير الخطير رأى أن يسافر بنفسه الى الأستانة ، ويقابل رجال « الاتحاد والترقى » فيها ، وخاصة أن السلطان عبد الحميد قد عزل ، وبات الأمر فى يدهم تماما . وترتب على هذه الزيارة للآستانة نتائج عظمى فى التفكير السياسى لرشيد رضا ، كما أثرت تأثيرا عظيما فى كفاحه السياسى كذلك .

رأى رشيد رضا أن تجاهل سلطات الاتحاد والترقى لحقوق أسرته فى الشام يعتبر أمرا هينا الى جوار روح التعصب والاستعلاء التى أخذت تسم أعمالهم . وتعرف هذه السياسة فى تاريخ الدولة العثمانية « بالحركة الطورانية » ، وقوامها ميل العثمانيين الى ربط تاريخهم بالعناصر التركية ، ووأد كل حركة للنهضة أو اليقظة بين الشعوب التابعة لهم . ولما كانت البلاد العربية ، وخاصة الشام والعراق وجزيرة العرب ما زالت تابعة للدولة العثمانية ، فقد بدأ القلق يساور كبار أهلها وقادتها على مستقبلهم فى ظل العهد الذى سبق أن صفقوا فرحا لقيامه .

وأحس رشيد رضا بعد عودته الى القاهرة ازدياد روح التعصب الجنسى عند الترك ، والذى سبق أن سمع شائعاته وهو فى وطنه . ذلك أن القاهرة غدت فى ذلك الوقت مرآة الشرق والغرب ، ويسهل على المقيم فيها نتيجة حرية الصحافة بها أن يعرف أحوال البلاد العثمانية وسياسة الدولة فيها . اذ كتب أحد شبان الأتراك المقيمين فى القطر المصرى مقالات فى جريدة الأهرام يفاخر فيها العرب بقومه وجنسه ، مدعيا بأنهم وحدهم هم الذين أزالوا حكومة السلطان عبد الحميد الاستبدادية ، وليس للعرب ولا لغيرهم من الأجناس أن يطمعوا فى مساواتهم فى مناصب الدولة لأن ولاياتهم مستعمرات ، ويجب أن يكون قصارى حظ العرب من الدستور أن يستريحوا من أعباء الظلم فيكونوا من الترك كأهل الجزائر من فرنسا ، أو أهل الهند من انكلترا .

وفى هذا الوقت أيضا صدر مقال فى جريدة «أقدام» التركية ، وهى لسان جمعية الاتحاد والترقى ، نادى فيه صاحبه بالعمل على تنقية اللغة التركية من الألفاظ العربية . ولهذا كله بادر رشيد رضا بالسفر الى الآستانة ، وقضى أسبوعا كاملا فى العاصمة لا يقابل أحدا من أولى الأمر ولا من أصحاب الجرائد ، وانما كان همه محصورا فى اكتشاف الآراء ، ومعرفة ما تنطوى عليه الصدور ، مستهدفا الوقوف على الحقيقة لذاتها . وكان رشيد رضا يرى فى ذلك الوقت أن ما حدث بين العرب والأتراك من جفوة انما هو من الأمور الطبيعية التى تقع بين الاخوة الأشقاء ، ومن الخير تدارك الأمر قبل أن يتسع الخرق .

وبعد أن جمع الحقائق كتب عدة مقالات رائعة بعنوان « العرب والترك » نشرها فى جريدة « أقدام » التركية موضحا وجهة نظره وأهدافه . فقال : « اننى ما تركت مصر وجئت الآستانة فى هذا الوقت لأمتع النفس باستنشاق هوائها وعذوبة مائها ومناظر بوسفورها ، وانما جئت باحثا ومختبرا أو ساعيا فى الاصلاح . فأنا أعرض ما عندى من المعرفة والاختبار والرأى على أولى الأمر وأهل الحل والعقد ، بعضه بالمشافهة والمسارة ، وبعضه بالكتابة فى الجرائد . فان صادف آذانا واعية ، وأعينا بصيرة متأملة ، فذلك ما أرجوه .. والا فحسبى أننى أديت الواجب علىّ وعملت بالنصيحة الواجبة لأئمة المسلمين وعامتهم » .

وتحدث رشيد رضا بصراحة تامة فى المقالات التى نشرها فى الجريدة التركية ، موضحا أن هناك أسبابا حقيقية للجفوة ، وقعت

كلها من جانب جماعة الاتحاد والترقى . ومن ذلك أن الحكومة الجديدة أسرفت فى عزل أبناء العرب من وظائفهم ، حتى انها عزلت فى وقت قصير زهاء بضعة عشر حاكما . ومن ذلك أيضا تعجل الحكومة بأمور تثير الريبة ، فمثلا استدعت الضباط العرب، ولا سيما أركان الحرب منهم من الولايات العربية ، الى الآستانة ثم فرقتهم فى البلاد التركية . ثم ان التمثيل النيابى فى مجلس الأعيان والمبعوثين لم تراع فيه المساواة ، وفاز الأتراك بنصيب الأسد نتيجة تزوير العثمانيين للانتخابات .

وأخيرا أوضح رشيد رضا مسألة على جانب من الخطورة ، وهى أن الحكومة العثمانية اتخذت اجراءات تكشف عن سياسة متعمدة لاضعاف اللغة العربية ، فمثلا أمرت بأن تكون المرافعات فى محاكم الولايات العربية باللغة التركية مع علمها بأن الناس يجهلونها فى الغالب حتى وكلاء المحامين . ثم الاصرار على جعل الكشوف التى يقدمها التجار من أبناء العرب فى بلادهم الى ادارة الجمارك باللغة التركية أو الفرنسية مع تعسر ذلك ، وأخيرا ما قامت به نظارة المعارف من الغاء الدروس العربية من المكتب الملكى ، وجعل اللغة العربية اختيارية فى المدارس الاعدادية ، وارسالها معلمين من الترك الى مدارس البلاد العربية لأجل تعليم العربية نفسها وهم يجهلونها ، فضلا عن تعصب أولئك المعلمين ، واسماعهم أبناء العرب فى المدارس ما يجرح عواطفهم حتى فى الدروس .

وضرب رشيد رضا مثلا عمليا فى مقالاته فى نفس الجريدة

التى نشر بها مقالاته الرائعة . فقال ان جريدة أقدام نشرت اقتراحا لباحث بقصد تنقية اللغة التركية من الألفاظ العربية . وقال ان الجريدة ادعت بأن هذا بحث فنى محض ، والغرض منه الدراسة. ولكن رشيد أجاب على ذلك قائلا : « ولماذا طلب هذا المصلح اللغوى تطهير لغته من العربية دون الفارسية والفرنسية .. ان هذا الكلام يعد طعنا فى كتاب الله عز وجل وأحاديث رسـوله صلى الله عليه وسلم ، وان هذه الدعوى قد تكون مقدمة لدعوة أخرى تترتب عليها اذا أجيبت وعمل بها وهى الدعوة الى الارتداد عن دين الاسلام لأن أصله وأساسه من الكتاب العزيز والسنة النبوية ، وانما هما باللغة العربية .. الى هذا الحد البعيد وصل سوء تأثير ذلك الاقتراح الفنى لنشره فى هذا الوقت النحيف ، الذى يجرحه مر النسيم ويدميه لمس الحرير » .

وأخيرا حصر رشيد رضا أسباب سوء التفاهم فى أمرين ، أحدهما تعالى الترك على العرب بالنعرة الجنسية وايثـارهم أنفسهم بمناصب الدولة ، والثانى التقصير فى نشر اللغة العربية . أما الأول فتلمس رشيد رضا فيه العذر للأتراك لأنهم قد جروا على اتخاذ أعمال الحكومة معاشا وموردا للرزق ، وهم قلمـا يحسنون عملا آخر . ثم نصح الأتراك مع ذلك بضرورة البحث عن مورد للرزق دون الاعتماد على الحكومة ، لأن تلك سياسة فيها ضرر وقصر نظر .

أما التقصير فى نشر اللغة العربية فلم ير رشيد رضا لحكومة الاتحاد والترقى أى عذر مقبول . ذلك أن اللغة العربية لا تقل

أهمية عن التركية ، وهى اللغة الرسمية ، بل تتفوق عليها بما يلى:

١ — ان العربية هى لغة القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، وهى أصل الدين الاسلامى ، وهو الدين الرسمى للدولة .

٢ — ان السواد الأعظم من أهل المملكة مسلمون يحتاجون الى العربية فى فهم دينهم ودراسة القرآن الكريم .

٣ — ان الشريعة الاسلامية هى الينبوع الذى تستمد منه الأحكام التى يحكم بها فى الأحوال الشخصية والمدنية، وتطلق عليها القوانين ، ومعظم كتبها باللغة العربية ، فالدولة محتاجة الى تعليم هذه اللغة .

٤ — ان العنصر العثمانى العربى هو أكبر العناصر وأبعدها عن معرفة اللغة الرسمية للدولة ولا يتيسر تعميم هذه اللغة فيهم .

٥ — ان اللغة العربية أصل من أصول اللغة التركية الرسمية ، يقرب أن يكون ثلث مفرداتها أو نصفها مستمد منها ، ولا سيما المفردات فى علوم الطب والتشريح والنبات والحيوان . فتعلم العربية فى مكاتب الدولة يقوى تعليم اللغة الرسمية .

وانتقل رشيد رضا بعد ذلك الى بيان الفوائد التى تعود على الدولة العثمانية نتيجة الوفاق مع العرب . فقال ان عظمة الدولة العثمانية وعزتها يتوقف على العنصر العربى . اذ أن البلاد العربية أوسع من البلاد التركية مساحة وأغزر ثروة وأحسن موقعا وأشرف

بقعة من حيث هى مهبط الوحى . ثم ان أهل هذه البلاد أقدر على الزراعة والصناعة والتجارة من غيرهم ، وذكاؤهم واستعدادهم للعلم مشهور . والعرب أصبر على القتال والقدرة على معرفة فنون الحرب والرابطة بين العرب والأتراك يجب أن تكون كالرابطة المتينة بين عنصرى الأكسجين والايدروجين فى تكوين الماء .

وقضى رشيد رضا عاما كاملا فى الآستانة يدعو الى ازالة الجفوة بين العرب والأتراك ، ويدرس عن كثب أصحاب السلطان الجديد من جماعة الاتحاد والترقى . ولكنه أدرك سريعا أن الحكام الجدد تنطوى نفوسهم على الخديعة والمكر ، وسوء النية تماما بالعرب . وتكشفت له هذه الحقيقة عمليا عندما عرض عليهم مشروع انشاء مدرسة الدعوة والارشاد . اذ ماطلت السلطات العثمانية فى قبول هذا المشروع ، وأدرك أن رجالها لا يرجى منهم نفع ، فهم يقولون له غير ما يضمرون ، ويفعلون غير ما يعلنون . ومن ثم عاد رشيد رضا الى مصر ، وطن الأحرار ، مرة أخرى ، يعلن من منبرها ما وصل اليه من نتائج دراساته فى الآستانة . وقد دق فى المنار ناقوس الخطر لينبه الأمة العربية الى ما يجب عليها القيام به لحماية نفسها أمام التطورات الداخلية والخارجية التى بدأت تلوح فى الأفق . وتمثلت تلك التطورات فى الزحف الأوربى على العالمين الاسلامى والعربى عن طريق الرجل المريض فى الآستانة ، واندفاع العالم كله كذلك نحو هاوية الحرب العالمية الأولى .

الفصل الثاني عشر

القضايا العربية

عود على بدء (المسألة الشرقية)

كشف رشيد رضا أثناء خوضه غمار السياسة عن مقدرة فريدة فى فهم الأوضاع التى أحاطت بالدولة العثمانية والبلاد العربية ، وسبق لكبار المعاصرين له فى ادراك حقيقة الخطر الذى بات يتهدد الجانبين العثمانى والعربى على حد سـواء . فبينما استصرخ رشيد رضا العثمانيين دون جدوى ، وحثهم على ضرورة التعاون مع العرب ، كانت دول أوربا الاستعمارية تنظر الى الفريقين العثمانى والعربى وفق مخطط واحد ، وأبرمت الاتفاقات فيما بينها لالتهام ممتلكاتهما وخيراتهما . ولم تلبث الأحداث أن أيدت رشيد رضا ، وأثبتت أنه كان صادقا حين دعا العثمانيين الى تقـوية أواصر الروابط مع العرب ، وأن فى ذلك نجاة للطرفين . اذ اعتـدت ايطاليا على طرابلس الغرب سنة ١٩١٢ ، وبعثت بجيوشها لتستولى على تلك الرقعة من الوطن العربى ، دون اعتبار أو تقدير للعثمانيين أصحاب السيادة اذ ذاك على هذه البلاد . وكان السبب فى جرأة ايطاليا هو اطمئنانها الى أن ما تعمله قدتم بموافقة الدول الأوربية الكبرى ، وبعد أن نال بركاتها فى الاتفاقيات السرية لتقسيم أملاك الدولة العثمانية فما بينها .

وانتهز رشيد رضا هذا العدوان الآثم على طرابلس الغرب ، وكتب فى « المنار » عشر مقالات رائعة بعنوان «المسألة الشرقية»، أظهر فيها فهمه العميق لهذا الخطر الذى تهدد العالمين الاسلامى والعربى ، وبرهن على أنه يدرك تمام الادراك الميدان الذى كتبت عليه المقادير أن يحارب فيه ويجاهد دونه . ثم ان العمر امتد به من دون معاصريه ليرى التطورات الخطيرة لهذه المسألة الشرقية، ويشاهد صدق دراساته عنها . اذ وقف مواقف جريئة فى مواجهة هذه المسألة ، مضحيا بالمال والنفس فى سبيل تبصرة مواطنيه بما أحاط بهم من أخطار .

وانقسم جهاد رشيد رضا فى المسألة الشرقية ثلاثة أقسام ، متصلة الحلقات وان تباينت المظاهر والسمات . أما الدور الأول فهو قبل قيام الحرب العالمية الأولى وكان أهم ما سـاده من أحداث هو عدوان ايطاليا على طرابلس الغرب باتفاق الدول الأوربية الاستعمارية . والدور الثانى هو قيام الحرب العالمية الأولى ، ودسـائس الاستعمار الأوربى أثناءها لكسب مساعدة العرب دون الاخلاص فى احترام وحدة هذا الشعب الأبى . والدور الثالث هو خرق الدول الأوربية علنا للاتفاق مع العرب، والعمل على تمزيق وحدتهم ماديا ومعنويا . فقد واجه رشيد رضا فى شجاعة نادرة وذكاء خارق هذه الأدوار الثلاثة ، وجاهد جهاد الأبطال،لا يبغى الا سلامة مواطنيه وحفظ كرامتهم وعزهم .

وعالج رشيد رضا المسألة الشرقية ومظاهرها قبل الحـرب العظمى الأولى فى أسلوب حماسى ، وقوة رائعة . فعندما هاجمت

ايطاليـــا طرابلس الغـــرب كتب قائلا : « وقعت الواقعة ، ليس لوقعتها كاذبة ، خافضة رافعة . فوجفت القلوب ، وامتدت الأعناق، وشخصت الأبصار ، وعميت الأنباء على الناس ، فهم يتساءلون ، كيف أقدمت ايطالية على مفاجأة الدولة العثمانية بالعدوان ، واغتصاب مملكة كبيرة وهى ولاية طرابلس الغـــرب ومتصرفية بنغازى وايذائها بالحرب من غير عداء سابق ولا خلاف على شىء بنى عليه هذا العدوان » .

واستطرد رشيد رضا فى مقالاته عن المسألة الشرقية يعالج هذه الحيرة التى أصابت الناس بسبب عدوان ايطاليـــا على طرابلس الغرب دون سابق انذار أو سبب مباشر وشرح للناس أن السر يكمن فى المخطط الاستعمارى الأوربى ، الذى عمد الى تقسيم الدولة العثمانية وممتلكاتها ، والعمل على توزيع تلك الاســـلاب بالاتفاق الودى ، على قاعدة تبادل المصالح . وأوضح رشيد رضا أن جماعة الاتحاد والترقى ، القائمة بالحكم اذ ذاك فى الدولة العثمانية لا تستطيع حماية الأمة العربيـــة وديارها ، وأن النزق والطيش هو رائد هذه الجماعة . وكان يصدر هذا الحكم عن تجربة لمسها بنفســـه أثناء زيارته للأســـتانه بعد الاطاحة بحكم السلطان عبد الحميد ، ومناقشاته المباشرة مع رجال هذه الجماعة .

وحذر رشيد رضا فى تلك المقالات من اعتماد أصـــحاب السلطان فى الدولة العثمانية على الخلاف بين الدول الأوربية فى بقاء ممتلكاتهم سليمة . ذلك أن المسألة الشرقية قبل عدوان ايطاليا على طرابلس الغرب اتخذت مظهر الاتفاق الظاهرى بين الدول

الأوربية الكبرى على الاحتفاظ بالدولة العثمانية ، حتى لا تنفرد واحدة من تلك الدول بنصيب كبير من الأراضى العثمانية يقلب التوازن الدولى . ولكن لما وقع العدوان الايطالى على طرابلس الغرب ثبت أن فى مقدرة تلك الدول الاستعمارية الاتفاق فيما بينها على اقتسام الأسلاب والمغانم ، دون وقوع خلاف بينها .

وأشار رشيد رضا الى هذا التطور فى المقالات التى عالج فيها المسألة الشرقية فقال : « ان الدولة (العثمانية) ليس عندها قوة بحرية ولا برية لحماية بلادها من اغارة الدول الكبرى عليها ... وانما عمدتها فى السلامة من شر الدول تنازعهن واختلافهن ، والاختلاف الضار لا يستمر بين العقلاء . فمن الخطأ العظيم والخطر الكبير أن يعتمد عليه » . ثم خلص رشيد رضا الى نتيجة باهرة ، ما زالت هى أساس قوة العرب اليوم ، وهى ان النجاة رهن تحالف قادتهم ، وبناء قوة عسكرية خاصة بهم . وحذر العرب عدم الاستماع الى صيحته اليوم ، فسوف تدهمهم الأخطار من كل جانب ، ويتعرضون لمتاعب لا حصر لها ، ويدفعون للخلاص منها ثمنا غاليا .

ونالت هذه المقالات العشر التى عالج فيها رشيد رضا « المسألة الشرقية » تقديرا من الناس جميعا ، وصار لها دوى مرهب . واضطر وكلاء الدول الأوربية فى مصر الى الالتجاء الى المعتمد البريطانى فى مصر ليوقف هذه المقالات ، ويحول دون انتشار تأثيرها بين الأمة العربية . اذ كان المنار يلقى فى ذلك الوقت احترام أبناء الأمة العربية ، ويقبلون على قراءة مقالاته ، واعتناق

آرائها فى سرعة واخلاص . فقد لمسوا من صاحبة كل اخلاص أيضا فى العمل ، وصدق فى القول ، فضلا عن تجاربة العميقة ، وآفاقه السياسية الواسعة . ولذا لم يعر رشيد رضا سلطات الاحتلال البريطانى فى مصر اهتماما ، وأدرك أنه مقبل على مناضلتها كذلك ، وخاصة أن الحرب العظمى الأولى قد اشتعل أوارها ، وأن انجلترا وحلفاءها بدأوا بدورهم يأتمرون بالأمة العربية وبلادها .

تحذير للعرب وقادتهم

وكان السبب فى اتجاه رشيد رضا الى مهاجمة سلطات الاحتلال فى مصر ، ما لمسه من غدرها وسوء نيتها بالأمة العربية ، شأنها فى ذلك شأن جماعة الاتحاد والترقى العثمانية . فعندما نشبت الحرب العالمية الأولى ، استدعى بعض رجال سلطات الاحتلال البريطانى فى مصر رشيد رضا وأبلغوه أن بريطانيا تعطف على مطالب العرب تجاه الدولة العثمانية ، وأنها سوف تستخدم نفوذها الأدبى عند السلطات العثمانية لتحقيق تلك المطالب . أما اذا انضمت تركيا الى ألمانيا فى الحرب — وكانت تركيا ما زالت تقف على الحياد ظاهريا — فان بريطانيا سوف تساعد العرب على الاستقلال وتكوين دولة لهم . ثم أضافت السلطات البريطانية الى ذلك قولها لرشيد رضا ، أن بريطانيا وحلفاءها ، اذا اضطروا الى محاربة الأتراك واخراجهم من البلاد العربية ، فانهم سوف يتركون للعرب تلك البلاد .

وكان اتصال السلطات البريطانية فى مصر برشيد رضا جزءا

من سياسة واسعة استهدفت بها بريطانيا كسب الرأى العام العربى ومساعدته لها ضـــد الدولة العثمانية فى حالة انضمامها الى جانب ألمانيا فى الحرب . اذ كانت الدولة العثمانية تلوح بأنها اذا انضمت الى جانب ألمانيا فسوف يقف الى جانبها كل من العالمين الاسلامى والعربى ، وأن اعلانها القتال على انجلترا ، سوف يكون بمثابة اعلان الجهاد أو الحرب المقدسة عليها . ولذا بادرت بريطانيا الى الاتصال بزعماء العرب واستطلاع رأيهم ، على نحو ما فعلت مع رشيد رضا . اذ قامت سلطات الإحتلال البريطانى فى السودان بالقاء نفس الوعود على زعمائه هناك ، وتخبرهم بأن على العرب أن « يكونوا مطمئنين آمنين على أنفسهم من جانب البريطانيين ».

وأتبعت انجلترا هذه الخطوات باعداد منشور يحمل نفس المعانى التى خاطبت بها زعماء العرب ، وطلبت من رشيد رضا نشره ، واعلان موافقته على ما جاء فيه . ولكن رشيد رضا رفض هذا المنشور رفضا باتا ، حيث رأى عباراته مبهمة ، وأما ما جاء فيه مجرد ايهام محض . واقترح على رجال بريطانيا اصدار تصريح واضح « لا يحتمل التأويل ككونهم يتعهدون باستقلال هذه البلاد وبعدم أخذ شيء من البلاد العربية ، لا باسم الفتح والامتلاك ، ولا الحماية ولا الاحتلال ، ولا بأى اسم من أمثال هذه الأسماء ».

وبرغم اجابة بريطانيا لمطالب رشيد رضا الا أنه ظل على حذر منهم ، وخاصة أن الصحف البريطانية كشفت عن شيء من النوايا السيئة التى أضمرتها دولتهم بالعرب . فكتب لرجال بريطانيـــا المذكرة بعد المذكرة فى الاحتجاج على ما بدر من صحفهم من

كلام يسىء للعرب ، ويوضح لهم أن دولتهم دون غيرها هى خصم العرب ، ويحذرهم من الغرور بما يكتب فى جرائدهم وبعض الجرائد المداهنة لهم ، من أقوال تصف بريطانيا بأنها صديقة العرب ، ومن أشباه هذه الدعاوى المزيفة . وكان نتيجة هذا الموقف الرائع أن وضعت السلطات البريطانية فى مصر رشيد رضا تحت مراقبتها الدقيقة ، وخاصة أن تركيا دخلت الحرب الى جانب ألمانيا ضد انجلترا ، وصار موقفها فى مصر حرجا .

وكتب رشيد رضا فى ذلك الوقت مقالا عنوانه المسألة العربية ، يشرح فيه تلك التيارات الخفية . ولكن المراقبة الانجليزية فى مصر لم تسمح بنشر هذا المقال الا بعد أن حذفت منه ما وجدته ضارا بدولتها ، وكل ما فيه تنبيه للعرب الى الدسائس المحيطة بهم . وشرح رشيد رضا ما حدث قائلا أن المراقبة الانجليزية : « أكرهتنا على تبديل ما كرهت . ولا أعنى بالمراقبة الانجليزية مراقبة قلم المطبوعات فى وزارة الداخلية المصرية التى كان يرأسها انكليزى أمر بالتشديد فى المنار بما لا يشدد فى مراقبة سائر الصحف ، لأنه فى اعتقادهم أشد تأثيرا فى أنفس المسلمين بما له من النفوذ الدينى ، وانما أعنى مراقبة السلطات الانجليزية التى كانت تحول اليها مراقبة المطبوعات فى الداخلية ما يكتب فى مسائل معينة أهمها المسألة العربية » .

ولذا وقف رشيد رضا موقف المراقب لحركات الانجليز وتصرفاتهم فى البلاد العربية ، ودأب على تحذير مواطنيه من أقوالهم المعسولة . وزادته اتصالاته بكبار رجال السلطات

البريطانية فى مصر ايمانا بالرأى الذى كونه عن هذه الدولة ، وخداعها للعرب . اذ تناقش مع أحد كبار البريطانيين وهو السير مارك سايكس ، الذى زار البلاد المصرية سنة ١٩١٥ فى القضايا العربية ، واستطاع بفراسته أن يدرك ما تنطوى عليه نفوس الانجليز من كراهية للعرب وبعد عن تحقيق أمانيهم . وقال رشيد رضا فى ذلك : « خاب سعينا الى ما سعينا اليه من عهد أو وعد رسمى بذلك (وعد باستقلال العرب) . ولم نغتر بالايهامات التى كانت تصدر أحيانا من برقيات روتر وأقوال بعض الجرائد الانجليزية بوعد بريطانيا بالعطف على العرب ، وما ينتظر من سعادة البلاد العربية اذا تحررت من سلطة الترك واعادتها مجد هارون الرشيد . وعلمنا مما دار بيننا وبين رجالهم الذين بمصر ، ومن مذكراتنا مع السير مارك سايكس الذى أرسلته السلطة العليا من لندن الى مصر والعراق لدرس المسألة العربية سنة ١٩١٥ أن القوم ثابتون على طمعهم فى بلادنا » .

وذكر أحد الأصدقاء من المعاصرين لرشيد رضا ، وهو الأمير شكيب أرسلان ، الموقف الرائع الذى وقفه هذا الامام المجاهد من الانجليز ، وأشاد به ، فقال : « كان يترامى الينا من وقت الى آخر أخبار عن مصر ، وما يعمل الانكليز فيها (أثناء الحرب العالمية الأولى) . فجاءنا فى احدى المرات أن السيد رشيد هو من المغضوب عليهم عند الانجليز لأنهم رغبوا اليه فى بث الدعاية الانكليزية ببلاد العرب فلم يستطع أن يجبهم علنا ، وأظهر شيئا من الموافقة لهم على مقاصدهم على صورة أن يبث الدعوة لفصل

العرب عن الترك . فوافقوه على ذلك ، الا انهم فيما بعد قبضوا على كتب منه تتضمن التحذير من الانكليز أنفسهم .. فقبضوا عليه ، وفكروا فى نفيه الى مالطة فى جملة من نفوهم ، وكادوا يفعلون . الا أنهم عادوا ففكروا أن نفى مثل الشيخ رشيد قد يقربه من الأتراك ويزيد الضرر بسياستهم ، فتركوه فى مصر ، لكن تحت المراقبة الشديدة ... والخلاصة أن السيد رشيد لبث الى نهاية الحرب تحت مراقبة الانكليز ، ولم يكن كغيره من أعداء الأتراك محلا لثقة الحكومة الانكليزية ولا ممن كانوا آلات فى أيدى الانكليز يحركونهم كيف شاؤوا » .

ولما يئس الانجليز من استمالة رشيد رضا اليهم ، وعجزوا عن الحصول على تأييده فيما عزموا عليه من خداع العرب ، لجأوا الى أمراء العرب خارج مصر ، لعلهم يجدون ثغرة ينفذون منها لتحقيق مآربهم . وكانت سلطات الاستعمار البريطانى فى مصر قد دخلت عن طريق ممثلها هنرى ماكماهون فى مفاوضات مع شريف مكة الأمير حسين لكسبه الى جانبهم ضد تركيا ، ولتحول دون اصداره قرارا يؤيد فيه الدعوة الى الجهاد التى أعلنتها تركيا ضد انجلترا وحلفائها . وساعدت سياسة جماعة الاتحاد والترقى المتهورة ، كما نعتها بذلك رشيد رضا ، على اتمام المفاوضات بين الشريف حسين والبريطانيين . اذ اكتشف الشريف حسين مؤامرة عثمانية لاغتياله عن طريق والى جده العثمانى ، وانتهى الأمر بأن حصل من البريطانيين على تأكيد بقيام دولة عربية ، تحد شمالا عند خط مرسين — أضنه حتى درجة ٣٧ شمالا ؛ وشرقا ، الحدود

الفارسية حتى خليج العرب ؛ وجنوبا ، المحيط الهندى خلا عدن ؛ وغربا : البحر الأحمر والبحر المتوسط حتى مرسين . وصار الشريف حسين مستعدا بعد ذلك للثورة على تركيا ، ويتحين الفرص للخروج عليها .

وعلم رشيد رضا بنبأ هذا الاتفاق ، الذى قال عنه « وكان الشريف حسين يكتم نص هذا الاتفاق حتى عن أولاده ، حافظا اياه مع المكتوبات الرسمية الأخرى فى الكيس الأزرق الذى لا تناله غير يده . وقد كان بعض البريطانيين أطلعنى على نص هذا الاتفاق بالعربية قبل الثورة ، وسألنى عن رأيى فيه ، فقلت واجما متألما : هذا الاتفاق لا يرضى به الا عدو للعرب أو حمار لا يفهم معناه . فأحمر وجهه ، ووقعت بينى وبينه مناقشة حادة ، الا أننى تألمت فى نفسى لجريان كلمة حمار على لسانى » .

ولم يقف رشيد رضا مكتوف اليد أمام هذا التسلل البريطانى الى أمراء جزيرة العرب ، وعمد الى ارشاد الشريف حسين الى أقوم السبل لخدمة العرب بعد أن تورط فى اتفاقاته مع انجلترا ، وأعلن الثورة على تركيا . ذلك أن الأحداث جرت اذ ذاك سريعا ، بحيث دفعت العرب الى عداء الأتراك علنا . اذ كان يحكم الشام اذ ذاك حاكم تركى من غلاة جماعة الاتحاد والترقى الأتراك ، واسمه أحمد جمال باشا . وقام هذا الوالى بأحط أعمال الغدر ضد الزعماء العرب ، فبدأ بأن مناهم بالمعسول من القول ، ثم ادعى ، بعد أن جمع الكثيرين من أحرار العرب ، بأنه وقع فى يده وثيقة تدينهم بالعمل على الانفصال عن تركيا . وفى ٦ مارس

سنة ١٩١٦ بعث بعدد عظيم من أحرار العرب الى المشانق ، مما ترك أسوأ الأثر فى نفوس العرب ، وقضى على الخيط الواهى من العلاقات الباقية بين العرب والأتراك . وفى هذه التطورات الخطيرة أعلن الشريف حسين الثورة على تركيا ، عاملا على الانتقام لأحرار العرب .

وأظهر رشيد رضا أمام هذه التيارات الجارفة والأحداث المدلهمة رباطة جأش نادرة ، وبصيرة فريدة . اذ ذهب الى الحجاز عقب اعلان الشريف حسين لثورته على تركيا ، وأدى فريضة الحج . وهناك التقى بشريف مكة ، وأدلى اليه برأيه فى القضايا العربية ، ثم نصحه بأن يجعل ثورته سبيلا لوحدة العرب ، بدلا من أن يقصر جهده على مناهضة تركيا وجماعة الاتحاد والترقى . ويعتبر هذا الرأى دلالة على علو كعب رشيد رضا فى السياسة ، وأنه بعيد النظر ، يدرك تمام الادراك الارتباط بين الأعاصير والأنواء التى اكتنفت الأمة العربية . فأشار على شريف مكة بأن يبذل جهده لبناء قوة جديدة للعرب من السلاح وغيره استعدادا للذود عن استقلال الأمة العربية . اذ يمكن لهذه القوة العربية الجديدة أن تقف بالمرصاد لمطامع الاستعمار الأوربى اذا ما انهارت الدولة العثمانية وخسرت الحرب ، وفى نفس الوقت تستطيع هذه القوة العربية أيضا أن تمنع الأتراك اذا ما خرجوا منتصرين فى الحرب من التمادى فى غيهم وعبثهم بمقدسات الأمة العربية .

وعالج رشيد رضا وجهة نظره السالفة الذكر علنا ، وذلك فى خطاب ألقاه أمام شريف مكة فى احتفال العيد بمنى ، ولقى من

الأمير حسين الموافقة والقبول . ولكن رشيد رضا لم يكن بالسياسى الذى يقبل الوعود فقط ، وانما ألح على شريف مكة ، بالمبادرة الى اتخاذ الخطوات الكفيلة بمخاطبة أمراء جزيرة العرب، والعمل على خلق وحدة تضمهم جميعا . وعندئذ كشف شريف مكة عن نواياه غير المخلصة بأن قال لرشيد رضا انه يرى تأخير العمل فى سبيل جمع كلمة أمراء الجزيرة العربية حتى يستولى على المدينة المنورة . فلم يرض رشيد رضا بذلك وقال له : انه يمكن أن يكون السعى من قبل بعض وجهاء العرب لا باسمكم ، بشرط موافقتكم اذا هم وافقوا . وأبى شريف مكة هذا الرأى السديد ، وتمادى فى خطته .

وشرح رشيد رضا رأيه فى موقف شريف مكة قائلا : « ثم أن الشريف بعد أن بايعه أهل الحجاز باسم ملك العرب ، واعترف له حلفاؤه من الانكليز والفرنسيين بملك الحجاز ، جاهر بعداوته للدولة العثمانية . فخاب أملنا فى وقوف ثورته عند الحد الأدنى مما رجوناه فيها ، وأعلنت أن الثورة الحجازية تحولت عما كانت عليه » . وقلب شريف مكة لرشيد رضا ظهر المجن ، بعد أن أدرك اختلافه معه فى الرأى ، وأنه لن يكون من أنصاره الداعين له . وكان رشيد رضا مخلصا فى النصح لشريف مكة ، اذ كان هذا السياسى المصلح من أشد الناس عداوة لجماعة الاتحاد والترقى، ولمس بنفسه وعن كثب طيشهم ونزقهم ، ولكن ظلت نظرته السياسية واسعة . فعرف أن العدو الحقيقى هو الاستعمار البريطانى ، الذى عمد الى استغلال الوقيعة بين العرب والأتراك

لتحقيق مآربه الشخصية ، دون اعتبار بأى وعد أو اتفاق . وأمر شريف مكة بمنع دخول المنار الى الحجاز . وشرح رشيد رضا هذا العمل قائلا : « والسبب الذى جرأ أمير مكة بالأمس على عدم مبالاة الترك وعدم الاهتمام بوحدة العرب هو الاتفاق الذى عقده مع انجلترا قبل الثورة ، واعتقاده أن قوتها لا تعلوها قوة فى العـــالم » . وأثبتت الأيام أن رشيد رضا السياسى ، كان على حق فى تحذير زعماء العرب من الاعتماد على انجلترا ، والوقوع فى حبائل وعودها البراقة وأمانيها الخادعة . اذ سرعان ما بدأت تنتشر فى جو البلاد العربية المؤامرات التى دبرتها انجلترا وحلفاؤها بالأمة العربية ، والتى كان أخطرها اتفـــاق سايكس — بيكو السرى لتقسيم البلاد العربية بعد الحرب العالمية الأولى .

الغدر البريطانى الفرنسى

تم الاتفاق بين انجلترا وفرنسا ، المعروف باسم سايكس — بيكو لتقسيم البلاد العربية فيما بينها ، فى الوقت الذى كان فيه شريف مكة يعادى رشيد رضا ، ويزود انجلترا بالقوات العربية لطرد الأتراك من الشام . اذ اجتمع مارك سايكس ، المستشرق البريطانى ، وأحد أعضاء مجلس النواب البريطانى مع چورج بيكو ، الذى شغل منصب قنصل فرنسا فى بيروت قبل اعلان تركيا الحرب على الحلفاء . وتم الاتفاق بين هذين المستعمرين على وضع خريطة تمزق فيها الوطن العربى . فنص الاتفاق على أن تأخذ فرنسا الجزء الغربى من سوريا الى جانب ولاية الموصل ، على حين تنال انجلترا العراق من بغداد حتى الخليج العـــربى . أما

فلسطين فيوضع لها نظام دولى ، مع السماح لانجلترا بالاشراف على مينائى حيفا وعكا . وبعد ذلك يترك للعرب الصحراء الواقعة بين العراق وسوريا .

وجرى هذا الاتفاق الخطير وشريف مكة غارق فى أحلامه ، ولا يريد أن يصدق الشائعات التى ترامت الى سمعه عن هذا الاتفاق السرى . ولكن رشيد رضا عرف بهذا الاتفاق نتيجة عمله الصحفى ، واتصاله بالأوساط السياسية . ثم ان الاستعمار كشف القناع فى جرأة حين أسس جمعيات تحت اشراف انجلترا وفرنسا من أبناء البلاد العربية ، الذين خدعتهم الوعود والأمانى للتمهيد بين مواطنيهم لقبول اعلان اتفاق سايكس — بيكو . وفى مساء عشرين فبراير سنة ١٩١٨ بعث أحد السوريين المقيمين فى مصر ، وممن سار فى فلك الانجليز كتابا الى رشيد رضا يدعوه فيه الى شرب الشاى فى داره « مع أخلص المحبين !! » ، وهم النفر الواقع فى حبائل الاستعمار .

ولم يتردد رشيد رضا فى قبول هذه الدعوة ، وبادر الى تلبيتها ، برغم توقعه انعقاد هذا الجمع لتأييد اتفاق سايكس — بيكو . فقد رأى أن الواجب يحتم عليه الجهاد علنا دون أن يخشى فى الله لومة لائم . وعندما دخل قاعة الاجتماع شاهد ما توقعه ، اذ وجد من بين الحاضرين أشهر رجال الحزب الانجليزى والفرنسى وفى مقدمتهم نورى السعيد . وبعد شرب الشاى وما يتبعه من تقديم الحلوى والفاكهة بدأ الخطباء المأجورون يشيدون بانكلترا وفرنسا ، وصداقتهما المزعومة للعرب . واستبد الغرور بأحد أولئك

الخطباء ، وادعى أنه يعبر عن رأيه فى صراحة ، مطالبا الحاضرين من العرب بالاعتماد على انجلترا وفرنسا لتأييد حقوقهم واستخلاصها .

وعندئذ نهض رشيد رضا وألقى خطابا حماسيا قال فيه : ان صديقنا الخطيب المفوه قال انه قد اضطر الى مخاطبتكم بصراحة غير معتادة ، وأنا أقول ، اننى مضطر الى مخاطبتكم بما هو أصرح مما خاطبكم به ، لأنه لا ينبغى أن يكتم عنا شيء من أمر وطنكم » ثم أعقب رشيد رضا هذا الاستهلال بسرد وقائع انجلترا وفرنسا مع مصر ، وذكر خداعهم للعرب ، وأنهم يسمون الحقائق بأسماء الأضداد ، ولا يبغون الا تفرقة العرب واقتسام بلادهم . ثم اختتم خطابه الرائع بقوله : « وما أدرى بأى مقود أو رسن يريدون أن يقودونا الى الاستقلال الذى لا نصل اليه الا بقيادتهم ، الا بعد الموت والورود على النار ؟ ، ومتى كانت الشعوب تقاد الى الاستقلال كما تقاد الدواب حاملة الأثقال ؟ . يأخذون منا الممالك ويجودون علينا بالألفاظ والأسماء التى تخفف وقعها على قلوب الجاهلين ، كالحماية والرعاية والاستشارة والمساعدة والانتداب وغيرها » .

وأعقب رشيد رضا ذلك بارسال كتب الى رؤساء وزارات انجلترا وفرنسا ، ينصحهم بالابتعاد عن المساس بحقوق العرب ، والابتعاد عن الغدر بهم ، والتخلى عما جاء فى اتفاق سايكس — بيكو من تنكر لوعودهم مع العرب ، ثم أتاحت الأحداث لرشيد رضا فرصة ذهبية أكد فيها للعرب ما سبق أن نادى به من عدم

تصديق وعود انجلترا وفرنسا ، وضرورة الاعتماد على أنفسهم فى استخلاص حقوقهم وبناء وحدتهم وتضامنهم .

وكان رشيد رضا قد عزم على زيارة وطنه بالشام بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، ومشاهدة أحوالها ، والوقوف الى جوار مواطنيه فى محنتهم التى تعرضوا لها من جراء اتفاق سايكس — بيكو . ولما أراد السفر اشترطت عليه السلطات البريطانية فى مصر الابتعاد عن الأعمال السياسية ، والكتابة فى الصحف لتبصرة الناس بحقوقهم ، الى غير ذلك من أمثال التعهدات القاسية التى يفرضها الاستعمار . ووافق رشيد رضا على ذلك مكرها ، ليضمن الذهاب الى وطنه .

ولما وصل بيروت رأى الاستعمار الفرنسى يكمم أفواه الناس، على نحو ما فعل الاستعمار البريطانى . وفى ١٧ أكتوبر سنة ١٩١٩ جاءه شرطى من بيروت ، وطلب منه الذهاب الى مقابلة مسيو چورچ بيكو ، صاحب الاتفاق المشهور ، المعادى للعرب وحقوقهم. ودامت المقابلة من الساعة الحادية عشرة الى ما بعد الظهر ، ودار الحديث بينهما حول ثلاث مسائل . الأولى ما ينكره العرب على السلطات الفرنسية ، وفيها ذكر رشيد رضا أن ما يهم العرب فى تلك السبيل هو جعل التعليم باللغة العربية ، واعتبارها اللغة الرسمية . والثانية سأل فيها رشيد رضا مسيو بيكو عما تنوى فرنسا عمله فى المنطقة الشرقية من سوريا ، وهل يكون لسوريا كلها حاكم واحد كالأمير فيصل ، أم تجعل قسمين لكل منهما أمير أو حاكم وطنى عام . وأجاب مسيو بيكو رشيد رضا بأنه لابد

من قسمة بلاد الشام عدة ولايات ، ثم تهرب من اجابة الشطر الثانى ، زاعما بأن تعيين حاكم أو اثنين يتوقف على شروط الصلح مع تركيا ، وكان الاتفاق حول الصلح العام لم يتم بعد . وأدرك رشيد رضا من هذه الاجابة ما بيته الفرنسيون من غدر بوطنه فى الشام ، وأن ذلك مصداق لما تم عليه الاتفاق فى المعاهدة السرية بين انجلترا وفرنسا . أما المسألة الثالثة التى دار حولها النقاش بين رشيد رضا ومسيو بيكو كانت مقارنة بين سياسة فرنسا وانجلترا تجاه البلاد العربية ، وأوضح رشيد رضا رأيه ، مبيناً أن اتجاه فرنسا وانجلترا الى تجاهل وحدة العرب ، والالتجاء الى تقسيم البلاد العربية ليس من مصلحة هاتين الدولتين ، لأن العرب قوة لا يستهان بها ، وأن الأمة العربية لابد وأن تنهض من عثرتها، وتستعيد سالف مجـدها ، وعندئذ سـوف يكون الانجليز والفرنسيون هم الخاسرون .

وتظاهر مسيو بيكو بالاقتناع برأى رشيد رضا ، ولكن كان قلبه يتمزق حنقا وغيظا من هذا القائد المخلص الجرىء ، ويضمر له كل شر . ونفثت السلطات الفرنسية عن غضبها على رشيد رضا أثناء تنقله بين مدن الشام . فبينما هو فى طريقه من طرابلس الى بيروت ألقت عليه شرطة طرابلس القبض ، وفتشت أمتعته تفتيشا دقيقا ، وفتحت كل ما كان معه من صناديق بحثا عن قوائم بأسماء الوطنيين فى الشام . واحتجزت السلطات بعض أوراق كانت تحمل شرحا للقرآن الكريم ، وللتفسير الذى وضعه لبعض الآيات . اذ اعتقدت أن بعض الرموز فى تلك الأوراق لها دلالتها السياسية،

دون أن تقتنع بدفاع رشيد رضا . ولم تفرج عنه سلطات الشرطة الا خوفا من انتقام المواطنين .

وكان الشعور الوطنى فى الشام قد التهب اذ ذاك نتيجة خيانة انجلترا للعرب ، وانسحاب القوات البريطانية من سواحل الشام، والسماح للقوات الفرنسية باحتلال المنطقة الغربية ، تنفيذا لمؤامرة سايكس — بيكو . وزاد الموقف فى الشام توترا ذهاب فيصل الى فرنسا للتفاوض معها فى شأن مستقبل الشام ، وعاد دون أن يحصل على نتائج مشرفة . وفى ذلك الوقت كان المؤتمر السورى الممثل لسكان الشام قد انعقد ، وجعل رشيد رضا رئيسا له . فدبت الحياة فى هذا المؤتمر وقرر اعلان استقلال سورية ووضع فرنسا وانجلترا أمام الأمر الواقع . وأشار رشيد رضا على فيصل بالاستعداد للحرب ، لأن فرنسا سوف تلجأ الى الغدر والقوة الغاشمة .

ولكن فيصل أهمل العمل بنصائح رشيد رضا ، واعتقد كما اعتقد أبوه من قبل أن فى الامكان الاعتماد على فرنسا ، ولذا قاطعه رشيد رضا ، ثم حدث ما توقعه هذا السياسى القدير ، اذ زحف الفرنسيون من منطقة الساحل على سائر أرجاء الشام ، وطردوا فيصل من البلاد . وعلق رشيد رضا فى مذكراته على هذه الاحداث قائلا : « ولقد عاشرته (أى فيصل) زهاء نصف سنة كنت ألقاه فى أكثر أيامها . ولم أقف له على عقيدة راسخة فى السياسة الا استحالة اخراج فرنسة وانجلترة من البلاد العربيـة

الآن ، ووجوب العمل مع احداهما وخدمة البلاد بمساعدتها فى ظل وصايتها » .

وعاد رشيد رضا الى مصر مرة أخرى سنة ١٩٢٠ ، يستمد من ينابيعها ما يساعده على الدفاع عن القضايا العربية ، بعد أن ثبت للملأ غدر فرنسا بسوريا ، كما غدرت انجلترا معها بالبلاد العربية . ووقف رشيد رضا فى هذه المرحلة بالمرصاد لكل عملاء الاستعمار ، يتعقبهم فى كل مكان ، ويشهر بهم فى المحافل ، دون أن يخشى بطش سلطات الاستعمار فى البلاد . فقد وهب نفسه للأخذ بيد البلاد العربية ، وتبصرة أهلها بالخطر الذى تردوا فيه، نتيجة نجاح الاستعمار فى خداع بعض قادة العرب .

وأتيحت لرشيد رضا فرصة ذهبية ليندد بالاستعمار وأعماله فى البلاد العربية حين قرر قادة العرب عقد مؤتمر لهم فى جنيف ، للدفاع عن القضايا العربية ، وخاصة قضية الشام . وتألف هذا « المؤتمر السورى الفلسطينى » من كبار قادة العرب ، كان على رأسهم رشيد رضا ، ومن بينهم الأمير شكيب أرسلان الصديق الحميم لهذا الامام المجاهد . ووقع الاختيار على رشيد رضا ليكون نائبا لرئيس هذا المؤتمر ، الذى انعقد فى چنيف فى شهر أغسطس سنة ١٩٢١ . وتم فى هذا المؤتمر وضع نداء للدول وجمعية الأمم ، أسهم فيه رشيد رضا بقسط وافر ، ووضع فيه الكثير من تجاربه وآرائه القيمة .

وكان أعضاء المؤتمر السورى الفلسطينى الذى انعقد فى چنيف قد قرروا قبل انفضاضه أن يسعى بعض أعضائه الى مقابلة

أعضاء جمعية الأمم ، وشرح القضايا العربية لهم ، وكسب تأييدهم واشتهر رشيد رضا فى تلك المقابلات التى تمت مع أعضاء جمعية الأمم بالشدة فى القول والايمان فى الحديث بكل ما يدلى به من آراء . فأوضح لمستر فشر المندوب البريطانى آراء الأمة العربية كلها فى انجلترا ، فى هذه العبارات الخالدة : ان أهل الشرق كانوا يثقون بالبريطانيين مالا يثقون بغيرهم من الغربيين ولا الشرقيين ، ويضربون المثل بصدقهم ووفائهم . فاذا أراد أحد أن يقول قولا فصلا صادقا لا رجوع فيه قال « كلمة انجليزية » . وقد انقلب هذا الاعتقاد بعد الهدنة من الحرب العالمية (الأولى) الى ضده . فلم يعد أحد يثق بقول انكليزى ولا غيره من الأوربيين ، بل خسرت أوربه كل ما كان من نفوذها الأدبى ..

... ذلكم بأنكم فى أثناء هذه الحرب قد ألقيتم على جميع الأمم والشعوب فى الشرق والغرب درسا واحدا .. هو نصر سلطان الحق وحرية الأمم والشعوب .. ووعدتمونا معشر العرب وعودا خاصة بأننا سنكون بانتصاركم أحرارا مستقلين . وقد امتزجت هذه الوعود بدمائنا وأعصابنا ، كما صدقت الشعوب كلها تلك الدروس .. وما كان الا أن وضعت الحرب أوزارها .. حتى نثلت الكنائن وظهرت الدفائن .. وكان أسوأ الناس خيبة من اتخذتموهم واتخذوكم أصدقاء من مخدوعى الأمة العربية . فانكم انتزعتم منها خير بلادها وأخصبها ومواطن مدنيتها وهى

سورية والعراق . فقسمتموها بينكم وبين حليفتكم فرنسه اقتسام الغنائم ، وقهرتموها على الخضوع لحكمكم بالدبابات والطيارات والبنادق والمدافع .. انه يمكن لكم أن تربحوا من الشعوب العربية والتركية والفارسية وغيرها من أمم الشرق بالصداقة وحسن المعاملة معها اذا تركتم لها استقلالها أضعاف ما تتصورون من الربح منها باستعبادها واستذلالها . والخداع بالأقوال كتسمية الاستعمار بالانتداب لم يبق له رواج عند أحد من الناس » .

وختم رشيد رضا أقواله لأعضاء جمعية الأمم بخطاب وجهه لرئيس تلك الجمعية ، ذكر فيه رأيه السديد فيما يلى : « ان هذه الجمعية التى اقترح الرئيس ويلسون تأليفها من جميع أمم الحضارة لخير جميع البشر لا يليق بشرفها وشرف أممها وحكوماتها وشرف المبدأ والغاية الموضوعين لعلمها أن تكون آلة لدولتين استعماريتين تكفل لهما استعباد من استوليتا عليه من الشعوب قبل الحرب ، ومن تريدان الاستيلاء عليهم بعدها باسم الانتداب منها ، ولا سيما بلادنا العربية التى هى قلب الأرض ومهد الأديان الكبرى فى العالم وموضوع التنازع فى النفوذ بين الدول الكبرى .

... واذا كانت انكلتره وفرنسه قد فقدتا فى عاقبة هذه الحرب كل ما كان لهما من النفوذ الأدبى فى الشرق ، فتكون جمعية الأمم هى القاضية على نفوذ أوربة الأدبى فى العالم كله اذا رضيت أن تكون آلة لهما فيما ذكرنا . واذا أصبحت أوربة لا تبالى بالنفوذ الأدبى لاستحواذ الأفكار المادية عليها — كما قال فيلسوفها الأكبر هربرت سبنسر — فلتعلم أن النفوذ المادى

سيتبع النفوذ الأدبى . فان الشرق قد استيقظ وعرف نفسه . ولن يرضى بعد اليوم أن تكون شعوبه عبيدا أذلاء للطامعين المستعمرين. ولتعلمن نبأه بعد حين » .

وعاد رشيد رضا من أوربا يتابع فى المنار رسالته فى الدفاع عن الأمة العربية والأخذ بيدها . وظلت السلطات الاستعمارية البريطانية تراقبه وتراقب كل من يتصل به ، حتى فى أواخر أيامه . وكان صديقه الأمير شكيب ارسلان قد مر بمصر فى طريقه الى الحجاز سنة ١٩٣٤ ، أى العام السابق مباشرة لوفاة رشيد رضا . وكان هذا الامام المجاهد قد أعد لصديقه مكانا فى داره بشارع الانشاء بالقاهرة لاستضافته . ولكن ما كاد شكيب أرسلان يصل الاسكندرية حتى علم أنه لا يسمح له بمقابلة أى شخص ، ومنهم رشيد رضا . وروى شكيب ارسلان ما حدث له بمصر وما شاهده فى علاقته مع رشيد رضا اذ ذاك قائلا : « وفى أثناء الطريق الى السويس لا أعلم بأية محطة وجدت السيد رشيد قد صعد الى القطار ، وأقبل على العربة التى أنا جالس فيها . وكان الماجور الانكليزى يمنع كل انسان من الاتصال بى .. » فلما رأيت السيد رشيد أمام باب العربة نهضت مسرعا ، وقلت للماجور الانكليزى : لابد لى من مصافحة هذا الامام الكبير ، ولك أن تفعل ما تشاء . فصافحته ، ورجعت الى مكانى . ولكن لم يقع بيننا كلام ، وركب السيد فى عربة أخرى من القطار .. وكنت خرجت من القطار لأجل ارسال برقية من محطة فى الطريق . فلما وقع علىّ بصر الشيخ

رشيد قال لى هذه الكلمة بصوت عال : لا عجب !! .. وحاول فى السويس أن يقابلنى فلم يسمحوا له بذلك » .

وظل رشيد رضا على عدائه لانجلترا ، يكشف دسائسها ومؤامراتها ، ويحذر أبناء الأمة العربية من الوقوع فى حبائل خداعها وأقوالها المعسولة . وسلط قلمه العالى لأداء هذه الرسالة، وكلما أيدت الأحداث صدق قوله كلما ازداد ايمانا برسالته . وكان من حسن طالع الأمة العربية أن يتولى رشيد رضا قيادة الدفاع عنها فى هذه المرحلة الخطرة من تاريخها . ذلك أن الفترة التى أعقبت الحرب العالمية الأولى كانت من أخطر المراحـــل فى تطور الأمة العربية . وشرح الميثاق هذه المرحلة بقوله : « وكانت الأمة العربية تتصور أنها قريبة من يوم الاستقلال ويوم الوحدة.. ان الأمل فى الاستقلال تلقى ضربات قاسية .. فان البلاد العربية قسمت بين الدول الاستعمارية وفق مطامعها بل وفق نزواتها .. واخترع ساسة الاستعمار كلمات مفيدة لتغطية الجريمة التى أقدموا عليها ككلمات الانتداب والوصاية » .

ومن ثم كان صوت رشيد رضا هو الصوت المدوى فى هذه المرحلة ، منددا بالاستعمار وهتك الأستار التى اختفى وراءها . فهاجم عملاء الاستعمار دون هوادة ، وتحمل فى سبيل ذلك سيلا عرمرما من الشتائم والأباطيل . ثم ثبت أمام مكائد الاستعمار نفسه ولم تلن له قناة أمام التهديدات العديدة ، وظل يحمل لواء الجهاد فى كل مكان من أرض الوطن العربى . ودأب رشيد رضا على تذكرة أبناء الأمة العربية بأن السبيل الوحيد أمامهم للنجاة،

هو الاتحاد والتضامن ، وأنه لا سبيل أمام انجلترا وفرنسا لكسب مودة العرب سوى تركهم أحرارا فى بلادهم . فقال : « اننى مؤمن يرى اليأس من روح الله ، والقنوط من رحمته كفرا . واننى لا يمنعنى التشاؤم وسوء الظن فى الطامعين فى عمل ولا سعى ، فأنا لا أزال أرجو اقناع الدولتين المقتسمتين لبلادنا ، الهاضمين لحقوقنا بأن الخير لهما وللمدنية والانسانية أن يتركونا أحرارا فى بلادنا ، حاكمين لشعوبنا ، وأن يساعدونا على ما نريد من عمران بلادنا بما نطلب من المساعدة عليه ، ويكتفوا منا بالمنافع الاقتصادية والأدبية ... » .

ثم ختم كلامه بقوله للأمة العربية ؛ « فهذا وقت الوحدة الداخلية ، أمام الدواهى الخارجية ، لا وقت فض مشكلات حدود البلاد ولا تحكيم العصبية الدينية والمذهبية » .

خطر الصهيونية

وقصد رشيد رضا بالدواهى الخارجية التى دهمت الوطن العربى ظهور خطر الصهيونية ، وتبنى الاستعمار لها ، لاتخاذها أداة لتحقيق مآربه فى تحطيم وحدة الوطن العربى . اذ بدأ هذا الخطر يلوح فى الأفق منذ أيام السلطان عبد الحميد ، الذى هاجم رشيد رضا عهده الاستبدادى ، ومفاسده فى الأمة العربية . وسخر رشيد رضا المنار لتتبع أخبار هذه العصابات الصهيونية ، ونشاط أفرادها على كافة المستويات ، ونشر ما يصل اليه من حقائق لارشاد الأمة العربية الى اتخاذ الحيطة والحذر من هذا العدو المتحالف مع الاستعمار الأوربى الجديد .

ونقل رشيد رضا فى المنار ما رددته بعض الصحف من أن اليهود عمدوا الى تهجير فقرائهم من أوربا الى فلسطين لتعميرها ، ونادى بأعلى صوته أن فى ذلك خطرا على الأمة العربية ، وتسللا خبيثا لمطامع الصهيونية فى الوطن العربى . ثم بدأ يدرس الصهيونية ويتعقب نشاطها فى كل مكان ، ويعلن على أبناء الوطن العربى الحقائق دون زيف ، بأسلوبه الذى اشتهر بالعنف وتحرى الأمانة والصدق . وبعد أن كشفت انجلترا عن نواياها السيئة تجاه الوطن العربى بعد الحرب العالمية الأولى ، وصدر وعد بلفور المشئوم ، الذى يمنح اليهود وطنا فى فلسطين ، جهر رشيد رضا بالدعوة للاستعداد لصد هذا العدو الجديد ، ونادى بأن مشكلة فلسطين هى أخطر المشاكل التى تواجه الوطن العربى وأنه يتضاءل أمامها سائر دسائس الاستعمار من تقسيم للوطن العربى ، ورسم الحدود السياسية الوهمية بين أرجائه .

وأثبت رشيد رضا فى جهاد الصهيونية ما اتسم به من أفق سياسى واسع ، وسبق لمعاصريه فى تقدير المشاكل التى تواجه الوطن العربى . اذ كان على حق فى اعتبار الخطر الصهيونى واعتدائه على فلسطين المشكلة الأولى للوطن العربى ، كما أيدت الأحداث صدق قوله ، على نحو ما نشاهد اليوم ، حيث يتخذ الاستعمار من الصهيونية فى فلسطين جسرا للاعتداء على الأمة العربية ، ورأس حربة يسددها الى قلب هذه الأمة . وكتب رشيد رضا فى جرأة سلسلة من المقالات الرائعة ، يكشف بها الستار عن الصهيونية وتحالفها مع انجلترا . وجعل عنوان هذه المقالات :

« ثورة فلسطين — اسبابها ونتائجها — حقائق فى بيان حال اليهود والانجليز والعرب ، والرأى فى مستقبل العرب والشرق . »

واستهل رشيد رضا هذه المقالات ببحث تاريخى عن حال اليهود منذ أقدم العصور ، وبيان علاقاتهم بالاسلام وبلاد أوربا كذلك . ثم انتقل بعد ذلك الى الكلام عن الصهيونية ومؤسسها ، اليهودى المجرى « تيودور هرتزل » ، وما دعا اليه هذا الرجل الخطر من العمل على تأسيس دولة لليهود . وتتبع رشيد رضا بعد ذلك محاولات الصهيونية الاتصال بالسلطان عبد الحميد العثمانى ، والعمل على شراء أراضى لهم فى فلسطين . ثم ذكر رشيد رضا أن الصهيونية لم تكف عن نشاطها بعد خلع السلطان عبد الحميد ، وكررت محاولاتها مع جماعة الاتحاد والترقى العثمانية .

ولم تقف مجهودات رشيد رضا عند البحث والتحرى ، وانما سجل فى تلك المقالات المجهودات التى قام بها بنفسه لمواجهة الخطر الصهيونى فى هذه المرحلة الأولى ، على أيام جماعة الاتحاد والترقى . وكانت فلسطين اذ ذاك جزءا من الشام الخاضع لسلطان الدولة العثمانية ، وعمد الصهاينة الى التسلل اليها عن طريق نفر من اليهود الذين اشتركوا سرا فى جماعة الاتحاد والترقى . وشرح رشيد رضا هذه المرحلة من جهاده قائلا :

« ولما علمنا بهذه المساعى (اليهودية) توخيت أن ألقى معتمد الجمعية الصهيونية بمصر ، فأستعرف له ، وأعترفه الحقيقة ، وأعرفه برأى الجمعيات العربية فى الأمر .. وكان مما كاشفت به

المعتمد الصهيونى ان عزم جمعيتهم شراء فلسطين من اخوانهم فى الماسونية زعماء جمعية الاتحاد والترقى قد بلغ زعمـاء العرب المشتغلين بالسياسة وترقية الأمة العربية ، وقرروا فيما بينهم أنه اذا تحقق هذا النبأ ووقع بأى شكل من الأشكال ، فلا وسيلة عندهم لمقاومته الا تأليف العصابات المسلحة من البدو وغيرهم لمقاومة هذا الاعتداء على بلادهم بكل ما يمكن من وسـائل المقاومة المعهودة عن الشعوب الأخرى .. » .

« ثم ذاكرت فى هذا الموضـوع زعيم الصـهيونية الكبير الدكتور وايزمن بعد الحرب العالمية والشروع فى تنفيذ وعـد بلفور ، فى اثر مذكرات أخرى مع بعض رجال الجمعية فى مصر والقدس .. ثم انقطعت المذاكرة فى هذه المسألة لاعتماد الصهيونيين على قوة الانكليز فى اعادة ملك اسرائيل لهم . وكل منهم يمكر بالآخـر » .

وكشف رشيد رضا بهذا التعليق الأخير أن التحالف القائم بين الصهيونية والانجليز تحالف قائم على المطامع الرخيصة . اذ كل منهما يبغى الشر بالوطن العربى وأبنائه . فالاستعمار يريد بقاء هذا الوطن مفككا ، والصهيونية تريد اقامة وطن لها ، ومن ثم أجمع الفريقان على انزال الضرر بالأمة العربية . ونادى رشيد رضا فى مقالاته بضرورة جمع كلمة العرب لمواجهة هـذا الخطـر الصهيونى ، الذى بلغ درجة عالية ، تضاءلت أمامهـا المشاكل الأخرى التى يعانى منها الوطن العربى . فكان الاستعمار يعمل جاهدا فى هذه المرحلة التى أعقبت الحرب العالمية الأولى على دفع

أبناء الأمة العربية الى مشاكل محلية تصرف أنظارهم عن هـذا العدو الجديد .

ولذا كان الميدان الذى حارب فيه رشيد رضا بقلمه وفكره ميدانا متعدد الجوانب متشعب المسالك . وتتضح أهمية الدور الذى نهض به هذا الامام المجاهد فى ذلك الميدان من ذكر النص الذى جاء فى « الميثاق » عن دسائس الاستعمار لصرف أبناء الوطن العربى ، وخاصة فى مصر بعد ثورة ١٩١٩ عن التضامن العربى . فأوضح الميثاق أن من أسباب فشل ثورة ١٩١٩ ، انصراف قادتها عن ادراك خطورة الاستعمار وتحالفه مع الصـهيونية ، وانغماسهم فى النظرة المحلية . ذلك « أن القيادات الثورية فى ذلك الوقت لم تستطع أن تمد بصرها عبر سيناء ، وعجزت عن تحديد الشخصية المصرية . ولم تستطع أن تستشف من خلال التاريخ أنه ليس هناك صدام على الاطلاق بين الوطنية المصرية وبين القومية العربية .

« لقد فشلت هذه القيادات فى أن تتعلم من التاريخ . وفشلت أيضا فى أن تتعلم من عدوها الذى تحاربه ، والذى كان يعامل الأمة العربية كلها على اختلاف شعوبها طبقا لمخطط واحد .

« ومن هنا فان قيادات الثورة لم تتنبه الى خطورة وعد بلفور الذى أنشأ اسرائيل لتكون فاصلا يمزق امتداد الأرض العربية وقاعدة لتهديدها » .

« وبهذا الفشل فان النضال العربى فى ساعة من أخطر ساعات الأزمة حرم من الطـاقة الثورية المصرية . وتمكنت القـوى

الاستعمارية من أن تتعامل مع أمة عربية ممزقة الأوصال مفتتة الجهـد » .

ولذا لم يكن عمل رشيد رضا فى تلك الأيام سهلا ميسورا ، واكتفى فى المنار بشن حملات شديدة على الصهيونية وحليفتها انجلترا . وأظهر علما فياضا فى فهم تاريخ اليهود ، واستخلاص أقوى العظات والعبر منه . فذكر أنهم فى كل مكان نزلوا به أثاروا الريبة والشكوك حولهم ، بسبب أطماعهم الفاسدة . وأوضح أن اليهود تنكروا لكل تعهد قطعوه على أنفسهم ، وأنهم غير جديرين بالثقة ، وأن الواجب يقضى انقاذ فلسطين من شرهم ، وبالتالى ايقاف هذا السم الزعاف من الامتداد الى سائر أرجاء الوطن العربى .

وترجع قوة دراسة رشيد رضا لمشكلة فلسـطين الى أنه استطاع وضع يده على الجرثومة الأولى لها ، وهى التحالف بين الصهيونية وانجلترا ، واتفاقهما على الضرر بالأمة العربية . ثم أنه اختتم تلك الدراسات برأى له ، هو نفس الرأى الذى يؤمن به أبناء الأمة العربية اليوم . فقال رشيد رضا :

« وقد تنبهت الشعوب اللاتينية والجرمانية للانتقام منهم (اليهود) . ولا يزال الانكلو سكسون ينصرون لهم بسبب نفوذهم المالى . ولكن الدولة الانكليزية هى التى ستقضى عليهم القضاء الأخير بمساعدتهم على تأسيس الملك اليهودى فى فلسطين، بظلمهم للعرب شديد ، وبغى فظيع ، بالرغم من وعيد الله لهم على لسان رسله ، ولا سيما المسيح الحق ، ومحمد خاتم النبيين —

صلوات الله وسلامه عليهما . وسيكون هذا الجمع بين الظلم والبغى الانكليزى والطمع اليهودى قاضيا على نفوذ انكلتره فى الشرق خلافا لما يظنان ، معجلا لحياة الأمة العربية خلافا لما يظنان، بمقتضى سنة رد الفعل فى الاجماع . بل عجل الله للانكليز الانتقام بزوال نفوذهم المعنوى وصيتهم الأدبى بفضيحتهم فى فلسطين . وسيتبعه النفوذ المادى ولو بعد حين . وأما اليهود فهم على ما ذكرنا من مزاياهم قد سلبوا الاستعداد للملك بفقدهم لملكة الحرب ، اذ قال الله فيهم (ولتجدنهم أحرص الناس على حياة) ، وبشدة اثرتهم المالية وعصبيتهم النسبية والدينية التى بغضتهم الى جميع شعوب البشر مسودين ، فكيف ان صاروا سائدين . وقد قال الله فيهم (أم لهم نصيب من الملك ؟ فاذن لا يؤتون الناس نقيرا) .

وقد ورد فى أخبار نبينا الغيبية أنه قال : تقاتلكم اليهود ، فتظهرون عليهم ، حتى يقول الحجر والشجر : يا مسلم ههنا ورائى يهودى تعال فاقتله » .

الفصل الثالث عشر

حياة الصالحين

المنزلة بين الناس

حمل رشيد رضا لواء الجهاد فى سبيل الاسلام والعروبة أربعين عاما متصلة الحلقات ، لم يعرف خلالها الراحة أو الهدوء . فدافع عن الاسلام فى كل موطن ، وخدم هذا الدين فى الفقه وفى الأدب وفى الاجتماع وفى التاريخ وفى السياسة بطريقة رائعة فريدة ، لا يدانيه فيها أحد . فله مواقف شريفة فى النضال الدينى عن الاسلام والزود عن عقيدته ، والرد على شبهات أعداء الاسلام من أبناء الملل الأخرى ومن الملحدين ، بما كتب له المكانة الرفيعة، وجعله يقف بين صفوف الأئمة الأول المجتهدين ، على قدم المساواة . وعبّر عن تلك المكانة أحد كبار المعاصرين لرشيد رضا، وهو الأمير شكيب ارسلان قائلا :

« انه منذ أوحى الى محمد صلى الله عليه وسلم (اقرأ باسم ربك الذى خلق) الى ساعتنا هذه ، ومنذ نشأت الأمة المحمدية ، وقد نبغ فيها من الأمراء والعلماء والقواد والحكماء ورجال السيف والقلم عدد كبير من العبقريين والمشاهير والأقطاب ،

فسواء قلّ هذا العدد أو كثر فان السيد رشيد رضا من صفوته المعدودين فى هؤلاء . ولا يمكن أن يكتب تاريخ الاسلام على الوجه الصحيح ، ويوفر فيه لكل علم من أعلامه الحق الذى يستحقه بدون أن يكون لصاحب المنار فيه مقام كريم وبرهان ساطع . وليس التأخر فى الزمن بالذى يدعو الى التأخر فى الرتبة . فكم ترك الأول للآخر ، بل كم رجح الحاضر على الغابر . والفضل لا يتعلق بزمن الفاضل » .

وجمع رشيد رضا الى جانب روحه الاسلامية نزعة قومية عربية أبية . ذلك أن عقله الكبير اتسع لكل شىء ، وكان يقظا ساهرا يلتقط كل شاردة وواردة تتعلق بالأمة العربية . فعرف رشيد رضا السياسة العالمية والسياسة الشرقية خاصة ، وأدرك أسرارها ، بحيث صار كثير من معاصريه من المنصرفين لشئون السياسة عالة عليه ، أو أقزام الى جواره . فكانت له آراء فى المشكلات السياسية والمعضلات الاجتماعية أثبتت الأحداث صدقها ، بما اشتملت عليه من فراسة وبعد نظر منقطع النظير . فبينما وقع كثير من المشتغلين بالقضايا العربية فى شباك الاستعمار وحبائله ، ظل رشيد رضا منزها عن الخطأ السياسى ، وبنجوة من التردى فى زيف الاستعمار وأباطيله .

وعاش رشيد رضا بذلك طوال الأربعين عاما التى قضاها فى ميدان الاصلاح الاسلامى العربى رئيسا وقائدا عظيما ، تتطلع اليه الأبصار ، وتلتمس عنده الهداية والارشاد . ودعم هذه المكانة القيادية التى تمتع بها رشيد رضا الدراسات العميقة التى قام بها

هذا الامام المجاهد فى شتى فروع العلم والمعرفة . ثم انه سجل تلك الدراسات فى مؤلفات عديدة حملت آراءه فى وضوح وجلاء بين مواطنيه ، وأخرست كل ادعاء لأعداء الاسلام والعروبة . وحظى رشيد رضا على قدرة خارقة للعادة فى الكتابة ، حتى انه كتب فى الساعات ما لا يقدر أن يسوده غيره فى الأسابيع ، وذلك فى سهولة ودون عناء . ووصف صديق رشيد رضا ، وهو الأمير شكيب ارسلان هذه المقدرة فى الكتابة قائلا :

« ولم أكن أرى فى عصرنا هذا أصبر على الكتابة وأجلد على الشغل وأسيل قلما وأسرع خاطرا من الشيخ رشيد : فلو وزعنا ما كتبه بقلمه وبخط بنانه فى حياته على خمسين كاتبا لأصاب كلا منهم قسط يجدر بأن يجعله فى صف المؤلفين العاملين . وقائل هذا القول الآن ليس ممن يأخذه العجب فى هذا الموضوع لأدنى شىء ، بل هو معروف بأنه لا يضيع دقيقة واحدة من وقته ، وأنه يتلقى أكثر من ألفى مكتوب فى دور السنة فيجيب عليها كلها ، ويكتب زيادة عليها مائتين الى مائتين وخمسين مقالة فى دور السنة وينشر من التأليف بضعة آلاف من الصفحات المطبوعة تأليفا . فلست اذا لأغبط أحدا من الخلق على شأو بعيد فى الجد ولا على محصول غزير من ثمرات الأقلام .

« ولكنى لا أدعى مباراة السيد رشيد فى هذا الشأو ، فقد كان يكتب جميع ما يكتبه بخط أنامله . ولم أعلم أنه استعمل كاتبا يملى عليه الا فى ما ندر . والحال اننى أنا أصغر منه ببضع سنوات ، وانى منذ عشر سنوات تقريبا أستعين بكتاب أملى عليهم

سواء الرسائل الاخوانية أو المقالات السياسية أو العلمية . ومما أدهشنى أن كتابه الأخير الىّ كان قبل وفاته بأيام قلائل ، وكان يشكو الىّ فيه المرض ، وهو أيضا بخطه » .

وكانت هذه الرسائل التى بعث بها رشيد رضا الى صديقه شكيب ارسلان ، والتى نشرها فى كتاب بعنوان « السيد رشيد رضا ، أو اخاء أربعين عاما » ؛ جزءا من مؤلفاته فى سبيل خدمة الاسلام والعروبة . وذلك أنها اشتملت الى جانب الروح الأخوية أراء السيد رشيد فى جميع حوادث العالم الاسلامى والمسائل والمشاكل التى شغلت المسلمين والعرب فى الحقبة الأخيرة الممتدة من نهاية الحرب العالمية الى يوم وفاة السيد رشيد . واحتوت تلك الرسائل أيضا على بحوث شرعية ولغوية واجتماعية وتاريخية وسياسية ومناقشات من كل لون . وبلغت الرسائل التى احتفظ بها شكيب أرسلان بخط صديقه رشيد رضا نحو مائتى رسالة ، أكثرها ذو صفحتين وثلاث ، ومنها ما يتجاوز عشر صفحات .

وعلى الرغم من كثرة تلك الرسائل ، وما اشتملت عليه من مناجاة أخوية الا أنها تكشف لقارئها ما تحلى به رشيد رضا من خلق الصالحين ، الذى هو خلق واحد فى السر والعلنية فالسيد رشيد رضا فى تلك الرسائل هو رشيد رضا المحرر لجريدة المنار وفى سائر مؤلفاته الأخرى ، لا يختلف باطنه عن ظاهره فى شىء . فكانت « أخلاق الشيخ رشيد العالية هى فى النجوى كما فى العلن . كانت بلاغته وقوته البيانية هى أيضا فيهما . فلا تجد انشاءه فى هذه الكتب الخاصة ينزل واحده عن انشائه فى المنار

وفى كتبه العامة ، لأن ملكة الفصاحة لا تفارق قلمه فى عام ولا خاص . ولابد للبحر أن يقذف الدر كيفما تحرك » .

وترك رشيد رضا تراثا علميا رائعا ، لا ينهض به الا رجل يعيش عيشة الصالحين ، المنقطعين للعبادة عن طريق العمل . اذ يتضح من سرد أسماء تلك الأعمال العلمية أن صاحبها لم يعرف فى حياته لغوا ولا لهوا ، وانما استهدف الجد والنفع العظيم ، ومنهـا :

١ — الحكمة الشرعية فى محاكمة القادرية والرفاعية . وهى أول مؤلفات رشيد رضا ، دوّنه أثناء طلبه للعـلم بالشام ، واستهدف به الرد على أبى الهدى الصيادى الذى تعرض للشيخ الصوفى السـيد عبد القـادر الجيلانى . وانتهى رشيد رضا فى هذا الكتاب الى تحقيق مسائل فى الاصلاح الاسلامى ، نشر بعضها فيما بعد فى المنار .

٢ — مجلة المنار ، وصدر الجزء الأول منها سنة ١٣١٥ هـ /١٨٩٨ م أى عقب هجرته مباشرة الى مصر ، وآخر ما طبع فيها الجـزء الثانى من المجـلد الخـامس والثـلاثين فى ٢٩ ربيع الثـانى سـنة ١٣٥٤ هـ / ١٩٣٥ م . وتلك المجموعة من مجلة المنار هى المعلمة الاسلامية الكبرى ، والكنز الذى احتوى ثمار تجارب رشيد رضا وآرائه فى الاصلاح الدينى والسياسى . وتعتبر المؤلفات الأخرى التى وضعها رشيد رضا فيما

بعد فروعا لدوحة المنار ، أو شرحا لآراء سبق أن أشار اليها فى المنار ، أو دراسات جمعها فى وحدة واحدة بعد أن كانت شذرات مبعثرة فى المنار . ومن تلك المؤلفات .

٣ — تاريخ الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده وما جرى بمصر فى عصره .
٤ — نداء للجنس اللطيف (حقوق النساء فى الاسلام) .
٥ — الوحى المحمدى .
٦ — المنار والأزهر .
٧ — ذكرى المولد النبوى .
٨ — الوحدة الاسلامية .
٩ — يسر الاسلام وأصول التشريع العام .
١٠— الخلافة أو الامامة العظمى .
١١— الوهابيون والحجاز .
١٢— السنة والشيعة .
١٣— مناسك الحج ، أحكامه وحكمه .
١٤— تفسير القرآن الكريم ، المعروف بتفسير المنار .
١٥— حقيقة الربا .
١٦— مساواة الرجل بالمرأة .
١٧— رسالة فى حجة الاسلام الغزالى .
١٨— المقصورة الرشيدية .

وهيأ هذا السيل من المؤلفات قصب السبق لرشيد رضا على

سائر المعاصرين له من كبار العلماء ، وجعله فى مركز الصدارة بين عظماء المصلحين وقادة التحرير عن جدارة وقوة . فقد تعرض هذا الامام المجاهد لأعداء كثيرين من شتى الطبقات والاتجاهات ، من رجال الدين ، والعلماء ، والساسة ، ونفر من عامة الناس كذلك . واستطاع رشيد رضا بفضل مؤلفاته ، وما كشفت عنه من رسوخ فى العلم وايمان بالعقيدة وثبات على المبدأ أن ينتصر على جميع أولئك الخصوم ، ويثبت لهم صدق اخلاصه ، ثم ينتزع منهم عصا التمرد ، ويحملهم على الاعتراف بزعامته .

وكان رائد رشيد رضا طوال تلك المعارك التى خاضها التمسك بخلق الصالحين . فلم يعرف الحقد الى قلبه سبيلا ، وكثيرا ما ثار على المتحاملين عليه ، ثم لا يمضى قليل الا وينسى ذلك بالمرة ويعود الى ذكر حسنات ذلك العدو الذى هاجمه . وتمسك رشيد رضا بهذه الخصلة وهى الابتعاد عن الحقد ، لأنه أدرك بفطرته الطاهرة أن الممات لا يبقى على أحد . وذكر صديقه شكيب أرسلان فى هذا الصدد ذلك التعليق الرائع :

« وكان خلقه هذا يذكرنى بما قرأته فى سيرة صلاح الدين يوسف الأيوبى . فقد روى بهاء الدين بن شداد أن الملك الظاهر ابن صلاح الدين استأذن والده بعد أن تم له فتح القدس ليرجع الى حلب التى كان أبوه أقطعه اياها . فلما أراد وداعه ، أخلى المكان وقال له : أوصيتك بتقوى الله فانها رأس كل خير ، وآمرك بما أمر الله به فانه سبب نجاحك ، وأحذرك من الدماء والدخول فيها والتقلد بها ، فان الدم لا ينام . وأوصيك بحفظ قلوب

الرعية ، والنظر بأحوالهم ، فأنت أمينى وأمين الله عليهم وأوصيك بحفظ قلوب الأمراء وأرباب الدولة ، فما بلغت ما بلغت الا بمداراة الناس . ولا تحقد على أحد فان الموت لا يبقى على أحد » .

وأجمع المعاصرون لرشيد رضا على أنه كان أصدق الناس لهجة وأبعدهم عن الكذب والتدليس . وقد تأصل هذا الخلق فيه بسبب دراسته للحديث الشريف ، وما يتطلبه ذلك من الحيطة فى رواية الحديث وضبط الكلمة بل الحرف . فصار رشيد رضا لا يقول الا ما يعلمه ، الا اذا كان ما يعلمه يدعو الى الفتنة لو باح به . فكان يسكت عن ذلك ، ولا يقول الا خيرا . وبذلك اشتهر رشيد رضا بكراهيته للغيبة ، واحتقار النميمة ، واحترامه بالتالى لحقوق الصداقة والاخوان . وكانت هذه السمعة الطيبة شيئا غير يسير لمن يتصدى للاصلاح ، ويحيط به الخصوم من كل جانب ، ويعملون على تسوىء سمعته بالحق والباطل . فلم يرتفع نقد ، حتى من بين أعداء رشيد ، حول صداقته وعلاقته باخوانه ، واعترف له الخصوم والأصدقاء بأنه ترفع عن الكذب فى كل صغيرة وكبيرة من تصرفاته .

وأشاد الأمير شكيب أرسلان بقدرة رشيد رضا على نسيان العداوة ، وحرصه على اعادة المودة مع كبار معاصريه من المناوئين له . فحين كان رشيد رضا فى چنيف سنة ١٩٢١ للدفاع عن الشام والتنديد باحتلال فرنسا لتلك البلاد ، ذهب مع شكيب أرسلان للطواف بسائر عواصم المدن الأوربية الأخرى . وعندما ذهبا الى برلين قصدا النادى الشرقى للسمر به . وكان الأستاذ الشيخ

عبد العزيز جاويش من أعضاء مجلس ادارته ، وبينه وبين رشـيد رضا اذ ذاك شيء من الجفوة . وتوسط شكيب أرسلان بين هذين العالمين ، لازالة سوء التفاهم بينهما . وعندما جاء الشـيخ عبد العزيز للسلام ، رحب به رشيد رضا ، وتحدثا سويا فى سرعة ، ونسى ما بينهما من خلاف . ثم لبى رشيد رضـا دعوة الشيخ عبد العزيز جاويش لتناول طعام مصرى طهاه الشبان المصريون بأيديهم ، دلالة على عودة العلاقات الطيبة بينهما .

وحرص رشيد رضا طوال هذه الرحلة على حفظ أواصر المودة مع أصدقائه ، وخاصة فى أبسط الأمور . فكان شكيب أرسلان يؤدى النفقات طول الرحلة ، وعند نهاية كل يوم يسأل رشـيد رضا عما تم انفاقه ، ويؤدى ما عليه . ولا يقبل فى ذلك مناقشة . وذكر شكيب أرسلان ان السيد رضا سها فى آخر الرحلة عن طلب الحساب . فلما عاد الى مصر تنبه الى سهوه وبعث الى شـكيب أرسلان بكتاب « صبح الأعشى » ، وهو فى أربعة عشر جزءا ، ويساوى أكثر من الباقى عليه .

وهكذا جمع رشيد رضا الأخلاق الكريمة فى حياته العـامة والخاصة ، الى جانب ما تحلى به من علم واسع وأدب غزير : وأجمع المعاصرون له على أنه كانت فيه مجموعة من صـفات العلماء والأمراء معا . « فكان مع وداعته وقورا ، وفى تواضعه كبيرا . وكانت رقته فى مواطن الحنان تدل على بلوغ الانسانية فيه مثلها الأعلى ، وأنه قلما اجتمع العلم والخلق اجتماعهما فى

الشيخ ، وقلما جرى العقل والقلب شوطا واحدا كما جريا فى هذه الفطرة الشريفة » .

وبذلك نال رشيد رضا اجلال معاصريه ، واحترامهم ، كبيرهم وصغيرهم ، عالمهم وطالبهم . فكان أخص أصدقائه ، حتى المتقاربين معه فى السن يبادرون الى تقبيل يده لعلمه وفضله ، واعترافا منهم بفضله . فروى شكيب ارسلان أن نفرا من الناس سأله مرة عن سبب تقبيله يد رشيد رضا ، فى وقار واجلال . فأجاب ، أنه قبل يد العلم ، قبل اليد التى طالما ناضلت عن الاسلام ، وتناولت قلما من نوادر الأقلام التى كشفت الكرب عن وجوه المسلمين » وخير ما يصور حياة الصالحين التى عاشها رشيد رضا قول أحد أصدقائه « وكانت فيه على وفرة عقله وكثرة تجاريبه طفولة العظماء ، يصدق كل الناس ويثق بهم » . فكان رشيد رضا لا يرى الناس الا بمرآة نفسه ، ونفس الشيخ رشيد لم يكن ينقش فى لوحها غير الجميل » .

الزاد للآخرة

وظلت نظرة رشيد رضا وهو يخوض خضم الحياة نفس نظرته وهو طالب يدرس العلم ، نظرة الطهر والمثالية ، وأداء العمل ابتغاء وجه الله ، لا يبغى لنفسه شهرة شخصية أو كسبا ماديا . فلم يتخذ من جريدة المنار أو المؤلفات القيمة التى دونها سبيلا للثراء والجرى وراء زخرف الدنيا ، على نحو ما تردى فيه نفر من معاصريه . كذلك بقى رشيد رضا مرفوع الهامة أمام أصحاب السلطان فى العالمين الاسلامى والعربى ، لأنه زهد فى

بريق ذهبهم ، ولم يعرف بابهم الا ناصحا أمينا ، وهاديا الى ما فيه خير الاسلام والعروبة . فكان شعار رشيد رضا دائما ، ايمانه بأن « الذين اشتغلوا بعلوم الدين بقصد اصلاح أنفسهم واصلاح غيرهم فى كل جيل كانت الدنيا أشد انقيادا لهم ممن طلبوها بالدين وعلومه . ولكن أكثر أولئك قد زهدوا فيها وآثروا ما عند الله على جاهها ومالها » .

وكانت جريدة المنار قد ازدهرت فى السنوات العشر الأولى من حياتها ، ثم زادت أعمال رشيد رضا بعد أن أسس مطبعة خاصة بالجريدة ، وصار يطبع فيها الى جانب المنار كثيرا من الكتب الدينية والأدبية القيمة . وتطلبت هذه الأعمال ادارة مالية حازمة دقيقة ، لم يقدر عليها رشيد رضا بنفسه ، كما أنه لم يجد الشخص الأمين الكفء لتولى هذا العبء عنه . وكانت السلطات فى الدولة السعودية الناشئة قد عهدت الى رشيد رضا بكثير من المطبوعات، جعلت الادارة المالية فى حاجة ماسة الى يد مخلصة أمينة للاشراف عليها . ولكن رشيد رضا ظل عاكفا على رسالته الأساسية وهى خدمة أمته ، والاشراف على طبع الكتب والمؤلفات دون رسم خطة سوية للشئون المالية .

والمعروف أن المال عصب الحياة ، وأن حسن القيام على المال شرط أساسى للابتعاد عن الأزمات وتجنب المتاعب الاقتصادية . وتفيض الرسائل التى بعث بها رشيد رضا الى صديقه الأمير شكيب أرسلان بوصف تفصيلى لانصراف هذا الامام المجاهد عن الشئون المادية ، واتجاهه أولا وأخيرا الى العمل فى سبيل الله

والأمة العربية ، لا يبغى من وراء ذلك جزاء ولا شكورا . فجاء فى أحدى تلك الرسائل شرح لأسباب الأزمة المالية التى وقع فيها رشيد رضا ، قال فيها لصديقه :

« وكان الربح العظيم والغنم من هذه المطبوعات (السعودية)، أنها جرأتنى على شراء الدار بالتقسيط لتكون مستقرا للعيال اذا جاء الأجل وهم صغار . وكان القسط السنوى بعد دفع المقدم من الثمن زهاء أربعمائة جنيه فى السنة على مدة ست سنين . ولكن كان القسط الشهرى من نفقة مطبوعات جلالة الملك (للدولة السعودية) مائتى جنيه ، فلا خوف من العجز لو طالت المطبوعات متصلة . ومن يعلم ما خبأه القدر للبشر « لو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء » . فجاءتنا العسرة ، وانقطعت عنا مطبوعات الملك وغيرها ، اذ كان قد اشتهر أن مطبعة المنار لا تطبع غير مطبوعاته ومطبوعاتها الخاصة . وركبتنا ديون فوق أقساط الدار التى صارت تزيد كل سنة بما يضاف اليها من فوائد التأخير وغيرها من أنواع (المصاريف) التى لا تخطر لمن لم يبتل بمعاملة المرابين ببال ، وفيها نفقات النذور والمحامين الذين يكلفون المطالبة ورفع الدعوى وتنفيذ شروط الرهن ببيع المرهون بالمزاد . وقد تكرر هذا ، وكنا نرضى شركة الرهن كل مرة بدفع مبلغ من المستحق لتأخير التنفيذ » .

واشتدت الأزمة المالية برشيد رضا دون أن يجد مساعدات مالية من السلطات التى شجعته على طبع كتبها ، فجاء فى احدى رسائله الى شكيب أرسلان : « وقد عرض لنا فى هذه الأيام أن

أم الأولاد قد ألح أهلها بطلبها الى طرابلس لرؤية والدها الذى يخشون أن يقضى عليه مرضه العضال . فاضطررت الى تجهيزها وارسالها وبذلك زادت مشاغلنا ، والعسرة لا تزال ضاربة أطنابها . وقد طلبت من الحجاز ٢٠٠ جنيه سلفة للاستعانة بها على طبع آخر كتاب لهم عندنا ، ولما يجب طلبنا ، والأمر لله تعالى (ان مع العسر يسرا ، ان مع العسر يسرا) .

وألحت الأزمة المالية على رشيد رضا ، حتى انه كتب الى صديقه شكيب أرسلان ، يعتذر عن عدم الاستجابة لدعوته بالذهاب اليه فى لوزان وقضاء فصل الصيف طلبا للراحة . فقال :

« فأنا أكتب هذا مستلقيا على سريرى . وقد طالعت قبل كتابته بعض ما فى الجرائد والمجلات التى وردت مع بريد الصباح فزادت حرارتى نصف درجة فى ساعة واحدة . وقد أجمع الأطباء الذين تواردوا علىّ فى هذا المرض على توقف شفائه السريع على الراحة التامة بترك القراءة والكتابة والتفكير المحزن . وقد اعتزلت دخول مكتبى لأجل طاعتهم من مدة خمسة أسابيع ..

« ما كان أشد سرورى بدعوتك السابقة لى الى تغيير الهواء لديكم فى لوزان حيث أتمتع بالمحاورات والمسامرات معك .. وانما كان سرورا بأمنية يتعذر علىّ تحقيقها لدوام الحمى علىّ ..

كانت العسرة المالية ونتائجها من أسباب طول هذه الحمى وقد زالت .. وقد غير لى الدكتور النطاسى المعالج لى الآن العلاج ووسع لى شيئا فى غذاء الحمية ، وقدر للشفاء عشرة أيام ، وأنا

أرجو أن تكون خمسة أيام ، فعسى الله أن يصرف عنى فيها المكدرات » .

وفى خطاب آخر شكا رشيد رضا الى صديقه شكيب أرسلان تكالب الديون عليه فقال : « كنت أمس صائما ، وقد بلغت الحرارة درجة الأربعين أو زادت من حيث بلغت العسرة درجة ١٠٠ . وجاءنا فى بريد الصباح انذار من بنكين باستحقاق كمبيالتين علىّ وانذار من بنك مصر بالتذكير بكمبيالة سابقة بعد مطالبتى له بتأجيل كمبيالة استحقت فى هذا الشهر . ثم جاءنى بعد العصر عامل من محل تجارة نكامولى يحمل ثلاث كمبيالات قديمة لم تدفع لتغييرها بكمبيالات جديدة مؤجلة تستحق أولاها بعد شهرين ، فأمضيت الجديدة واستعدت القديمة . وان ما يطلب منا اليوم لا نملك عشره ولا نصف عشره .

وأخيرا استحكمت حلقات الأزمة المالية فى سنة ١٩٣٥ ، وهى السنة التى توفى فيها رشيد رضا . فكتب الى صديقه شكيب أرسلان أنه اضطر فى أوائل هذه السنة الى حل مؤقت للأزمة « برهن جديد للدار على ألف ومائتى جنيه بفائدة ٩٪ لمدة ست سنين ، يستحق القسط الأول فيها فى مايو سنة ١٩٣٥ وهو مائتا جنيه ، تضاف اليه فائدة السنة ١٠٨ جنيهات . وخسرنا فى نفقة هذا الرهن الجديد زهاء مائة جنيه أيضا ، ولو كان معنا ٣٠٠ جنيه لكنا فى غنى عنه » .

ان هذا العرض للأزمة المالية التى مرّ بها رشيد رضا حتى

أواخر أيامه تكشف عن صلابة عود هذا الامام المجاهد . فقد ظل قوى الشكيمة ، لا يهن ولا يضعف ، وانما تابع حمل راية الجهاد عن أمته العربية ودينه فى ايمان الصالحين الأتقياء . فلم ينس الأخطار المدلهمة التى حاقت بالأمة العربية وسط عسرته ، ورأى أن المحنة التى تجتازها البلاد العربية نتيجة عدوان اليهود على عرب فلسطين ، وبمساعدة الانكليز هى الأولى بالرعاية والعمل على التخلص منها . لقد ذكر فى كتاب له لصديقه شكيب أرسلان وكان اذ ذاك بالحجاز أن من الواجب على الدولة السعودية الناشئة أن ترفع صوتها وصوت جرائدها للتنديد بالصهيونية وتحالفها مع انجلتره ، دون نظر لما للسلطات السعودية من ديون على المنار مقابل طبع كتبها هناك . ان عرض هذا الخطاب يوضح حياة الصالحين التى عاشها رشيد رضا ، والتى ينطبق عليها قوله تعالى « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » .

ونص هذه الرسالة التى بعث بها رشيد رضا الى شكيب أرسلان وهو بالسعودية ما يلى : « وقد تم طبع الجزء الثامن من المغنى مع الشرح الكبير ، ونرسل فى بريد اليوم نسختين مجلدتين منه الى سمو الأمير فيصل ، مع كتاب عتاب أعلمته فيه بأن المستحق للمطبعة بهذا الجزء ٧٩٤ جنيها مصريا وكسورا . وان لنا أن نطلب فوقها ٢٠٠ جنيه للاستعانة بها على طبع الجزء التاسع حسب الاتفاق بيننا . وقد اشترينا بعض ورق هذا الجزء بالدين ورجوته حل

المشكلة بما يراه ، ولو بارسال حوالة ببعض المبلغ الى أن يأتى أمر جلالة الملك .

الأمر الأهم الأعظم فى مسألتنا العربية وكذا الاسلامية هو مسألة الثورة فى فلسطين . وستجدون من أخبارها فى الجرائد العربية التى تصل مع هذا الكتاب الى الأمير والى جريدة أم القرى ما هو دون الواقع . ومما يسر أن بلاد سورية قامت بالواجب من اظهار السخط والاحتجاج ، واشترك النصارى مع المسلمين فى المواكب ببيروت بالشام ..

والواجب الأهم الأنفع أن يسمع صوت الحجاز فى ذلك من جانب الشعب ومن جريدة أم القرى ، وأخشى أن تجبن هـذه الجريدة أو تمنعها الحكومة عن رفع صوتها بالاستنكار والاحتجاج والوعيد لليهود مراعاة للدولة الانكليزية . فان لم تفز باقناع من تخشى منهم هذا بأنه خطأ وضعف ، وان هذه خير فرصة لاظهار قيمة الحجاز ومكانته فى هذا العصر لكل من الانكليز والعرب والمسلمين ، وأنها تقوى مركز حكومته وملكه أعظـم تقوية ولا تخشى من ورائها أقل تبعة — ان لم يمكن هذا وهو ما يحزننا فأقل الواجب أن تنشر الجريدة (أم القرى) عدة مقالات شديدة اللهجة بأسماء بعض الكتاب يظهرون فيها استياء الشعب العربى كله وعدم امكان وقوفه موقف المتفرج اذا امتدت الفتنة ، وكان المراد منها استيلاء اليهود على عرب فلسطين وعلى المسـجد الأقصى ..

أنت أنت أيها الأمير الذى لا أحتاج الى اطالة القول معه فيما يجب ولا سيما اذا رأيت فى البرقيات العامة أن الانكليز لا يمكنهم الأخذ بالحزم المطلوب فى المسألة الا بعد العلم بموقف ابن السعود ودرجة ولائه لهم .. وأنت أنت الذى يمكنك أن تفعل فى هذه المسألة ما لا يمكن غيرك والسلام .

أخوك
رشـــيد

ان هذا الخطاب ، وما احتواه من استغاثة ، يدل دلالة واضحة على ايمان رشيد رضا بوطنه العربى ، وتضحيته فى سبيله بكل مرتخص وغال . فلم ينتهز فرصة وجود صديقه شكيب أرسلان بالحجاز ليكلفه بحل الأزمة المالية التى كان خناقها يشتد عليه ، وانما استنجد به ليحمل السلطات فى الحجاز على أن تسهم مساهمة فعالة فى خدمة القضايا العربية ، وخاصة حل مشكلة فلسطين ، والتى صارت الشغل الشاغل للعرب . وفضلا عن ذلك لم يضع رشيد رضا فرصة برغم مرضه لمقابلة زعماء العرب ، والتحدث معهم فى الشئون العربية وتزويدهم بنصائحه وارشاداته . وكان يعمد الى اطالة البقاء معهم كلما استطاع الى ذلك سبيلا ليفرغ ما فى جعبته الحافلة بالتجارب القيمة .

ولقى رشيد رضا ربه وهو يجاهد فى سبيل رسالته وأمته العربية ، شأن الشهداء الأبرار . اذ خرج لوداع الأمير سعود فى السويس ، وأثناء عودته بالسيارة وقبل وصوله مصر الجديدة ،

فى منتصف الساعة الثانية بعد ظهر الخميس ٢٣ جمادى الأولى ٢٢ أغسطس سنة ١٩٣٥ انتقل الى الملأ الأعلى . وكان قد أتعب ذهنه وجسمه كما قال ابن عمه السيد عبد الرحمن عاصم « أتعب ذهنه باجهاده بالنصائح والوصايا لولى العهد — شأنه مع كل من يتوسم فيه خير — وأتعب جسمه بركوب السيارة الى السويس ذهابا وايابا ، وطريقها ليست سهلة ، وسهر أكثر الليل يفكر ويراجع . وأبى رحمه الله ورضى عنه أن ينتظر فى السويس الى المساء يستريح ، وقال لمن رجاه ذلك : لا ! سأستريح فى بيتى » .

وروى المرافقون للسيد رشيد فى هذه الرحلة التى فاضت فيها روحه الكريمة ، تمسكه بحياة الصالحين ، وهو فى الرمق الأخير . اذ انصرف الى قراءة القرآن والسيارة عائدة من السويس . وما زال يقرأ حتى أصابه دوار من ارتجاج السيارة ، وتقيأ . ثم عاد الى القرآن يقرأه . ثم اتكأ على ظهره فى السيارة ، ولم يشعر مرافقوه الا وفاضت روحه الزكية الطاهرة الى ربها راضية مرضية . وذكر من رآه فى تلك الساعات القاسية أنه كان كالنائم المستريح فى نومه العادى ، يعلو وجهه نور ووضاءة ، ولم يفارقه لونه الطبيعى ولا ابتسامته اللطيفة الا قليلا ، ولم يصفر اصفرار الموت . ودفن فى قرافة المجاورين فى قبر بجوار الأستاذ الامام محمد عبده .

ان هذه الأوصاف التى رواها المرافقون للسيد رشيد رضا أثناء الوفاة وبعدها تدل على أن نفسه الراضية انتقلت الى ربها

راضية مرضية . لقد استجاب الله لرشيد رضا ، اذ كان آخر ما فسره من القرآن الكريم قوله تعالى فى سـورة يوسف :
« رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث ، فاطر السموات والأرض ، أنت وليى فى الدنيا والآخرة ، توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين » .



المراجع العربيـــة

أحمد امين : زعماء الاصلاح فى العصر الحـديث (١٩٤٨)

احمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى مصر (١٩٤٥)
التقسيم الادارى لسورية فى العهد العثمانى — حوليات كليـــة الآداب — جامعة عين شمس — مايو ١٩٥١

آدمز : الاسلام والتجديد فى مصر (ترجمة عباس العقاد)

آمين عبد الله : تاريخ مصر الاقتصادى والمالى

انيس خورى : الاتجاهات الأدبية فى العالم الحديث

بهى آلدين زيان : الغزالى ١٩٥٨

الجبرتى : عجائب الآثار (١٣٢٣ هـ)

توفيق الطويل : تاريخ التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى (١٩٤٦)

جمال الدين الشيال : الحركات الاصلاحية ومراكز الثقافة فى الشرق الاسلامى الحديث(١٩٥٨)

جورج انطونيوس : يقظة العرب (ترجمة الركابى)

جورجى زيدان : مشاهير الشرق (١٩٢٢)

رشيد رضا : مجلة المنار
تاريخ الأستاذ الامام

زكى مبارك : التصوف الاسلامى (١٩٣٨)

ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمـــانية (١٩٥٧)

سامى الدهان : قدماء ومعاصرون (١٩٦١)

سليمان دنيا : الشيخ محمد عبده بين الفلاســفة والكلاميين

شكيب أرسلان : رشيد رضا ، أو اخاء أربعـــين عاما (١٩٣٧)

عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية (١٩٢٩)

عبد القادر المغربى : جمال الدين الأفغـــانى ، ذكريات وأحاديث (اقرأ ٦٨)

عبد المتعال الصعيدى : المجددون فى الاسلام من القرن الأول الهجرى الى الرابع عشر الهجرى

عبود مارون : رواد النهضة الحديثة (١٩٥٢)

عثمان أمين : رائد الفكر المصرى (١٩٥٥)

محمد البهى : الفكر الاسلامى الحـــديث وصلته بالاستعمار الغربى (١٩٦٠)

محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى

محمد ضياء الدين الريس : الشرق العربى والخلافة العثمانية

مصطفى الشهابى : القومية العربية

نجلاء عز الدين : العالم العربى.

المراجـــع الأفرنجية

Abbott. G.F.,

Turkey, Greece and the Great Powers

Dunne, H.,

Introduction to the History of Education in Modern Egypt (1934)

Gibb H.A.,

Muhammedanisn (1950)

Islamic Society and the west (1950 - 1957)

Hitti.,

History of Syria

Hourani A.,

Modern political thought in Syria and Lebanon.

Arabic thought in the Liberal Age 1798-1939 (1962)

Nicholson.,

Studies in Islamic Mysticism (1921)

Valyi, F.,

Spiritual and political Revolutions in Islam

Young. T. G.,

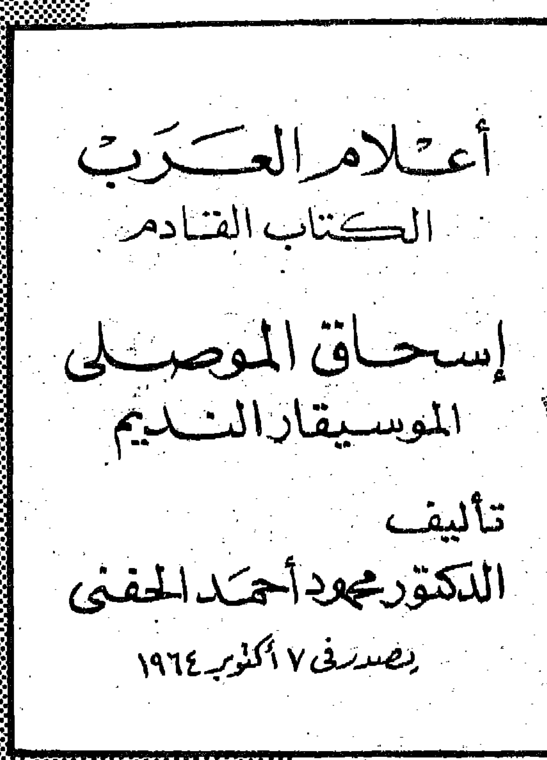
Near Eastern Culture and Society

Zeine.,

Arab - Turkish Relations.

الفهـــرس





يطلب من
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي "الفجالة"
الثمن ٥ قروش

مطبعة مصر